

رسالة القلم

إسلامية ثقافية شاملة



العدد الخامس والثلاثون - السنة التاسعة - رجب ١٤٣٤ هـ - مايو ٢٠١٣ م

٣٥

أقرأ خبراً في كل يوم

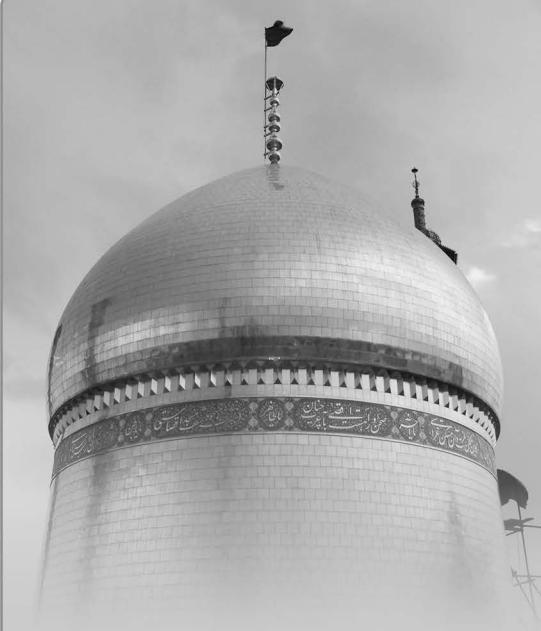
- ◆ الأشهر الثلاثة محطّات التزوّد والتفرّغ... حوار مع سماحة الشيخ محمد سيف حفيظة
- ◆ دور صلاة الليل في تعميق المحبة
- ◆ الصوم مدرسة الفضائل الأخلاقية
- ◆ عظمّة الحجّ في أدعية شهر رمضان
- ◆ البكاء عند الدّعاء
- ◆ بحث مختصر حول ليلة القدر
- ◆ الصيام في ضوء القرآن

Resalat Alqalam



رسالة القلم

إسلامية ثقافية شاملة



**فصلية تصدر عن
طلاب البحرين في الحوزة العلمية
بمدينة قم المقدسة**

**برعاية
مكتب البيان للمراجعات الدينية**

• **الهيئة الاستشارية:**

الشيخ عبد الله علي الدقاد
الشيخ علي فاضل الصدقي
الشيخ غازي عبد الحسن السماك

• **المشرف العام :**

الشيخ عبد الرؤوف حسن الريبي

• **رئيس التحرير:**

الشيخ محمد علي خاتم

• **مدير التحرير:**

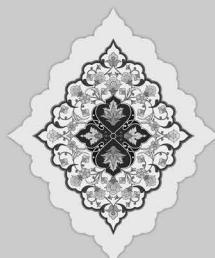
الشيخ حسين فؤاد المرزوق

• **رئيس هيئة التحرير:**

الشيخ عزيز حسن الخضران

هيئة التحرير:

الشيخ حسين علي أبو رويس
الشيخ محمد باقر خليل الشيخ





٣٥

اقرأ في هذا العدد

كلمة العدد

مدرسة الصالحين

٣

=

رئيس التحرير

حوار العدد

٦

=

حوار مع سماحة الشيخ محمود سيف

الأشهر الثلاثة محطات التزوّد والتفرغ

ملف العدد: أشهر العبادة

دور صلاة الليل في تعميق المحبة

٢٣

الشيخ عادل علي الشعلة

الصوم مدرسة الفضائل الأخلاقية

٣٨

السيد ياسين السيد قاسم الموسوي

عظمة الحج في أدعية شهر رمضان

٥٢

الشيخ مهدي عباس البحرياني

البكاء عند الدعاء

٦٩

الشيخ حسن هلال الزاكى

بحث مختصر حول ليلة القدر

٨٧

الشيخ عزيز حسن الخضران

الصيام في ضوء القرآن

١٠٣

الشيخ عيسى مكي علي الجزييري

حقيقة مصحف فاطمة

١٢٠

الشيخ إبراهيم الأنصاري

سيماء فاطمة (صلوات الله عليها) في القرآن

١٣٨

ترجمة وتحقيق: الشيخ رائد عبد الكريم الخنزري

بحوث ومقالات أخرى:

القاعدة في الحيوان حلية أو حرمة ذات

١٥٥

الشيخ علي فاضل الصدדי

تأملات في مفردات مكارم الأخلاق

١٧٠

الشيخ علي إبراهيم عبد العال

بُر الوالدين في الصحيفة السجادية

١٨٠

الشيخ حسين أديب الناصر

طرق الفهرستين، هل هي إلى واقع الكتب أم لا؟

١٩٢

الشيخ عبد الرؤوف حسن الربيع

مِدْرَسَةُ الصَّالِحِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ.

نضحك إن قال لنا طفل إِنَّه يَتَمَنِي أَنْ يَغْمُضْ عَيْنِيهِ
لِي فَتَحُهُمَا وَقَدْ صَارْ طَبِيبًا مَثْلًا... وَذَلِكَ لِخُضُورِ الْجَوَابِ عِنْدَنَا.
وَهُوَ أَنَّهُ حَتَّى يَصُلُّ هَذَا الطَّفَلُ إِلَى مَرَادِهِ فَإِنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى الْوَقْتِ
وَالْجَهَدِ الْمُنَاسِبِينَ لِمَا يَطْلَبُ...
إِلَّا أَنَا لَا نضحك مِنْ أَنفُسِنَا حِينَما نَطْلَبُ مَطْلَبًا عَلَى
طَرِيقَةِ الطَّفَلِ الصَّفِيرِ...
الكثير مِنَّا يَرِي مَيْزَاتِ الصَّالِحِينَ وَمَقَامَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى،
فَيَطْلَبُ عِنْدَنَا الدُّخُولَ فِي دَائِرَةِ الصَّالِحِينَ بِصَلَةٍ مَا أَوْ بِصَيَامٍ
مَا... غَيْرَ مَكْتُرَثٍ بِعَامِلِ الْوَقْتِ وَالْجَهَدِ.

حَالَةُ الصَّالِحِ بِنَشْدِهَا كُلَّ مُسْلِمٍ لِنَاسِبَتِهَا طَبَعَ الْإِنْسَانَ
السَّوِيِّ، لَذَا جَدَ التَّحْبِيبُ الْوَارِدُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنْنَةِ النَّبُوَيِّةِ
الشَّرِيفَةِ؛ فَنَجَدَهَا فِي الْقُرْآنِ قَدْ وَقَعَتْ فِي دَعَاءِ ثَلَاثَةِ مِنْ أَنْبِيَاءِ
اللَّهِ تَعَالَى ﴿تَوَقَّنِي مُسْلِمًا وَالْحِقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(١)، ﴿رَبَّ هَبَّ لِي
حَكْمًا وَالْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(٢)، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ﴾^(٣)، وَجَدَهَا وَاقِعَةً فِي صُورَةِ الْجَزَاءِ؛ أَيْ لَأَنَّهُمْ صَالِحُونَ
فَهُمْ يَسْتَحْقُّونَ الدُّخُولَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَأَدْخِلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا
إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وَمِنْ إِضَافَةِ الرَّحْمَةِ إِلَيْهِ عَزَّ اسْمُهُ نَسْتَفِيدُ

خصيصهم وإكرامهم برحمة خاصة. فتأمل!

ومن دخل في دائرة الصالحين فقد حصل على ميزة أخرى وهي أن الله يتولى أمره. وحق للعبد أن يتفاخر بذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْبُّ الْأَئْمَانَ وَهُوَ يَتَوَلَّ الصَّالِحِينَ﴾^(٤).

ونجدها في السنة الشريفة إذا ما قورنت بغيرها فإنها تكون الأرقى والأرفع. ففي حديث طويل عن رسول الله عليه وآله يذكر فيه الجنة وأوصافها وأبوابها المخصصة لأصناف مختلفة من المؤمنين. فكل من الصابرين والشاكرين وغيرهم باب يدخلون منه. وأعظم تلك الأبواب إنما يكون للصالحين. فيقول الرسول عليه وآله: «أما الباب الأعظم فيدخل منه الصالحون»^(٥).

وإن طلبت - أيها المهذب نفسه - علامات الصالحين، فقد ذكرها الرسول الأكرم عليه وآله في تتمة الحديث السابق. فيقول عليه وآله: «وَهُمْ أَهْلُ الرَّهْدِ وَالْوَرْعِ وَالرَّاغِبُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمُسْتَأْنِسُونَ بِهِ»، فمن زهد رغب عن الدنيا وحاسب نفسه بنفسه. وعمل بلا يأس ولا كلل أو ملل. فتشغل موازينه بالصالحات والخيرات. فيتمتع بأنواع النعيم في الجنة.

فالدخول في دائرة الصالحين يتطلب الجهد والوقت. وليس ذلك بعزيز بعد وجود موسم عبادي متكملا يعود في الواقع مدرسة لتخريج الصالحين. فتسعون يوماً من الصيام والقيام مشفوعة بالتوسل والدعاء كفيلا بأن يصل العبد إلى الدرجات العالية والراتب الريفيعة ويحافظ عليها طوال العام. ليكون مؤهلا للدخول في دائرة الصالحين. فالوقت متوفرا في أشهر العبادة - رجب، شعبان، رمضان -. والجهد كذلك؛ إذ بالصيام يتعامل الصائم مع الطعام لا معاملة المفترس مع فريسته بل

يأكل ما يكفي، وهذا مُعين على توفير الجهد الكافي للعبادات. وهناك عامل ثالث لا يمكن اغفاله وهو التوفيق من الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لذلك فلا بد من طلبه.

اللهم برحمةك في الصالحين فأدخلنا، وفي عليين فأرفعنا^(٦)
اللهم اجعلني فيه من المستغفرين، واجعلني فيه من عبادك
الصالحين القانتين^(٧).

رئيس التحرير

الهوامش:

- (١) سورة يوسف/١٠١.
- (٢) سورة الشعراء/٨٣.
- (٣) سورة النمل/١٩.
- (٤) سورة الأعراف/١٩٦.
- (٥) من لا يحضره الفقيه ج ١، باب الأذان والإقامة ح ٣٩٦، ص ٢٩٦.
- (٦) من أدعية شهر رمضان (الثاني عشر من القسم الثاني ما يستحب إتيانه في ليالي شهر رمضان).
- (٧) من أدعية شهر رمضان (دعوات الأيام).

الأشهر الثلاثة

مطّات التزوّد والتفریغ

حوار مع سماحة الشيخ محمود السيف^(١) (حفظه الله)

حاوره: الشيخ محمد رضا العالى

بسم الله الرحمن الرحيم، تبزغ في كلّ عام نور الهدایة والجنان، تشعّ من أفق الشهور مواسمُ فيها أمل الطريد وسقيا الأَطْمَاء وسكون الملهوفين ورضاون الله الأَكْبر.

أنت أيها الباحث عن إنسانيتك في كمالها... ولّ وجهك حيث رجب الأصب
وأخلع نعليك في شعبان وخرّ ساجداً في شهر رمضان... استمع بقلبك وعقلك إلى
كلمات النبي ﷺ حيث تحدث عن شهر رجب الأصب فقال: «إن الله تعالى
نصب في السماء السابعة ملكاً يقال له الداعي فإذا دخل شهر رجب ينادي ذلك الملك
كل ليلة إلى الصباح: طوبى للذاكرين، طوبى للطائعين، يقول الله تعالى: أنا جليس من
جالسني، ومطيع من أطاعني، وغافر من استغفرني، الشهر شهري والعبد عبدي، والرحمة
رحمتي، فمن دعاني في هذا الشهر أجبته، ومن سأليني أعطيته، ومن استهداني هديته،
وجعلت هذا الشهر حبلاً بي و بين عبادي، فمن اعتمد بي وصل إلى»^(٢).

أعزائي القراء الكرام يطلّ المؤمنون على أروع رحاب يمكن أن يتزود منها
الكثير لرحلته نحو الخلود، وقد شاءت الإرادة الإلهية أن تكون هناك محطات

للتزوّد في مجال الإشباع الروحي والنفسي، بل الفكري أيضًا. وهي محطّات يحطّ الله فيها عن المؤمنين ما علق فيهم من الآثار السلبية المترتبة على آفات الناس الذين يخالطونهم أو آثامهم التي أثقلت ظهورهم وهتك ستورهم، ولأجل أن نحيط بخصائص هذه المحطّات والرّحاب، وكيفية الاستفادة منها، ونحو ذلك ارتأت مجلة رسالة القلم أن تعقد لقاء مع سماحة الشيخ محمود السيف، فأهلاً وسهلاً به وبالقراء الكرام.

❖ في بدء لقائنا نود أن تعرفونا بما للأشهر الثلاثة من خصائص ومميّزات تكون غير موجودة في غيرها؟

❖ هناك أمور عديدة تشتهر فيها كل أشهر السنة وأيامها وساعاتها، ولكنها مع ذلك توجد لهذه الأمور خصوصيات في بعض أشهر السنة أو أيامها وساعاتها. وهناك أمور تختص بها الأشهر أو الأيام والساعات، فصلاة الجمعة تختص في ظهر يوم الجمعة، والحج يختص في شهر ذي الحجة وفي أيام مخصوصة منه، وصلاة الليل تختص بساعات معينة من الليل، أي ما بعد منتصف الليل وإلى الفجر الصادق، وهكذا.

ولو استعرضنا الأعمال والبرامج المطروحة في الأشهر الثلاثة لكان أغلبها مما يشتهر من حيث العناوين مع غيرها من الشهور، كالصلوات، والصيام، والعمراء، وقراءة القرآن، والدعاء، وبرامج التكافل الاجتماعي، من رعاية المحتاجين والأيتام، ونحو ذلك، وصلة الأرحام، ومثل هذه أمور أخرى ذكر أكثرها في كتب الأدعية والزيارات، كمفاتيح الجنان، ومفتاح الفلاح، وأمثال ذلك، ولكن مع ذلك نجد أن لون وكيفية الممارسة في أغلبها تختلف عن غيرها، كاشتراط قراءة سورة معينة أو كيفية خاصة في بعض الصلوات، أو الاستغفار بكيفية خاصة أو عدد مخصوص، وأمثال ذلك.

❖ هل يعتبر لهذه الكيفيات الخاصة آثار مخصوصة لا يمكن الحصول عليها إلا بهذه الكيفية، بحيث لو أتي بها بغير هذه الكيفية فإنه لا يحصل على تلك الآثار، أي أنها تكون **كالأدوية في أنها مركبات مخصوصة لعلاج حالات خاصة؟**

❖ العلماء في هذه المسألة بين نظريتين:

الأولى: إنَّ هذه ألوان مختلفة من الممارسات كلها تشتراك في تحقيق أغراض مشتركة، وإنَّما اختلفت الكيفيات لأغراض أخرى، كالابتعاد عن الملل في الممارسة، أو الأداء الروتيني الريتيب، الذي قد يقتل روح العبادة والممارسة، أو يفرغها من محتواها إلى ممارسة مطلوبة لا أكثر فلا يستشعر من خلالها العلاقة الحميمة مع المولى سبحانه وتعالى، أو يستشعر إنسانيته من خلال الاشتراك في البرامج المرتبة بالحركة الإنسانية، كالتكافل الاجتماعي، فبدل أن يحس بثقل الممارسة، سوف يعيش لذة العطاء، ولذة الالتفات إلى خصائص إنسانيته التي ذكرها الله عزوجل، وفضلها على كثير من خلقه، وسخر لها ما في السموات والأرض.

الثانية: إنَّ هذه الكيفيات المختلفة ما هي إلا وصفات مخصوصة تعالج حالات خاصة، وتشبع أموراً معينة قد لا يشتراك معها كيفيات أخرى، إلا إذا كانت الصور المختلفة تمثل بدائل للممارسة المعينة، كما نجد ذلك في عبارة بعض الروايات، بأن تصلي مائة ركعة بكيفية كذا أو خمسين ركعة بكيفية كذا، فإنَّ كل واحدة منها يمثل البديل عن الأخرى.

وبهذا يمكن أن نفسِّر كثرة الأعمال في بعض ليالي شهر رمضان المبارك التي لا يمكن استيعابها في هذا الوقت الحدد، بهذا أجاب سيدنا وأستاذنا الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر عزوجل.

أقول: إنَّ الذي يخطر بالبال هو إمكانية الجمع بين النظريتين، باعتبار أننا قد

نطمئن بأن بعض الأعمال التي لها كيفية خاصة تعتبر علاجاً لحالة مخصوصة، أو تشبع حاجات معينة، ولذا نجد الأئمة عليهم السلام لديهم أدعية خاصة ومعنونة بعنوان معين، كالدعاء للمحبوس، ولقضاء الدين، أو للحمى، أو للزواج، ونحو ذلك، ولكننا نجد أيضاً إلى جنب هذه بدائل كثيرة تمثل كيفيات متعددة لحالة خاصة، ولذا نجد عدة أدعية أو صلوات أو أعمال لقضاء الدين، أو لطلب الولد، أو للحفظ، ونحو ذلك.

✿ **كيف لنا أن نعرف أن هذه الأعمال وصفة خاصة لا بديل لها وتلك لها بدائل؟**

❖ بعض المصاديق بيّنة ظاهرة لكل من راجع الروايات والكتب المخصوصة، وبعضها مما لا يمكن تشخيصه إلا لذوي الاختصاص، كالعلماء الربانيين، فينبغي مراجعتهم في ذلك، ولو خفي حتى على ذوي الاختصاص فالاحتياط سبيل النجاة، وسييل تحصيل المطلوب.

✿ **ما هي الأمور التي اختص بها شهر رجب الحرام؟**

❖ **الأمور كثيرة، اذكر أهمها:**

١- شهر رجب من الأشهر الحرم قبل وبعد الإسلام، وكانت العرب تعظمه حتى أنَّ رجب اسم يشتمل على التعظيم والإجلال، قال الجوهري في صحاحه: "رجب: رجبته بالكسر، أي هبته وعظمته، فهو مرجوب. ومنه سمى رجب، لأنهم كانوا يعظمونه في الجاهلية ولا يستحلون فيه القتال. وإنما قيل رجب مضر لأنهم كانوا أشد تعظيما له. والجمع أرجاب"، ولذا فإنَّ الشخص فيه آمن على نفسه وعرضه وماله، حتى من تكون بينه وبين غيره ثارات وحروب، ولو تجاوز أحدهم هذه الحرمات وقفَت العرب وفي ضمَّنِهم قومه وعشائره ضده وانتصرت للمتجاوز عليه، ويترءُون من فعلة المتجاوز، و من هنا لقب بالأصم، حيث لا تسمع فيه قعقة

السلاح ولا أبواق وطبول الحرب، ونحو ذلك.

٢- إنّ الأصلب، فإنّ المولى سبحانه وتعالى يصب فيه الرحمة صباً، كما ورد في لسان بعض الأخبار ومن ذلك ما عن أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُرْسَلُ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَجَبُ شَهْرِ الْاسْتِغْفَارِ لِأَمْقَى، أَكْثَرُوا فِيهِ مِنِ الْاسْتِغْفَارِ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ... وَسَمِيَ شَهْرُ رَجَبِ الْأَصْبَحِ لِأَنَّ الرَّحْمَةَ تُصْبَحُ عَلَى أَمْقَى فِيهِ صَبَّاً». وهنا أحب أن أفت النظر إلى أن الرحمات التي تصيب متنوعة وليس مرتبطة بجانب معين كالجانب الروحي أو النفسي، بل تشمل حتى الجوانب المادية. نعم يرتبط الحصول على رحمة معينة بنوع اطلاق المؤمن في رحاب هذا الشهر من الأعمال والبرامج، فكل جانب يمثل تهيئه للأجزاء والأرضية للرحمة المعينة؛ إذ إن بعضها مرتبط باستشعارك العلاقة الحميمة مع ربك، بينما بعضاً الآخر مرتبط باستدرار الألطاف الإلهية في العطاء المادي، كزيادة الفضل الإلهي في جانب الرزق، أو تحصيل الولد، ونحو ذلك.

٣- وصف شهر رجب بأنه شهر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُرْسَلُ، الذي هو رمز الإمامية الإلهية الخاصة، الذي يعني وجود أعمال خاصة تفعّل العلاقة الحميمة مع الأئمة الذين هم خلفاء الرسول عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، انتجهم وانتخبهم المولى سبحانه وتعالى لأداء مهام الرسول الرسالية من بعده سوى التي اختص بها.

وهنا أحب أن أفت النظر إلى قيمة تأصيل العلاقة مع الأئمة عَلَيْهِمُ الْكَلَمُ الْمُرْسَلُ، باعتبار أن فلسفة الولاء والبراءة مرتبطة بذلك، فمن لا يملك الالتفات الخاص إلى مقومات الإمامة وخصائصها ومهمتها، وما يجب علينا تجاهلها، فإنه سوف يفتقد الروحية التي تجعل ميزان الولاء والبراءة متعدلاً ومتوازناً، فإن من يميل إلى جانب الولاء ويغفل عن جانب البراءة سوف يعيش الازدواجية وأنصاف الحلول، ومن يميل إلى البراءة ويُغفل الولاء فإنه يقع في الصنمية المقيمة التي عاب المولى سبحانه وتعالى.

وتعالى المشركين على اتباع آباءهم منطلقين من هذه الروح، بل سوف لا يجد القيمة الواقعية لهذه البراءة في سلوكه وموافقه، فهو في الوقت الذي يعلن انتماهه إلى خط الإمام، فإنه يعيش ممارسات وموافقات تتنافى مع توجهات هذا الخط وتعاليمه.

٤- الاعتكاف خصوصاً في أيام البيض -١٣، ١٤، ١٥-، الذي يختتم بأعمال أم داود، وأصل الاعتكاف ممارسة مطلوبة للانقطاع عن جواذب الدنيا إلى المناجات مع المولى سبحانه، والخلوة في عالم ورحاب العبودية لله، التي تؤصل العلاقة الجاذبة مع الله عزوجل، فيحولها من ضرورة الارتباط إلى واقعية الانتماء حتى يستشعرها في قلبه بذلك الميل والحب والدفء، وفي شهر رجب نجد التأكيد على ذلك، لأنّ هذا الانقطاع الإيجابي يولد الحصانة من الانزلاق في متاهات الهوى والقوة الغضبية للذين قد يؤديان إلى التجاوز على حرمات الله في هذا الشهر المحرم، بل قد ينمي جوانب من القوة في عالم الروح والنفس، فتنشأ في داخله قوة الاستعصام أمام مغريات الدنيا، وما يسوقه أهل الباطل من الأبطال بلباس الجواذب الشيطانية وتلبيسات القبيح بالجميل.

٥- في هذا الشهر مناسبات جليلة، منها يوم ولادة وليد الكعبة المشرفة، وشهيد المحراب، الذي انتجه المولى سبحانه لنصرة خاتم النبيين، ومثلاً عنه كأول الأووصياء، فهو سيدهم وشيخهم، قائد الغر المجلدين ويعسوب الدين، ذاك أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليهما السلام، ومنها المبعث النبوي الشريف، الذي هو يوم إعلان الدخول في الشوط الأخير من حركة البشرية، حيث تتبلور فيه مظاهر الخير والشر في أجيال صورها، ويأخذ الشر وأهله أقصى مدياته ليقف في آخر المطاف عاجزاً أمام الحق وأهله، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾^(٣).

❖ هل لشهر شعبان مميزات امتاز بها؟

❖ شهر شعبان الذي تتشعب فيه الخيرات، هو شهر الآفاق الرحبة، والتهيئة الخاصة للدخول في رحاب ضيافة الله في شهر رمضان المبارك، ولذا فخصائصه وميزاته لا تختص كشهر رمضان ورجب، ولكن يمكن أن أشير إلى بعضها.

الأول: هو شهر نسب إلى الرسول محمد ﷺ؛ إذ نطقت بعض الروايات بأن شعبان شهر يفأعنوفي على صيامه، فعن صفوان الجمال قال: «قال لي أبو عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: حُثَّ مَنْ فِي نَاحِيَتِكَ عَلَى صُومِ شَعْبَانَ، فَقَلَّتْ: جَعَلْتَ فَدَاكَ تَرَى فِيهَا شَيْئًا؟» فقال: «نعم، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِذَا رَأَى هَلَالَ شَعْبَانَ أَمْرَ مَنَادِيَ يَنْادِي فِي الْمَدِينَةِ يَا أَهْلَ يَثْرَبِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ أَلَا إِنَّ شَعْبَانَ شَهْرِي فَرَحِمَ اللَّهُ مِنْ أَعْنَافِهِ شَهْرِي...»^(٤)، وهذه النسبة إلى الرسول ﷺ تكشف عن قيمته؛ إذ في الوقت الذي كان الشهر هو شهر الرسول إلا أنه قد دعا أمته إلى صيامه بدافع الإعانة ووحدة في الممارسة وهذا يحمل في طياته ما يمكن أن ينعكس على الأمة من آثار كما تترتب على ممارسة الرسول، مع الاحتفاظ بالفارق الرتبوي بين الرسول والأمة.

وأهم عنصر في ذلك هو تأصيل الانتماء إلى الرسول ﷺ، فكما أنّ الرسول لم يتخلّ عن أمته في انتماه إليها حتى أنه في يوم القيمة يؤكّد في ساحة القيمة على ذلك، فتسمعه الأمة الإسلامية ينادي رب العزة: أمتى، فعن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: لما نزلت هذه الآية: **﴿وَجَيَءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾** سُئِلَ عن ذلك رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: «أَخْبَرْنِي الرُّوحُ الْأَمِينُ أَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّمَا يَرْزُقُ بِرِّ الْخَلَاقِ وَجَمِيعَ الْأُولَئِنَّ وَالآخْرِينَ أَتَى بِجَهَنَّمَ تَقادَ بِالْفَزْرَةِ، فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْرَهُمْ لِلْحِسَابِ لَأَهْلَكَتِ الْجَمْعَ، ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْهَا عَنْ قَبْرِهِ فَيُحِيطُ الْخَلَاقُ بِرِّهِ مِنْهُمْ وَالْفَاجِرِ، فَمَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَدَّاً مِنْ عَبَادِهِ مَلِكًا وَلَا نَبِيًّا إِلَّا يَنْادِي: رَبِّ نَفْسِي نَفْسِي، وَأَنْتَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ تَنْادِي: أَمْتِي أَمْتِي»^(٥)، كذلك تحتاج الأمة إلى مجالات للإعلان عن انتمائها إلى رسوها والممارسة بدافع الإعانة، ودافع التمسك بكل عنوان منتبه إلى

رسوها والممارسة بداع الإعانة، ودافع التمسك بكل عنوان منتب إلى رسوها مما يؤصل الانتساب ويوقف الشعور بالانتماء إليه عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: فيه مناسبتان مهمتان ولادة الإمام الشهيد الذي أبقى الإسلام حياً كما أوجده الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ إنَّ الإمام الحسين عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ وَالْمَلَائِكَةُ مُرْسِلُونَ قام بدورته الخالدة لكي يبقى الإسلام حياً نابضاً محتفظاً بكل معالمه وملاحمه الأساسية، ولذا كان حقاً ما قيل: من أن الإسلام محمدي الوجود حسيني البقاء، وفيه ولادة إمام زماننا المهدى المنتظر عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ وَالْمَلَائِكَةُ مُرْسِلُونَ، الذي سوف يلأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، فإنَّ إحياء هذه المناسبة والالتفات إليها ضرورة يقتضيها الاعتقاد بوجوده، ويفرضها الانتماء إليه، فهو يوم إعلان الولاء المطلق والاستعداد التام للقيام معه في نهضته التحررية، وهو يوم إعلان البراءة المطلقة من كل قوى الشر والباطل، ومن دعوات أهل الهوى والضلالة والباطل، وهو تجديد للعهد وشحذ للهمم، وتنشيط للقوى.

❖ إذا سمحتم أن تطلعونا على مميزات شهر رمضان المبارك؟

❖ على الرغم من عدم إمكان إحصاء ذلك في هذا اللقاء، ولكن لا يمنع من تصنيف هذه المميزات.

الأول: إنَّ شهر رمضان قد وصفه المولى سبحانه وتعالى بأنَّه شهر الله، وهذه النسبة لها أبعادها ودلائلها؛ إذ إنَّها نسبة إلى اسم الجلال المختص الدال على الذات الإلهية بما تحمل كل أبعاد الكمال والجمال والجلال، ولم يقل إنه شهر الرحمن أو شهر المنعم أو شهر القادر، بل هو شهر الله، فهذه النسبة كما تدل على أنَّ المولى بذاته وبكل ما تحمل من أبعاد قد حضر في هذا الشهر، كذلك تدل على حجم العطاء والرحاب، التي فتحت فيه، ولذا فإنَّه بحق محطة التزود والتفریغ؛ إذ فيه موائد التزود وفيه محطَّات الحطَّ والتنقية، فهو الشهر الذي دعينا فيه إلى

ضيافة الله وجعلنا من أهل كرامة الله، ولذا لا يجرأ الشيطان وأتباعه على الدنوّ منه ومن دخل في دار الضيافة، لأنّه لا يتلك الإذن ولا يجرأ على الدخول بلا إذن لوجود أجهزة الرصد التي لا تقبل الاختراق.

وهنا أحبّ أن ألقي نظرة القراء إلى أنّ دار الضيافة هذه على قدر ما هي مفتوحة وواسعة، إلا أنّ الداخل فيها قد لا يستفيد منها إلا القليل لعدم استعداده لهذه الضيافة أو لعدم التفاته إلى خصائص الموائد، لضيق أفقه، أو لعدم همته فيطلب الراحة في حركته فلا يصيب ما هو أعظم أثراً وأقوى تأثيراً.

الثاني: الصوم فيه لمدة شهر كامل متواصل وفي شهر مخصوص وهو شهر رمضان المبارك، فإنه خصوصية امتاز بها هذا الشهر الذي وصفه المولى سبحانه بـأنّه له، بهذا ورد الخبر، فعن أبي عبد الله عَلِيهِ السَّلَامُ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي عَلَيْهِ»^(٦)، وعن رسول الله عَلِيهِ السَّلَامُ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ بِعَشْرَةِ أَضْعافٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضَعْفٍ إِلَّا الصَّبَرُ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، فَتَوَابُ الصَّبَرِ مَخْرُونٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّبَرُ الصَّوْمُ»^(٧)، وهذا التعبير يدل على أنّ العبد حينما يعلن رفضه عن كل نداء غير نداء المولى سبحانه، كنداء البطن والفرج، ونحو ذلك، فهو يترك كل هذه الأمور لأجل الله، وهذه الدعوة الإلهية لصوم شهر رمضان المبارك قد منَّ الله بها على أمّة محمد عَلِيهِ السَّلَامُ؛ إذ إنّه كان مختصاً بالأنبياء وليس عاماً لكل البشرية، وإن كان أصل الصوم ثابت كفرض على كل أمّة سبقت أمّة محمد عَلِيهِ السَّلَامُ لكن في غير شهر رمضان، فعن حفص بن غياث التّخعي قال: «سمعت أبا عبد الله عَلِيهِ السَّلَامُ يقول: إنَّ شهراً رمضان لم يفرض الله صيامه على أحد من الأمم قبلنا فقلت له: فقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَاكُمُ الصَّيَامَ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ﴾ قال: إنَّما فرض الله صيام شهر رمضان على الأنبياء دون الأمم ففضل به هذه الأمّة وجعل صيامها فرضاً على

رسول الله صلى الله عليه وسلم ^{عليه السلام} في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في وداع شهر رمضان ذكر: «ثُمَّ آتَرْتَنَا بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَمَمِ، وَاصْطَفَيْتَنَا بِفَضْلِهِ دُونَ أَهْلِ الْمِلَلِ، فَصَنَّمْنَا بِأَمْرِكَ نَهَارَهُ، وَقُنَّا بِعَوْنَكَ لَيْلَهُ، مُتَعَرِّضِينَ بِصِيَامِهِ وَقِيَامِهِ لِمَا عَرَضْتَنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِكَ...»^(٩).

والحاصل: الصوم في هذا الشهر وإن كانت له آثار جليلة، ولكن هو ممارسة وإعلان للتخلص عن كل نداء وإن كان نابعاً من الحاجة، والتوجه إلى نداء الواحد الأحد، الذي سوف يصنف العبد فيجعله من أهل الله في قبال الآخرين.

الثالث: قراءة القرآن، فقد حثّ الروايات عليها في هذا الشهر، حتى وصفته بأنه ربيع القرآن، فعن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لكل شيء ربيع وربيع القرآن شهر رمضان»^(١٠)، والقرآن هو العهد بين رب العبد فينبغي أن ينظر المؤمن فيه ويتعاهده حتى يكون دستوره في الحياة؛ إذ هو الضمانة الوحيدة من الصلال، بالطبع مع اقترانه بالعترة الظاهرة من آل الرسول عليهما السلام، حسب ما ورد ذلك في الحديث المتوارد عن النبي عليهما السلام أنه قال: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض»^(١١)، وقد ورد في وصف القرآن الكثير ومن ذلك ما عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والحدث الذي لا يكذب. وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصان في عمى. واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى فاستفسروه من أدواتكم واستعينوا به على لأدواتكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغيبة والضلالة. فاسأموا الله به، وتوجهوا إليه بمحبه، ولا تسألوه به خلقه إنه ما توجه العباد إلى الله بمثله. واعلموا أنه شافع مشفع، وقاتل مصدق. وأنه من شفع له القرآن يوم القيمة شفع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيمة صدق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيمة: "ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن..."»^(١٢)، وقد أكد عليه السلام بالتوصية بالقرآن بقوله: «والله الله في القرآن لا

يسبقكم بالعمل به غيركم»^(١٣)، وهذا النص يشير إلى وجود أسرار كثيرة في القرآن يمكن أن يستفيد منها غير المؤمنين وال المسلمين، في مجالات المعرفة الإنسانية، بلا فرق في ذلك المادّية منها أو الاجتماعيّة أو المعنويّة والروحية، وقد نبأنا الواقع عن المجالات المختلفة التي اكتشف غير المسلمين أسرارها من كنوز القرآن، بل حاولوا أن يطّلعوا على ما يخدم أغراضهم الشيطانية، من معرفة نقاط ضعف الإنسان، وطرق السقوط في الهاوية، والابتعاد عن الحق والخير والصلاح، ومحاولة اكتشاف أساليب التضليل ومحاربة أهل الحق، ونحو ذلك.

بقي أمر آخر وهو أن قراءة القرآن على مستويات عديدة، منها القراءة المجردة، ومنها القراءة مع الالتفات إلى معاني ومضمون الآيات بشكل إجمالي، ومنها القراءة مع الالتفات إلى المضامين بنحو تفصيلي، ومنها القراءة مع الوقوف عند كل آية أو أغلبها أو بعضها للتأمل في أبعادها ومدياتها، يقول الصولي: حدثنا أبو ذکوان، قال: سمعت إبراهيم بن العباس يقول: «ما رأيت الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ سئل عن شيءٍ قط إلا علمه، ... وكان كلامه كله وجوابه وتشيله بآيات من القرآن، وكان يختتم في كل ثلاث، ويقول: لو أردت أن أختتم في أقل من ثلاث لختمت، ولكن ما مررت بأية قط إلا فكرت فيها، وفي أي شيء أنزلت، وفي أي وقت، فلذلك صرت أختتم في ثلاثة أيام»^(١٤).

الرابع: فيه ليلة عرض أعمال السنة على إمام الزمان عَلَيْهِ الْبَشَارَى، فإنه في ليلة القدر تنزل الملائكة والروح على إمام الزمان، كما كانوا يتذلّون على رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ في حياته ليطلعوه على أعمال الخلائق وما يجري خلال السنة؛ إذ فيها يفرق كل أمر حكيم كما نطقت به الآية من سورة الدخان. وعرض الأعمال ورصدها وجعلها تحت نظر إمام الزمان له دلالاته وأبعاده الكثيرة التي منها التعريف بوظيفة الإمام في هذا المجال تجاه أتباعه والعالم أجمع، وإلفات نظر الخلق، -وبالخصوص

المؤمنين - إلى أنّ أعمالهم مرصودة ومشخصة وما عليهم إلا السعي لتبديلها أو
محو السلبي منها بالدفع أو الرفع، وزيادة أرصدة الرضا والقبول.

الخامس: العيد الذي هو يوم الجوائز، فقد ورد عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال النبي صلوات الله عليه وآله: «إِذَا كَانَ أُولُّ يَوْمٍ مِّنْ شَوَّالٍ نَادَى مَنَادٌ: أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ اغْدُوا إِلَى جَوَازِكُمْ»، ثم قال: يا جابر جوائز الله ليست بجوائز هؤلاء الملوك، ثم قال: هو يوم الجوائز»^(١٥)، ولا ينبغي أن يغفل فيه المؤمن عن إدراك الجوائز، ولعل من لم يدرك جائزته ولم يشعر بها فإنه يكشف عن عدمها في حقه، فهو من لم يحصل عليها، أي هو من المحرومين. وأقل الجوائز استشعاره الحففة في نفسه لغفران ذنبه والخطّ عن أوزاره، واستشعاره الفرحة برضاء ربه عن عمله، وإلا فباب الجوائز بكل أبعادها واسع كبير.

السادس: في هذا الشهر مناسبات مفرحة وأخرى محزنة، فكما فيه ولادة الإمام الحسن عليه السلام، التي اعتاد المسلمين إلى وقت قريب على إحياءها، ويسمّيها أهل العراق "الماجينة"، وبعض مناطق الخليج "كركيعان"، فيها توزع الحلويات وبعض القطع النّقدية للأطفال، وينشد فيه بعض الموسحات، كمدائح الرسول صلوات الله عليه وآله، وهو إحياء لما قام به المسلمين حين ولادة الحسن بالمجيء إلى رسول الله بالتهنئة والتبريك بأشعار تتضمن التعبير بالفرحة، وكان مضمونها: إِجِينه إِجِينه نهني النبي صلوات الله عليه وآله بالحسن عليه السلام، وأمثال ذلك، وفي هذا الشهر ذكرى انتصار الحق على الباطل في غزوة بدر الكبرى، التي لها دلالاتها الجليلة، وفيه الاعتداء الأثم من أشقي الآخرين على سيد الوصيين ويعسوب الدين ذاك أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه وآله بن أبي طالب، الذي سمع الناس نعي جبرائيل يقول: «تَهَدَّمَتْ وَاللَّهُ أَرْكَانُ الْهُدَى، انطمسَتْ أَعْلَامُ التَّقِيِّ، وَانفَصَمَتْ الْعَرْوَةُ الْوُثْقَى، قُتِلَ وَاللَّهُ عَلَيْهِ الْمُرْتَضَى، قُتِلَ الْوَصِيُّ الْجَنْبِيُّ، قُتِلَ خَاتَمُ الْأَوْصِيَاءِ، قُتِلَ أَشْقَى الْأَشْقِيَاءِ»^(١٦).

﴿ ماهي الأبعاد الروحية التي يمكن أن نحصل عليها من برامج

الأشهر الثلاثة؟

❖ إن الجامع لحركة الإنسان في مجال المسائل الروحية هو استشعار الفقر وال الحاجة إلى رب ﷺ، ولذا الإشباع الحقيقى يتم من خلال الدوائر التي ترتبط بالقوى المطلق والمهيمن، الذى هو ملجاً لهاربين ومؤوى الفقراء والمساكين، كهف اللاجئين، ألا وهو ربنا الرؤوف الرحيم. والدوائر كبيرة، نظير الاستعانة والتوكيل والتفويض والإجلاء والاستعادة، فينبغي أن يلتفت المؤمن إلى ممارساته العبادية وبرامجه الإعدادية التي يأخذها من منبعها الصافى محمد وآله المتوجبين عليه وعليهم صلوات الله وسلمه، ويصنفها إلى أصنافها، بل وإلى أنواعها؛ إذ منها ما يشبع الجوانب الروحية بما تحمل من مضامين وأعمال توقظ الإحساس بالفقر وال الحاجة إلى رب العزة.

﴿ هل هناك برامج تشبع جوانب أخرى من حياة الإنسان؟

❖ نعم الجوانب كثيرة، منها ما يساعد على تهذيب النفس وتطويع السلوك، حتى يصبح الفرد عاملًا ببناءً في المجتمع، الناس من شره مأمونون، وإلى خيره مؤمّلون، يستيقون إليه ويستبشرون برؤيته، ويستوحشون عند غيابه، هش بش لين العريكة، حسن الخلق. وهنالك ما يساعد على تهيئة الفكر؛ إذ إن بعض المضامين والأعمال مما تساهم في فتح آفاق من المعرفة، وتلفت النظر إلى أسرار الحياة والكون، فالحركة الفكرية فعالة بما يملك الإنسان من طاقة عقلية وألطاف إلهية وهبات ربانية.

﴿ هل هناك أمور تحبون أن تشيروا إليها؟

❖ أحببت أن أنبه إلى أن برامج الأشهر الثلاثة يجمعها جامع أساسى وهو تفعيل العلاقة مع الله ﷺ، ولعل أقوى الأعمال هو الدعاء فإنه قائم على الفقر

وال الحاجة، ولذا وصف بأنه مخ العبادة، بل هو العبادة، فقد ورد في تفسير قوله تعالى: «وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ»^(١٧)، فعن الإمام الباقي عليه السلام في هذه الآية قال: «هو الدعاء وأفضل العبادة الدعاء»، وعنده عليه السلام: «أنه سئل أي العبادة أفضل؟ فقال له: ما من شيء أفضل عند الله عز وجل من أن يسئل ويطلب ما عنده وما من أحد أبغض إلى الله عز وجل من يستكرب عن عبادته ولا يسئل ما عنده»، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «ادع ولا تقل قد فرغ من الأمر فإن الدعاء هو العبادة إن الله يقول: وتلا هذه الآية، وفي الصحيفة السجادية بعد ذكر هذه الآية فسميت دعاءك عبادة وتركه استكباراً وتوعدت على تركه دخول جهنم داخرين»^(١٨).

✿ هل يمكن أن تعرفونا بالنتائج التي يمكن أن يحصل عليها من اتبع

برامج الأشهر الثلاثة؟

إثنا قلنا في بداية الحديث إن هذه الأشهر هي محطات للتزوّد ورحاب للحركة الإيجابية، وهي أيضاً محطات للتفریغ والحط، ولذا فهي مما يتربّ عليها نتائج جليلة، منها ما يلي:

- ١- تساهم في تفعيل العلاقة مع الله عز وجل، بحيث تحوّلها أو تؤصلها في دائرة الواقعية في الارتباط المنطلق من الميل والحب، ولا تقف عند ضرورة الارتباط التي تتطاول غالباً من الانتماء القهري المعبر عنه بالاستسلام لا بالتسليم، وهذا هو الفارق بين ما ادعنته الأعراب بقولها: «آمنا»^(١٩)، وبين الإيمان الصادق الذي ينطلق من التسليم المطلق، قال تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَبُوا وَجَاهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ»^(٢٠)، فإن هذا الإيمان هو الذي يثبت عند المحك ومفترق الطرق، بل يتجلّى في أحلى صور التسليم الصادق كما حدث في غزوة الأحزاب، قال تعالى:



﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَخْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾^(٢١).

٢- تيقظ الشعور الداخلي بالمسؤولية، فإن المولى صرّح بهمة الإنسان في الأرض فهو الخليفة وهو حامل الأمانة التي أشافت من حملها السموات والأرض والجبال، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقْنَاهُنَّا وَحَمَلَنَّاهُ الْإِنْسَانُ ...﴾^(٢٢).

٣- تساهم في ترشيد الإنسان إلى منطلق حركته وموافقه في الحياة، فإن المناسب للإنسان هو معالي الأخلاق ومحاسنها، فعن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ كُنَّا لَا نَرْجُو جَنَّةً وَلَا نَخْشَى نَارًا وَلَا ثُوابًا وَلَا عَقَابًا، لَكَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَطْلَبْ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، فَإِنَّهَا مَا تَدْلِلُ عَلَى سَبِيلِ النَّجَاحِ»^(٢٣).

٤- تساعد على صنع الأنماذج الحضاري في الأمة، الذي هو ملحاً ومحور ومأوى الهارب والطالب، وهو الأمان من ضلال الأمة، وهو الحافظ لهويتها بعالمها وملامحها، هو الشخص الذي يُعرّف العالم الكافر بعظمته الإسلام وعظمة برامجه الإعدادية.

٥- تذوب الحاجز التي صنعتها الجاهليّات، ومنطق الأنماط الاهوي، ووساويس الشيطان؛ إذ إنّ من يعيش الأجواء الروحية والمعنوية والبرامج الإعدادية لا يمكن أن تكون في داخله هذه الحاجز، فهو شخصية قد امتلأت بالتوجهات الإلهية وأخذت مأخذها من نفسه وروحه وعقله، فكيف يمكن أن يبقى أثراً للمنطلق الأناني والشيطاني أو الجاهلي.

وفقنا وإياكم رب العزة لأن نكون من ينهل من عطائه في هذه الأشهر الثلاثة المباركة، بل وفي غيرها إنّه سميع مجيب.

نشكر سماحة الشيخ محمود علي السيف، ونسأّل الله أن يوفقنا لصيام
وقيام هذه الأشهر الثلاثة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

- (١) أستاذ بالجامعة العلمية بقم المقدسة، رئيس ومؤسس معهد الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليهما السلام للخطابة سابقاً ومؤسسة الحجّة عليهما السلام حالياً، إضافة إلى مهمّة المسؤول التربوي لجامعة الأطهار التخصّصية، وهو أيضاً مدير سابق لمدرسة الإمام الهادي عليهما السلام.
- (٢) حاشية إقبال الأعمال: ٦٢٨.
- (٣) سورة الإسراء: ٨١.
- (٤) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٤، ص ٧٩.
- (٥) نفس المصدر، ج ٨، ص ٦٥.
- (٦) الكليني، الكافي، ج ٤، ص ٦٣.
- (٧) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٢٥٢.
- (٨) الصدوق، فضائل الأشهر الثلاثة، ص ١٢٤.
- (٩) الصحيفة السجادية، ص ١٩٨.
- (١٠) الصدوق، معاني الأخبار، ص ٢٢٨.
- (١١) الحر العالمي، وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٣٤
- (١٢) نهج البلاغة، ج ٢، ص ٩٢.
- (١٣) نفس المصدر، ج ٣، ص ٧٧.
- (١٤) الصدوق، الأمالي، ص ٧٥٨.
- (١٥) الحر العالمي، وسائل الشيعة، ج ٧، ص ٤٨٠.
- (١٦) مجموعة من علماء البحرين والقطيف، وفيات الأئمة، ص ٥٧.
- (١٧) سورة غافر: ٦٠.
- (١٨) راجع الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، ج ٥، ص ٣٥٦.
- (١٩) سورة الحجرات: ١٤.
- (٢٠) نفس المصدر، آية ١٥.

.٢٢) سورة الأحزاب: ٢١)

.٢٢) نفس المصدر: آية، ٧٢

.٢٣) حسن القبانجي، مسند الإمام علي عليه السلام، ج ١٠، ٧١.





دور صلاة الليل في تعيمق المحبة

الشيخ عادل على الشعلة

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إني أحمدك على ما هديتني إلى فضائل نعمك، وأدعوك أن تتواصل أفضل صلواتك على محمد أشرف رسلك الذي بعثته بأكمل كتبك إلى الثقلين من عبادك، وعلى خلفائه المعصومين الهادين إلى العمل بما يرضيك، واللعن على أعدائهم إلى يوم لقائك.
إن الدخول إلى الأشهر الثلاثة -رمضان وشعبان ورمضان- من من الله تعالى، الموجبة للشكرا، لما أعدد الله تعالى وأكرم به عباده فيها، وهي أشهر تعيين المؤمن في كماله الروحي والمعنوي.

والحديث عن الكمال الروحي، حديث في الحقيقة عن الميل الفطري -الذي يجده كل واحد منا في نفسه- وهو التعلق بشيء يجذبه إليه، كما يجذب المغناطيس الحديد، والميل للتجاذب والاتصال الوجودي والإدراكي، وهذا الميل الذي نعبر عنه بالحب الفطري تخليات: كحب الأم الذي تغرق في اللذة حين تختضن طفلها أو تلاعنه أو تراقبه، وكذا الانجذاب للإخوان والأقرباء والجيران وأهل البلد وأهل الدين.

وهناك انجداب إلى ما يؤثر في راحتنا كالمال والملابس والمأكل ونحو ذلك. وهناك انجداب لكل ما هو جميل، وكل جميل يروي ظمآن جوانب الظمآن الفطري الإنساني، فكما يرتوي أصحاب الحس المرهف بالجمال البلاغي، فإنّ الحكماء وال فلاسفة يجذبهم الجمال العقلاني كروعنة التنظيم في هذا الكون، والعرفاء يجذبهم الجمال الوجودي عبر الشهود؛ إذ بقدار السعة الوجودية يتلذذون بأنوار الجمال الإلهي، فيشاهدون قربه وارتباطه بنبع القدرة اللامهاني، «يا غاية آمالِ المحبين»^(١).

والكمال الروحي، في بعد من أبعاده يعني المحبة والميل والانجداب للكمال والجمال المطلق، وهذه السطور تستهدف بيان دور صلاة الليل في تأصيل هذه المحبة وكماها، باعتبار أنها ميزان المحبة والوصال، كما ورد فيما رواه المفضل بن عمر، قال: سمعت مولاي الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمَرْضِيُّ يقول: «كان فيما ناجي الله عز وجل به موسى بن عمران عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمَرْضِيُّ أَنْ قَالَ لَهُ: يَا بْنَ عُمَرَانَ، كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَحْبِبُنِي فَإِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي، أَلِيسَ كُلُّ حُبٍ يَحْبُبُ خَلْوَةَ حَبِيبِهِ، هَا أَنَا ذَا يَا بْنَ عُمَرَانَ مَطْلَعُهُ عَلَى أَحْبَابِي، إِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ حَوْلَتْ أَبْصَارَهُمْ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَمَثَلَتْ عَقُوبَتِي بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ، يَخَاطِبُونِي عَنِ الْمَشَاهِدَةِ، وَيَكْلِمُونِي عَنِ الْحَضُورِ. يَا بْنَ عُمَرَانَ، هَبْ لِي مِنْ قَلْبِكَ الْخَشُوعُ، وَمِنْ بَدْنِكَ الْخَضُوعُ، وَمِنْ عَيْنِكَ الدَّمْوعُ فِي ظَلْمِ اللَّيْلِ، وَادْعُنِي فَإِنَّكَ تَجْدِنِي قَرِيبًا مَجِيئًا»^(٢).

ويود كاتب السطور أن يُشير إلى أدوار صلاة الليل في الحب من خلال



لوازمه، وسيشير إلى أربعة لوازمه:

اللازم الأول: الشوق والأنس في الخلوة مع المحبوب:

ولصلة الليل أدوار مهمة تجاه شوق العبد وأنسه، ومن هذه الأدوار الآتي:

الدور الأول: التعزيزي والتأجيжи، فمن شأن قيام الليل تعزيز الوصال وتقويته وتأجيجه، قد تقدمت الإشارة في الحديث القدسي، ومثله -مع قيود- ما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «كان فيما أوحى الله إلى موسى بن عمران عليهما السلام: يا موسى كذب من زعم أنه يحبني فإذا جئه الليل نام. يا بن عمران لو رأيت الذين يصلون لي في الدجي، وقد مثلت نفسى بين أعينهم يخاطبني، وقد جلست عن المشاهدة، ويكلموني وقد عززت عن الحضور»^(٣). فإن النص يُشير إلى أن الحب عاشق، والعاشق يأنس بالخلوة مع الحبيب، ويشتاق إلى تلك الخلوات، فمن قصر في الخلوات وغاب عن الحضور، كان ذلك مؤدياً إلى ضعف المحبة وذبوها، فالوصل يوجج الحب ويعمقه. ومن هذا المعنى تفهم قوله الله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٤).

فمن طال هجوعه، وقل قيامه كان حبه ضعيفاً، وقيامه موجب لزيادته وتأجيجه... فالمasurer تتدفق حين اللقاء، وتتبلور بحسب طبيعة العشق وقوته، وإليك صورة للقائمين، فقد قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٥).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله عليه السلام: «من رزق صلاة الليل من عبد أو أمة، قام الله عز وجل مخلصاً، فتوضاً وضوءاً سابغاً، وصلى الله عز وجل بنية صادقة، وقلب سليم، وبدن خاشع، وعين دامعة، جعل الله تبارك وتعالى خلفه تسعة صفوف من الملائكة، في كل صف ما لا يمحصي عددهم إلا الله تبارك وتعالى، أحد طرف كل صف بالشرق، والآخر بالغرب. قال: فإذا فرغ كتب له بعدهم درجات»^(٦).

وحيث نتكلّم عن الأنس في الخلوة، فإن الأحباب يختارون سكون الليل لهذه

الخلوات، ووقت صلاة الليل هو أفضل زمان لقاء المحبوب الأوحد، فعن ابن أبي يعفور، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ قال: «قلت له: أخبرني جعلت فداك أيّ ساعة يكون العبد أقرب إلى الله، والله منه قريب؟ قال: إذا قام في آخر الليل، والعيون هادعة، فيمشي إلى وضوئه حتى يتوضأ بأسبغ وضوء، ثم يجيء حتى يقوم في مسجده فيوجّه وجهه إلى الله، ويصفّ قدميه، ويرفع صوته ويكبّر وافتتح الصلاة فقرأ أجزاء وصلّى ركعتين وقام ليعبد صلاته، ناداه مناد من عنان السماء عن يمين العرش: أبها العبد المنادي ربّه إن البر لينشر على رأسك من عنان السماء، والملائكة محيطة بك من لدن قدميك إلى عنان السماء، والله ينادي: عبدي لو تعلم من تناجي إذا ما انتلت؟ قال: قلت: جعلت فداك يا بن رسول الله ما الانفتال؟ قال: تقول بوجهك وجسدك هكذا، ثم ولّ وجهه، فذلك الانفتال. وقال: أبغض الخلق إلى الله جيفة بالليل بطال بالنهار. وقال رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ : خياركم أولوا النهى. قيل: يا رسول الله من أولوا النهى؟ فقال: المتهجدون بالليل والنّاس نائم»^(٧).

الدور الثاني: التكميلي، أن الحبيب يتكمّل بوصاله مع محبوبه، فالحب يصنع المعجزات، ولذا فأهل الليل يرقون بمستوى الوصال المحاصل مع المحبوب في الأزمنة الأخرى، وبعبارة أخرى فإنّ قيام الليل يرقى بوصال الفرائض إلى مستوى القبول والتأثير، ففي صحيح زرارة، عن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ قال: «إذا ما أدى الرجل صلاة واحدة تامة، قبلت جميع صلاته، وإن كنّ غير تامات، وإن أفسدها كلّها لم يقبل منها شيء منها، ولم يحسب له نافلة ولا فريضة، وإنما تقبل النافلة بعد قبول الفريضة، وإذا لم يؤدّ الرجل الفريضة لم يقبل منه النافلة، وإنما جعلت النافلة ليتم بها ما يفسد من الفريضة»^(٨).

وعن حمران بن أعين، عن أبي جعفر محمد بن عليّ الباقي عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ في بيان أحوال أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ قال: «ولقد صلّى ذات يوم فسقط الرداء عن إحدى منكيبيه، فلم يسوه حتى فرغ من صلاته، فسأله بعض أصحابه عن ذلك، فقال: ويحك، أتدري

بين يدي من كت؟ إنَّ العبد لا يقبل من صلاته إلَّا ما أقبل عليه منها بقلبه. فقال الرجل: هلكنا. فقال عائشة^(٩): كلا إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَ مُتَمَّمٌ ذَلِكَ بِالْتَّوَافُلِ».

عن العيص بن القاسم، عن أبي عبد الله عائشة^(١٠) أنَّه قال: «وَاللَّهِ إِنَّهُ لَيَأْتِي عَلَى الرَّجُلِ خَمْسونَ سَنَةً وَمَا قَبْلَ اللَّهِ مِنْهُ صَلَاةً وَاحِدَةً فَأَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ إِنَّكُمْ لَتَعْرِفُونَ مِنْ جِيرَانِكُمْ وَأَصْحَابِكُمْ مَنْ لَوْ كَانَ يَصْلِي لِعْضَكُمْ مَا قَبْلَهَا مِنْهُ لَا سُخْفَافَهُ بِهَا، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبِلُ إِلَّا الْحَسْنَ فَكِيفَ يَقْبِلُ مَا يَسْخَفُ بِهِ».

للصلوة بشكل عام تأثير خاص ورد في قوله تعالى: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»^(١١)، وينظر في البال أنَّ صلاة التوافل، تكميل هذا التأثير الناقص، جراء التقصص في الفرائض، سيما نافلة صلاة الليل للتنصيص الخاص، فعن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «عَلَيْكُمْ بِقِيامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ. وَأَنْ قِيامُ اللَّيْلِ قَرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَتَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَا عَنِ الْإِثْمِ، وَمَطْرِدَةُ الدَّاءِ عَنِ الْجَسْدِ»^(١٢). فنجد تنصيصاً خاصاً في كونها ناهية عن المآثم، وهذا تأثير كبير في تكامل الإنسان الروحي.

اللازم الثاني: المحب ذاكر لمحبوه ولكلّ ما يتعلق بمحبوبه:
ولذا الحب عاشق للنبي وآلـه وللقرآن، وقيام الليل يُشكل دوراً ذكرياً
للمحوب، فعن أبي سعيد الخدري، عن النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلَ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ وَصَلَّى كُبَّا مِنْ 《الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ》»^(١٣). وأصبح المؤمن بقيامه، مصداقاً لهذه الآية القرآنية.

اللازم الثالث: إيثار مراد المحبوب على مراده:
المحب منشغل برضي المحبوب، لا يهدأ إلَّا إذا لبى مراداته، ولا يغفل عن عبادته وذكره في كل أحواله. ولصلاة الليل أدوار في تحقيق مرادات المحبوب، ومن هذه الأدوار الآتي:

الدور الأول: الدور الرّعوي، فإنّ لصلاة الليل دوراً في إعانته المؤمن على صيانة أوقات الفرائض عن الاستخفاف والتهاون، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «قلت - وهو سؤال من مجموعة أسئلة -: ولا يأي علة كان يصلّى صلاة الليل في آخر الليل، ولا يصلّى في أول الليل؟ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: تأكيد الفرائض - إلى أن قال عَلَيْهِ السَّلَامُ - ليسروا إلى القيام إلى صلاة الفجر، فلتلك العلة وجب هذه مكذا»^(١٤). والحافظ على الأوقات له أثره في الكمال، فقد ورد في صحيحه أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «كل سهو في الصلاة يطرح منها غير أن الله تعالى يتم بالتوافق، إن أول ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن قُبِّلت قبل ما سواها، إن الصلاة إذا ارتفعت في أول وقتها رجعت إلى أصحابها وهي يضاء مشرقة، تقول: حفظني حفظك الله، وإذا ارتفعت في غير وقتها بغير حدودها، رجعت إلى أصحابها وهي سوداء مظلمة، تقول: ضيّعني ضيّعك الله»^(١٥). والتقريب في هذه الأخبار أن المراد بهذه المواقف المأمور بالمحافظة عليها هي الأوقات الأوائل وهي أوقات الفضائل بلا ريب ولا إشكال وهي التي تتصف فيها الصلاة بمزيد الشرف والكمال والقبول من حضرة ذي الجلال، وأن الأوقات الأخيرة متى لم يكن التأخير إليها ناشئاً عن عذر من تلك الأعذار المذكورة جملة منها في الأخبار فصاحبها مستوجب لمزيد البعد منه سبحانه، كما دلت عليه هذه الأخبار، وأنه داخل تحت المشيئة، بمعنى أنه ليس ممن يستحق بعمله ذلك الجزاء بالثواب، وما أعده الله تعالى على تلك العبادة من الأجر الذي لا تحيط به الألباب، بل هو من المرجئين لأمر الله، إن شاء عذبه بتقصيره وتأخيره الصلاة عن ذلك الوقت الأول، وإن شاء عفى عن تقصيره بكرمه ورحمته، وهذا ما تضمنه حديث الفقيه المتقدم من أن «آخر الوقت عفو الله والعفو لا يكون إلا عن ذنب»، ولا جائز أن يحمل هذا الوقت الأخير الذي جعل صاحبه تحت المشيئة على خارج الوقت الذي هو المشهور عندهم، وهو ما بعد غروب الشمس بالنسبة إلى الظاهرين مثلاً. كما ربما يتوهّم بعض معوكسي الأذهان ومن ليس من فرسان هذا

الميدان، فإنه لو كان كذلك لم يحكم على صاحبه بأنه تحت المشيئة، بل يجب الحكم عليه بالفسق، بل الكفر كما دلت عليه الأخبار المتقدمة من أن "تارك الصلاة عمداً كافر"، فهو مستحق لمزيد النكال والعقاب كما لا يخفى على ذوي الألباب. ومما يزيد ذلك تأييداً ويعليه تشبيداً الأخبار الواردة في وضع الأوقات وإشارة جبرئيل بها على النبي ﷺ فإنها إنما تضمنت أوائل الأوقات خاصة دون أواخرها، ففي مونقة معاوية بن وهب عن أبي عبد الله ع: «أنه أتاه حين زالت الشمس فأمره فصلّى الظهر ثم أتاه حين زاد الظل قامة فأمره فصلّى العصر ثم أتاه حين غربت الشمس فأمره فصلّى المغرب ثم أتاه حين سقط الشفق فأمره فصلّى العشاء ثم أتاه حين طلوع الفجر فأمره فصلّى الصبح ثم أتاه من الغد حين زاد في الظل قامة فأمره فصلّى الظهر ثم أتاه حين زاد من الظل قامتان فأمره فصلّى العصر ثم أتاه حين غربت الشمس فأمره فصلّى المغرب ثم أتاه حين ذهب ثلث الليل فأمره فصلّى العشاء ثم أتاه حين نور الصبح فأمره فصلّى الصبح ثم قال ما بينهما وقت»، ونحو هذه الرواية غيرها أيضاً، والظاهر أن وضع هذه الأوقات في أول الأمر للمكلفين ثم حصلت الرخصة لذوي الأعذار والاضطرار بالوقت الثاني بعد ذلك كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وبذلك يجمع بين هذه الأخبار وبين الأخبار الدالة على الوقتين، بحمل ما دل على الثاني على ذوي الأعذار والاضطرار وتخرج الأخبار المتقدمة شاهداً على ذلك^(١٦).

الدور الثاني: الدور التحريري، وأعني به التحرر من الوسادة، ومن تسويات الشيطان، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر ع قال: «إن لليل شيطاناً يقال له الزهاء، فإذا استيقظ العبد وأراد القيام إلى الصلاة قال له: ليست ساعتك، ثم يستيقظ مرة أخرى فيقول: لم يكن لك، فما يزال كذلك يزيله ويحبسه حتى يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر بال في أذنه ثم انصاع يمتص بذنبه فخراً ويصبح»^(١٧).

بيان: قال الفيروزآبادي: "انصاع انقتل راجعاً مسرعاً"، وقال: "مَصَعْتُ الدَّابَّةَ بِذَنْبِهَا حَرَكْتَهُ وَضَرَبْتَ بِهِ".

فمن تَمَكَّنَ من صلاة الليل، لم يكن من يسقط في جبهة الصراع مع الزهاء... الشيطان. والقائم إلى الليل متحرر بجبه الذي قاده إلى رضوان الله تعالى، ودفعه عن ترك محظيات نفسه إلى محظيات ربّه... إنّ البعض قد لا يجد القيام من الفراش صعباً، لأنّه يعيش ساسة السهر، ولكنّ الوضع العام هو أنّ القيام من الفراش أمر شديد، يتطلّب مقاومة لسلطان النّوم وشهوته، سيّما إذا كان الجسد مرهقاً من تعب العمل، فالقيام من الفراش تحرر. فعن النبي ﷺ قال: «إذا قام العبد من لذذ مضجعه، والنّعاس في عينيه، ليرضي ربّه عزّ وجلّ بصلاة ليله، باهى الله به ملائكته، فقال: أما ترون عبدي هذا، قد قام من لذذ مضجعه إلى صلاة لم أفرضها عليه، اشهدوا أني قد غفرت له»^(١٨).

وفي هذا النّهوض بناءً قويّاً للنفس، ولهذا التحرر دور كبير في ثبات الإنسان على الخير والحق، ففي صحيحه هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عاشور^(١٩) «في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأَةً وَأَقْوَمُ قِيلَّاً﴾^(٢٠). قال: (يعني بقوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلَّاً﴾: قيام الرجل عن فراشه يريد به الله عزّ وجلّ، لا يريد به غيره)»^(٢٠).

وفي معنى الأشدية وجوه، منها: «أشدّ ثبات قدم، وأبعد من الزلل. أو أثقل وأشدّ على المصلّى من صلاة التهار»^(٢١)، فصلاة الليل تبني إرادة في مواجهة الشهوة، وتزيد من صبر الإنسان على التحمل، وكم هي حاجة المؤمن والمؤمنة مثل هذا الزاد المعين على مشكل الحياة الأسرية، أو على مسيرة الحياة السياسية الصعبة وغير ذلك.

صلاة الليل تعين على الثبات في الحق وعلى الحق... في الخير وعلى الخير. ولعل هذا أحد معاني التثبيت النوري الوارد، فعن المفضل بن عمر، عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه عاشور^(٢٢) قال: «قال رسول الله ﷺ: إنّ الله جلّ جلاله أوحى إلى الدنيا أن أتعي من خدمك، وخدمي من رفضك، وإنّ العبد إذا تخلى بسيده في جوف الليل المظلم وناجاه، أثبت الله النّور في قلبه، فإذا قال يا رب يا رب،

ناداه الجليل جل جلاله: ليك عبدي، سلني أعطك، وتوكل على أفكك، ثم يقول جل جلاله ملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي، فقد تخلى بي في جوف هذا الليل المظلم، والبطالون لاهون، والغافلون نيار، اشهدوا أنني قد غفرت له»^(٢٢).

ويختصر في بالي شمول التثبيت على الحكمة وإجراء الصواب في أقواله وأفعاله، باعتبار أن التحرر من الوسادة نوع من أنواع الزهد، وقد ورد عن ابن واقد الحريري، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ قال: «مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا أَبْتَأَتَ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فِي قَلْبِهِ، وَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ، وَبَصَرَهُ عِيوبَ الدُّنْيَا دَاعِهَا وَدَوَاهَا، وَأَخْرَجَهُ مِنَ الدُّنْيَا سَالِمًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ»^(٢٣).

الدور الثالث: الخروج من دائرة المضيعين لسنة النبي ﷺ، فعن عبد الله بن سنان قال: قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ: «رجل عليه من صلاة التوافل ما لا يدرى ما هو من كثرته كيف يصنع؟ قال: فليصل حتى لا يدرى كم صلى من كثرته فيكون قد قضى بقدر علمه، قلت: فإنه لا يقدر على القضاء من كثرة شغله؟ فقال: إن كان شغله فطلب معيشة لابد منها أو حاجة لأخ مؤمن فلا شيء عليه وإن كان شغله الدنيا تشاغل بها عن الصلاة فعليه القضاء وإلا لقي الله مستاخفاً متهاوناً مضيناً لسنة رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ. قلت: فإنه لا يقدر على القضاء فهل يصلح له أن يتصدق؟ فسكت ملياً ثم قال: نعم فليتصدق بصدقة، قلت: وما يتصدق؟ فقال: بقدر طوله وأدنى ذلك مُدّ لكل مسكين مكان كل صلاة، قلت: وكم الصلاة التي تجب عليها مُدّ لكل مسكين؟ فقال: لكل ركعتين من صلاة الليل وكل ركعتين من صلاة النهار. فقلت: لا يقدر، فقال: مُدّ لكل أربع ركعات، فقلت: لا يقدر، فقال: مُدّ لكل صلاة الليل ومُدّ لصلاة النهار والصلاحة أفضل والصلاحة أفضل»^(٢٤).

اللازم الرابع: الشعور بالظماء وقلق انقطاع الوصال:

فهناك حاجات يراد أن تروى بالخلوة مع المحبوب، وهذه الحاجات تتحققها صلاة الليل من خلال أدوارها في هذا الجانب، ومن هذه الأدوار:

الدور الأول: الدور التطهيري، فعن زراراة، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ قال: «صلوة الليل كفارة لما اجترح بالنهار»^(٢٥).

وعن إبراهيم الكرخي، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ قال: «قال الله في كتابه: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِنُ السَّيِّئَاتِ﴾^(٢٦). قال: قال: صلاة الليل تذهب بذنب النهار، وقال: تذهب بما جرحتم»^(٢٧).

الدور الثاني: الدور اللطفي: صلاة الليل موجبة لعدد من الألطاف، فعن علي بن محمد النوفلي قال: سمعته يقول: «إنَّ العبد لِيَقُومُ فِي اللَّيلِ فِيمَلِّ بِهِ النَّعَاسُ يَمِنًا وَشَمَالًا، وَقَدْ وَقَعَ ذَقْنُهُ عَلَى صَدْرِهِ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَبْوَابَ السَّمَاءِ فَفُتُحَتْ، ثُمَّ يَقُولُ لِمَلَائِكَتِهِ: انظُرُوا إِلَيَّ عَبْدِيَّ مَا يَصِيبُهُ فِي التَّقْرِبِ إِلَيَّ مَا لَمْ أَفْتَرُضْ عَلَيْهِ، راجِيًّا مِنِّي لِثَلَاثِ خَصَالٍ: ذَنْبًا أَغْفَرْتُهُ، أَوْ تُوبَةً أَجْدَدْهَا، أَوْ رِزْقًا أَزْيَدَهُ فِيهِ، أَشَهَدُوا مِلَائِكَتِي أَنِّي قَدْ جَمَعْتُهُنَّ لِهِ»^(٢٨).

والغفرة تعني "تفطية الذنب بایجاب المثلوية"^(٢٩). أو قل: الغفرة: أن الله تعالى بعد أن يسقط عن عبده عذابه، "يستر عليه بعد ذلك جرمه صوناً له عن عذاب الغزي والفضيحة، فإنَّ الخلاص من عذاب النار إنما يطلب إذا حصل عقيبه الخلاص من عذاب الفضيحة"^(٣٠)، ولذا فرق بين العفو والمغفرة، أنَّ "العفو إسقاط العذاب الجسماني". والمغفرة: إسقاط العذاب الروحاني، والتجاوز بعدهما^(٣١). فصلاة الليل من موجبات إسقاط العذاب الروحاني.

الدور الثالث: الدور الإروائي، فإنَّ الوصال مع الحبيب يعيد المدح والسكينة والطمأنينة للحبيب، عن زين العابدين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ في مناجاة المفترقين: «وَغَلَقَيْ لَا يَرِدُهَا إِلَّا وَصَلَكَ، وَلَوْعَيْ أَيْ: حَرْقَتِي - لَا يَطْفِيْهَا إِلَّا لَقَاؤُكَ، وَشَوْقِي لَا يَلِهِ أَيْ: يَشْفِيْهَا إِلَّا النَّظرُ إِلَى وَجْهِكَ»^(٣٢).

ويقول زين العابدين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ في مناجاة الحبين: «إِلَهِي مَنْ ذَا الَّذِي ذاقَ حَلاوة مَحْبَبِكَ فَرَامَ أَيْ: طَلَبَ - مِنْكَ بَدْلًا، وَمَنْ ذَا الَّذِي أَنْسَ بِقُربِكَ فَابْتَغَى عَنْكَ حَوْلًا -

أي: انتقالاً»^(٣٣).

هذه اللذة وردت في الأخبار، والناظر في الأخبار يجد ربط قيام الليل باللذة الشهوية -جنس وأكل - واللذة الاجتماعية بلقاء الإخوان، وأذكر غوذجين: عن زرارة بن أعين، عن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ قال: «لَهُ الْمُؤْمِنُ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءِ التَّمَتُّعُ بِالنِّسَاءِ وَمُفَاكِهَةِ الإِخْوَانِ، وَالصَّلَاةِ بِاللَّيْلِ»^(٣٤).

”بيان: المفاكهة الممازحة، وعد صلاة الليل من جملة اللهو والفرحات وجعلها مع ما مر في قرن، لبيان أنه ينبغي للمؤمن أن يكون متذداً بمناجاة ربه، والخلوة مع حبيبه، فرحاً بهما، بل فيه تببيه إلى أنه ليس المؤمن على الحقيقة إلا من كان كذلك“^(٣٥).

وعن بحر السقاء، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ قال: «إِنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثَلَاثَةَ التَّهْجِدَ بِاللَّيْلِ، وَإِفْطَارَ الصَّائِمِ، وَلَقَاءَ الْإِخْوَانِ»^(٣٦).

”بيان: (من روح الله): الروح - بالفتح- الراحة، والرحمة، ونسيم الريح أي راحة جعلها الله للمؤمن يتزوج إليها لأنّه يستريح من معاشرة المخالفين بلقاء الإخوان في الدين، ومن أشغال اليوم إلى عبادة الليل، والإفطار ظاهراً، وهذه الثلاثة من رحمة الله بالعبد وتفضله ولطفه وحسن توفيقه، أو أنها تصير سبباً لرحمته تعالى والدعاء عنها مستجاب، أو عندها تهب نسائم لطفه وفيضه ورحمته على المؤمن والأول أظهر“^(٣٧).

طبعاً عملية ارتواه العاشقين يتفاوت بحسب طبيعة الحبّ والعشق، فكان زين العابدين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ يقول حين يقوم للصلوة أول الليل وآخره: «متى راحة من نصب لغيرك بدنك؟! ومتى فرح من قصد سواك بنيته (بهمته)؟! إلهي قد تقشع الظلام -أي: تصدع وانكشف- ولم أقض من خدمتك وطراً، ولا من حياض مناجاتك صدراً، صل على محمد وآلـهـ، وافعل بي أولى الأمرين بك يا أرحم الراحمين»^(٣٨).

الدور الرابع: الدور التكاملـي، بمعنى الترقـي بالعبد لمديـات القرب المعنوي، باعتبار أنّ صلاة الليل من التـوافل، والتـوافل من الأعـمال التي يُقصد بها القرب من رحمة الله تعالى، فعن موسى بن بكر، عن أبي الحـسـن -موسى بن جـعـفر-

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليهما السلام قال: «كان فيما وعظ الله عزوجلّ به عيسى بن مريم عليهما السلام: يا عيسى، أنزلني من نفسك كهمك، واجعل ذكري لمعادك، وتقرّب إلى بالنّوافل، وتوكل على أكفك، ولا تولّ غيري فأخذلك»^(٤٠).

وَحَالَةُ الْقُرْبِ هَذِهِ مُوجَبَةٌ لِحُجَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ يُكَشِّفُ عَنِ ثَبَاتِ الْعَبْدِ فِي مَقَامِ الْإِمْتِثَالِ، وَحِبَّهِ لِخَالِقِهِ، عَنْ أَبْيَانِ بْنِ تَغْلِبٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «مَا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» قَالَ: إِلَى أَنْ قَالَ: - وَمَا يَتَقْرَبُ إِلَيَّ عَبْدٌ مِنْ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَيَتَقْرَبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحَبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَبْتَهُ كُنْتُ سَمِعَهُ الَّذِي يُسْمِعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبَصِّرُ بِهِ، وَلِسَانَهُ الَّذِي يُنْطَقُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّذِي يُبَطِّشُ بِهَا، إِنْ دُعَانِي أَجَبْتَهُ، وَإِنْ سَأْلَنِي أَعْطَيْتَهُ»^(٤١).

وإذا أحب الله تعالى عبده، أذاقه حلاوة ذلك الحب، وعندها يصل المؤمن إلى
كماله، «إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً»^(٤٢).

وقال الشيخ المجلسي^ت في تعليقه على هذا الخبر: "هذا الخبر يحمل وجوهاً (الأول): إنّه لكثرة تخلّقه بأخلاق ربي، ووفور حبه لجناح قدسه، تخلى عن شهوته وإرادته، ولا ينظر -إلا- إلى ما يحبه سبحانه، ولا يبطش إلا إلى ما يصله إلى قربه تعالى وهكذا.

(الثاني): أن يكون المراد أَنْ تَعْلَى أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصْرِهِ وَلِسَانِهِ وَيَدِهِ
ويُبَذَّلُ هَذِهِ الْأَعْضَاءُ الشَّرِيفَةُ فِيمَا يُوْجَبُ رَضَاهُ، فَإِنَّمَا يَرِدُ بِكُوْنِهِ سَمْعُهُ أَنْهُ فِي حَبَّةِ
الْأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا يَقْرَأُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِكُوْنِهِ سَمْعُهُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِكُوْنِهِ سَمْعُهُ

(الثالث): أن يكون المعنى: كنت نور سمعه وبصره، وقوّة يده ورجله ولسانه.

والحاصل أنه لما استعمل نور بصره فيما يرضي ربّه، أعطاه بمقتضى وعده سبحانه
 ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نوراً من أنواره به يميز بين الحق والباطل، وبه يعرف
 المؤمن والمنافق، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾^(٤٣)،
 وقال ﷺ: «المؤمن ينظر بنور الله»^(٤٤). وكذا لما بذل قوته في طاعته، أعطاه قوة فوق
 طاقة البشر، كما قال مولانا الأطهر: «ما قلعت باب خير بقوّة جسمانية بل بقوّة
 رياضية»^(٤٥) وفيه: (لكن بقوّة إلهيّة) بدل المذكور هنا: (بل بقوّة رياضيّة)، وهكذا.

(الرابع): أنه لما خرج عن سلطان الهوى، وأثر على جميع مراداته وشهواته رضا
 المولى، صار الرب تبارك وتعالى متصرّفاً في نفسه وبدنه، مدبراً لقلبه وعقله
 وجوارحه، فيه يسمع وبه يبصر وبه ينطق وبه يمشي وبه يبطش، كما ورد في تأويل
 قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(٤٦)، وهذا معنى دقيق لا يفهمه إلا
 العارفون، وليس المراد به المعنى الذي باح به المبتدعون، فإنه الكفر الصريح والشرك
 القبيح^(٤٧).

الهوامش:

- (١) مصباح المنعبد للطوسي: ٨٤٧.
- (٢) الأمالي للصدوق: ٤٣٨ ح ٥٧٧.
- (٣) عدة الداعي لابن فهد: ١٩٣.
- (٤) الذاريات: ١٧-١٨.
- (٥) السجدة: ١٦.
- (٦) الأمالي للصدوق: ١٢٤ ح ١١٤.
- (٧) بحار الأنوار للمجلسي: ٨٤ / ١٥٨ ح ٤٦.
- (٨) الكافي للكليني: ٣ / ٢٦٩ ح ١١.
- (٩) الخصال للصدوق: ٥١٧ ح ٤.
- (١٠) العنكبوت: ٤٥.

- (١١) الدعوات للراوندي: ٧٦ ح ١٨٣.
- (١٢) الأحزاب: ٣٥.
- (١٣) تفسير مجمع البيان للطبرسي: ٨ / ١٥٩.
- (١٤) علل الشرائع للصدوق: ٢ / ٣٢٨ ح ٣.
- (١٥) الكافي للكليني: ٣ / ٢٦٨ ح ٤.
- (١٦) الحدائق الناضرة للبحراني: ٦ / ٩٣.
- (١٧) المحسن للبرقي: ١ / ٨٦ ح ٢٥.
- (١٨) أعلام الدين في صفات المؤمنين للديلمي: ٢٦٢.
- (١٩) المزمل: ٦.
- (٢٠) تهذيب الأحكام للطبوسي: ٢ / ٣٢٦ ح ١٣٨٥.
- (٢١) جوامع الجواجم للطبرسي: ٣ / ٦٦٥.
- (٢٢) الأمالي للصدوق: ٣٥٣ ح ٤٣٢.
- (٢٣) الكافي للكليني: ٢ / ١٢٨ ح ١.
- (٢٤) الكافي للكليني: ٣ / ٤٥٣ ح ١٣.
- (٢٥) الأصول الستة عشر لعدة محدثين: ١١٢.
- (٢٦) هود: ١١٤.
- (٢٧) تفسير العياشي للعياشي: ٢ / ١٦٢ ح ٧٥.
- (٢٨) تهذيب الأحكام للطبوسي: ٢ / ١٢١ ح ٤٦٠.
- (٢٩) التبيان للطبوسي: ٢ / ١٦٩.
- (٣٠) الفروق اللغوية لأبي هلال: ٢٦٣ رقم: ١٤٥٩.
- (٣١) الفروق اللغوية لأبي هلال: ٢٦٣ رقم: ١٤٥٩.
- (٣٢) الصحيفة السجادية لزين العابدين عليه السلام: ص ٤١٦.
- (٣٣) الصحيفة السجادية لزين العابدين عليه السلام: ص ٤١٣.
- (٣٤) الخصال للصدوق: ١٦١ ح ٢١٠.
- (٣٥) بحار الأنوار للمجلسي: ٨٤ / ١٤٢.
- (٣٦) من لا يحضره الفقيه للصدوق: ١ / ٤٧٢ ح ١٣٦١.



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

اللّٰهُمَّ إِنِّي سَأَكُونُ لَكَ فِي الدُّنْيَا كَفِيلًا

(٤٧) بحار الأنوار للمجلسي: ٨٤ / ١٤٣.

(٤٣) الحجر: ٧٥.

(٤٤) المحسن للبرقي: ١ / ١٣١ ح ١.

(٤٦) الإنسان: ٣٠.

(٤٨) الصحيفة السجادية لزين العابدين عليه السلام: ١٦٥.

(٣٩) ثواب الأعمال للصدوق: ٢٩.

(٤٠) الأمالي للصدوق: ٦٠٦ ح ٨٤١.

(٤١) الكافي للكليني: ٢ / ٣٥٢ ح ٨.

(٤٢) الصحيفة السجادية لزين العابدين عليه السلام: ٤١٣.

(٣٧) بحار الأنوار للمجلسي: ٨٤ / ١٤٣.



الصوم ... مدرسة الفضائل الأخلاقية

السيد ياسين السيد قاسم الموسوي

عمدة الآيات القرآنية الواردة حول تشريع وأحكام الصوم هي الآيات (١٨٣-١٨٧) من سورة البقرة، وقد شرع الصوم في العام الثاني من الهجرة الشريفة يعني بعد خمسة عشر عاماً من الدعوة الإسلامية.

الأية مدار البحث

نقف هنا مع الآية الأولى من آيات الصوم وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١)، فمع مفراداتها القليلة إلا أنها تحمل مضامين عالية وبحوثاً متعددة، هذا البحث يتكفل بسبر أغوار فقراتها الشريفة في

أبعادها المختلفة العلمية والعملية كالفقهية والتفسيرية والتربوية لنحلق في أجواءها ونستلهم من عظائمها.

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾:

البحث فيها في جهات:

الجهة الأولى: البعد البلاغي:

ابتدأت الآية بهذا الأسلوب الخطابي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لاستجلاب انتباه المخاطب وشد أسماعه وتوجّه عقله وقلبه وقد روى عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إذا سمعت الله عزوجل يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأعر لها سمعك فيما خيراً تدعى إليه وإما شرًا تنهى عنه».

الجهة الثانية: البعد النفسي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نداء تحبب وتقرب يلتذّ به المؤمن ويفتح شغاف القلب، ويرفع معنويات الإنسان، ويشحذ همته، وفيه لذة قال عنها الإمام الصادق علیه السلام: «لذة ما في النداء - أي: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا - أزالَ تَعَبَ العبادةِ وَالعَنَاءِ»^(٢).

الجهة الثالثة: البعد الفقهي:

هل الكافر مكلف بالفروع؟

حيث إنّ خطاب وجوب الصوم موجه إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهل يعني ذلك أنّ هذا الوجوب مختص بهم دون غيرهم كالكافار أم لا؟ وهو بحث مطروح عند فقهائنا بعنوان "هل الكافر مكلف بفروع الدين"، وبعد اتفاقهم وجميع المسلمين - إلا من شدّ على أنّ الكافر مكلّفون بأصول الدين، وقع الخلاف بينهم في أنّهم مكلّفون بفروع الدين أم لا؟

وبما أنّ البحث تخصصي نقتصر على سرد الأقوال وبعض وجوهها فقط، فقد

انقسم الفقهاء على قولين:

المشهور: يذهبون إلى أنّ الكفار مكلّفون بفروع الدين كتكليفهم بأصول الدين، وهذا يعني أنّ الكافر مطالب بالصلوة والصوم والحج، وهكذا بقية الفروع غاية الأمر أنه لو أتى بشيء من ذلك لم يصح منه، والسبب هو عدم تأتي قصد القرابة منه كما لا يخفى.

خلاف المشهور: ذهبوا إلى أنّ الكفار يختص تكليفهم بأصول الدين دون فروعه؛ الذي يعني عدم توجّه خطاب إليهم بالإتيان بالصلوة أو الصوم أو الحج أو الزكاة وبقية الفروع الأخرى، ويستدلّ له:

بعده من الآيات التي اختص الخطاب فيها بالمؤمنين والتي منها الآية محل البحث، حين ابتدأت بنداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وبالتالي تكون مقيدة للإطلاق أو العموم الوارد في الآيات الأخرى التي تضمنت الخطاب للناس، مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٣).

ويجيب المشهور: لا يخفى أنّ البناء على صحة التقييد أو التخصيص للإطلاق أو العموم وفقاً لما أراده أصحاب القول الثاني، يعتمد على وجود منافاة بين الطائفتين من الآيات الشريفة بحيث تكون إحداهما مثبتة، والأخرى نافية، ولا ريب في عدم تحقق هذا في المقام، ضرورة أنّ كلتا الطائفتين مثبتة، عمدة ما كان وجهت إحداهما الخطاب لفئة خاصة، بينما وجهت الثانية منها الخطاب إلى جميع الفئات، ومن الطبيعي أنّ توجيه الخطاب إلى فئة خاصة قد يكون موجبه أموراً دعت إلى ذلك.

الجهة الرابعة: علوم القرآن:

الآية التي تبدأ بـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهي آية مدنية.

وضع علماء علوم القرآن مجموعة من المميزات والقرائن للتمييز بين الآيات وال سور النازلة قبل الهجرة (المكية) والآيات وال سور النازلة بعدها (المدنية)، وقد ذكروا أن الآيات المبتدأة بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مدنية بخلاف المبتدأة بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكية.

الجهة الخامسة: البعد التربوي:

جاء في روایات آداب التلاوة وقد ذكر بعضها صاحب العروة رحمه الله تعالى والتي منها: كلما قرأ نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أن يقول: لبيك اللهم لبيك، وذلك ليس قوله فقط بل ينبغي أن يترجمه الفعل.

* ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾

١- معنى الكتابة (كتب)

الكتابة معروفة المعنى ويكتنّ بها أحد أمور:

- الفرض ﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾^(٤).

- العزيمة.

- القضاء الحتمي ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلَبِنَا أَنَا وَرَسُولِي﴾^(٥) ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم﴾^(٦).

وفي الآية مورد البحث يفيد معنى الفرض والإيجاب، كما عبر عن الصلاة المفروضة بـ (المكتوبة) ومعنى كتب يعني فرض وأوجب، ويمكن بمعنى أنه كتب في اللوح الحفظ.

لماذا عبر بالكتابة دون الفرض والإيجاب؟

عبر بـ (كتب) لأن المكتوب أبقى وأثبت.

٢- عليكم: يفيد الإلزام كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فالجمع بين (كتب) و(عليكم) دلالته على الإيجاب الأكيد.

٣- الصيام: معناه لغة: مصدر بمعنى الكف عن الفعل، شرعاً: الكف عن أمور مخصوصة في زمان مخصوص وبشروط خاصة.
للصوم تقسيمات متعددة بلحاظات مختلفة:

الصوم الحقيقي:

وهو ما يذكره علماء الأخلاق والعرفان، وقد قسم العرفاء الصوم -من خلال ما ورد في الروايات- إلى ثلاثة أقسام وثلاث مراتب:

صوم العوام: الصوم عن الأكل والشرب وربما عوّض عنها في الليل.

صوم الخواص: صوم الجوارح السمع البصر.

صوم خواص الخواص: كف القلب عن الهموم الدنيئة والتعلق بالله بِهِ وَبِنَعْمَتِهِ.

الآداب المعنوية للصوم

- يقول الرسول ﷺ: «ما أقل الصوام، وأكثر الجماع».

- قال أمير المؤمنين ع: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمة، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا العناء، حبذا نوم الأكياش وإفطارهم».

- عن أبي عبد الله ع قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صمت فليصم سمعك، وبصرك، وجلدك -وعدد أشياء غير ذلك- ثم قال: فلا يكون يوم صومك مثل يوم فطرك».

- قال رسول الله ﷺ: «من تأمل خلف امرأة، حتى يتبيّن له حجم عظامها من وراء ثيابها، وهو صائم فقد أفلط».

- قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يُصبح صائماً فيشتم، فيقول: إني صائم سلام عليك، إلا قال رب تبارك وتعالى: استجار عبدي بالصوم من عبدي، أجبروه من ناري، وأدخلوه جنني».

- قال الصادق ع: «سمع رسول الله ﷺ امرأة تساب جارية لها وهي صائمة،

فَدُعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطَعَامٍ فَقَالَ لَهُ: كُلِّي! فَقَالَتْ أَنَا صَائِمَةٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: كَيْفَ تَكُونِينَ صَائِمَةً وَقَدْ سَبَيْتَ جَارِيْتَكَ؟ إِنَّ الصَّوْمَ لَيْسَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَإِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حِجَابًا عَنْ سُوَاهِمَا مِنَ الْفَوَاحِشِ مِنَ الْفَعْلِ وَالْقَوْلِ يَفْطِرُ الصَّائِمَ، مَا أَقْلَى الصَّوْمَ؟، وَأَكْثَرُ الْجَوَاعَ!»^(٧).

- قال الصادق عليه السلام: «إنَّ الصيام ليس من الطعام والشراب وحده، إنما للصوم شرطٌ يُحتاجُ أن يُحفظ حتى يتمُّ الصوم، وهو صمتُ الداخِل، أما تسمع ما قالت مريم بنت عمران:

﴿إِنَّمَا نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾^(٨) يعني صمتاً. فإذا صتم فاحفظوا ألسنتكم عن الكذب، وغضروا أصواتكم، ولا تنازعوا، ولا تخاسدوا، ولا تغتابوا، ولا ت罵وا، ولا تكذبوا، ولا تباشروا، ولا تختلفوا، ولا تقاضبوا، ولا تسابوا، ولا تشاتروا، ولا تفاتروا، ولا تجادلوا، ولا تتأذوا، ولا تظلموا، ولا تسأهوا، ولا تضاجروا، ولا تغفلوا عن ذكر الله وعن الصلاة. والزموا الصمت والسكوت، والحلم والصبر والصدق، وبمحنة أهل الشر، واجتبوا قول الزور والكذب والفري والخصوصة، ووطن السوء والغيبة والنسمة، وكونوا مشرفين على الآخرة، متظارين لأيامكم، متظارين لما وعدكم الله، متزودين للقاء الله، وعليكم السكينة والوقار والخشوع والخضوع وذلل العبيد الخيف من مولاه، خيرين خائفين راجين مرعوبين مرهوبين راغبين راهبين. قد طهرت القلب من العيوب، وقدست سراتكم من الخبر، ونظفت الجسم من القاذورات، وتبرأت إلى الله من عداه، وواليت الله في صومك بالصمت من جميع الجهات، مما قد نهاك الله عنه في السر والعلانية، وخشت الله حق خشيته في سرك وعلانيك، ووهبت نفسك لله في أيام صومك، وفرغت قلبك له، ونصبت نفسك له فيما أمرك ودعاك إليه.

فإذا فعلت ذلك كله فأنت صائم الله بحقيقة صومه، صانع له لما أمرك، وكلما
انقضت من مَا شاءَ فما ينتهي أبداً، فقال نعم من صومنا عقولنا ذائعاً^(٩)

- «إذا أصبحت صائمًا، فليصم سمعك وبصرك عن الحرام، وجارحتك وجميع

أعصابك عن القبيح»^(١٠).

«وليكن عليك وقار الصائم والزم ما استطعت من الصمت والسكوت إلا عن ذكر الله»^(١١).

«ولا تجعل يوم صومك كيوم فطرك وإياك وال مباشرة والقبل والقهقة بالضحك فإن الله يمتن ذلك»^(١٢).

- عنهم عليه السلام: «إنَّ الصوم ليس من الطعام والشراب، إِنَّمَا جعل الله ذلك حجاباً ما سواها من الفواحش من القول والفعل»^(١٣).

الصوم الظاهري

ما يذكر شروطه علماء الفقه:

ترك المفترقات المعروفة من طلوع الفجر إلى الغروب.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾:

توضيحيها في نقاط:

النقطة الأولى:

- ما هو الغرض من سوق هذا المقطع؟

حيث إنَّ الصيام تشريعٌ جديدٌ على المسلمين وبطبيعته المشقة والتعب جاء هذا المقطع للتخفيف عليهم، أَنَّه لا ينبغي لكم أن تستثنلوه وتستوحشو من تشريعه في حقكم وأنتم لم تتفردوا بفرضه عليكم.

النقطة الثانية:

- ما هي حقيقة التشبيه (كما كتب)؟

الآية ليست في صدد البيان من جهة التطابق في التشبيه من جميع الجهات، بل هي في مقام التشبيه من حيث أصل تشريع الصوم لا من حيث التنظير من جميع

الجهات وأنّ جميع الأمم السابقة كتب عليها ولأنّ صومهم كصومنا من حيث الوقت والخصوصيات والأوصاف، بل التنظير من حيث أصل الصوم والكف لا من حيث خصوصياته. ليس في الروايات الواردة من طرقتنا ما يظهر منه نفي فرض الصوم على الأمم السابقة وإنما الوارد هو أنّه لم يُفرض صوم شهر رمضان على غير الأمة الإسلامية، فهي مزيةٌ منها الله تعالى نبيه محمد ﷺ وأمته، ففرض عليهم صيام شهر رمضان لأنّه أفضل الشهور عند الله تعالى، لذلك كان فرض الصوم فيه على أمّة النبي ﷺ الكريمة فضيلةً لهذه الأمة على سائر الأمم.

النقطة الثالثة:

- من هم **﴿الذين من قبلكم﴾**؟

اختلاف المفسرون في تحديده على أقوال:

الأول: أنّهم الأنبياء والأمم السابقة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا. وهذا يفيد أنّ للعبادات حقائق شرعية، وليس من الألفاظ المنقوله، فلاحظ.

الثاني: أن يكون المقصود هم «أهل الكتاب» لقوله «كتب» والقدر المتيقن منهم اليهود والنصارى، وقد يضاف إليهم الجوس بناءً على أنّهم أهل كتاب، وكذا الصابئة بناءً على أنّهم كذلك.

الثالث: أن يختص الأمر بخصوص النصارى، فلا يشمل غيرهم، وهذا يعني أنّ الصوم لم يكن مكتوباً على اليهود مثلاً.

الرابع: أنّهم خصوص الأنبياء فقط دون الأمم. ولا يخفى أنّه لو كنا وظاهر الآية لن نستطيع تحديد أيّ من الأقوال الأربع، وذلك لأنّه لا يستفاد منها أكثر من ثبوت التكليف محل البحث أعني الصوم في الأمم السابقة دونما تحديد هوية تلك الأمم، فهل هم جميعاً، أم خصوص فئة معينة منهم. جاء في القرآن صوم زكريا ومريم "لكته عن الكلام".

النقطة الرابعة:

- ماذا يكشف لنا ثبوت هذا التشريع منذ القدم؟

بعض العبادات والتشريعات لأهميتها الكاشف عن أهمية وسمو ملوكها تجدها مفروضة ومشرّعة في كل شرائع الأديان السماوية بل حتى غير السماوية القريبة من الفطرة، فالدلالة الالتزامية هذه تدل على عظمه هذه الفريضة وأساسيتها في بناء إنسانية الإنسان وتكامله.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

الكلام فيها في مقامين:

حول معنى (العلل) و(التقوى).

ما هي آثار الصوم التربوية (الفردية والاجتماعية، المادية والمعنوية)؟

ما هي العلاقة والرابط بين الصوم والتقوى؟

المقام الأول:

أولاً: معنى «العلل» لغة واصطلاحاً:

تستعمل في اللغة بمعنى الترجي.

أما كاصطلاح قرآنـي وفي موارد كلام الله سبحانه فتأتي للواجب العقليـيـ والشـرعـيـ وبيان الغـاـيـةـ ما سـبـقـهـ وـمـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـوـصـلـ إـلـيـهـ،ـ وـقـدـ وـرـدـتـ فـيـ مـوـاضـعـ عـدـيـدـةـ مـنـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ،ـ مـثـلـ قـوـلـهـ:ـ لـعـلـكـ تـسـلـمـوـنـ،ـ تـهـتـدـوـنـ،ـ تـفـلـحـوـنـ.

وأما سبب استعمالها -عللـ - في مثل هذه الموارد فإـنـهـ تـبـيـهـ عـلـىـ عـدـمـ الجـبـ بل جـعـلـ المـشـيـةـ لـهـ فـيـ مـقـامـ الطـاعـةـ وـالـعـصـيـانـ.ـ إـشـارـةـ إـلـىـ الـآـيـاتـ:ـ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُمْ سـبـيـلـ إـمـاـ شـاكـرـاـ وـإـمـاـ كـفـورـاـ﴾^(١٤)ـ،ـ وـ﴿فـمـنـ شـاءـ فـلـيـؤـمـنـ وـمـنـ شـاءـ فـلـيـكـفـرـ﴾^(١٥)ـ.

ومن هذا القبيل قوله تعالى لموسى في فرعون الذي يعلم حاله وعاقبة أمره ﴿لـعـلـهـ يـتـذـكـرـ أـوـ يـخـشـيـ﴾^(١٦)ـ.ـ وقد سـئـلـ الإـمـامـ الصـادـقـ عـنـهـ فـقـالـ عـلـيـهـ الـسـلـيـلـ:ـ «إـنـ

فِرْعَوْنَ قَدْ تَذَكَّرَ وَخَشِيَّ وَلَكِنْ عِنْدَ رُؤْيَاةِ الْبَلَى حَيْثُ لَمْ يَنْفَعُ الْإِيمَانُ^(١٧).
ثانيًا: أما «التقوى» لغةً واصطلاحًا:

ف مصدره اللغوي الاتقاء وأصله: الإبقاء، ومن وقى الشيء إذا صانه وستره، وتحرّز من الأذى والآفات.

فكأنّ المتقي إذا لبس التقوى من الله في قلبه لبس حرزاً ودرعاً حصيناً ما يخاف ويحذر. والتقوى ضد الفجور والفحش **﴿وَتَنْفِسِ وَمَا سَوَّاهَا، فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾**^(١٨)، **﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَارِ﴾**^(١٩).

ثالثاً: ما هو متعلق التقوى في قوله **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**? هل هو لإفاده المعنيين: اتقاء الله، واتقاء النار أو أحدهما مردداً! أو يمكن أن يكون له مفهوم جامع ينطبق عليهما بالمطابقة والالتزام؟

أقول:

لا بأس بتقاديم أمور:

الأمر الأول: أنّ الأمر بالتقى في الآيات القرآنية متعلق بأمررين: **﴿أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَعَاقِهِ﴾**^(٢٠)، **﴿أَتَقُوا يَوْمًا﴾**^(٢١)، **﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾**^(٢٢).
ولا ريب -حقيقةً واعتباراً- أنّ تقوى الله تتحقق بطاعته وعبادته وهم سبب لاتقاء النار والوقاية منها، فإذا لم يصرّح بما يتلقى، فالمراد هو الاتقاء مطلقاً، الذي ينطبق عليهما إما مورداً كما الأول أو قهراً كما الثاني.

الثاني: أنّ **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** في الآيات القرآنية لا تخلو إما متعلقة بـ **﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾** أو متعلقة بـ **﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾**. وهنا متعلقة ظاهراً بـ عبدوا دون خلقكم.

فإذا عرفت ذلك، أقول: (العلّكم تتقون) جامع مطلق لم يخص باتقاء الله أو النار، فله التوجيهان، والتوجيه بأيهما صحيح يفيد مفهوماً انطابقياً.

فإذا وجّه قوله لعلكم تتقدون -طبقاً للموضوع المتسلسل المتقدم- إلى خلقكم فالمناسب اتقاء الله بعبادته المستلزم لاتقاء النار. وإذا وجّه إلى عبدوا فالمناسب اتقاء النار الحاصل بالعبادة المستوجب لما حتم الله على المتقين بقوله ﴿يُنْجِي اللَّهُ الَّذِينَ أَتَقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ﴾^(٢٣).

المقام الثاني:

فرق بين الآداب والآثار أنّ الأولى مقدمة للثانية وقد مر الكلام فيها وبقي في الثانية، ونعني بالآثار المعنوية: "المعطيات التي تتصل بالروح والعقل والنفس، فكل ما يؤثر في تسامي الروح، وكل ما يسهم في تصفية العقل، وفي تزكية النفس، فهو أثر معنويّ. وذلك في مقابل الآثار المادّية للصوم، كالآثار الصحيّة، والآثار السلوكية المرتبطة بنظام المجتمع، أو المرتبطة بالسلوك الشخصي"^(٢٤)، والفرق بين الآداب المعنوية للصوم أنها اختيارية وهذه طريق لتحصيل تلك والآثار المعنوية تكون غير اختيارية، فالصوم له آثار تربوية فردية واجتماعية مادّية ومعنوية أهمها:

١- التّقوى: وهو أبرز عنوان في المنظومة التّربوية الإسلامية وهدف سام من أهداف الخلقة يأتي بعد هدف العبادة ونتيجة له، وإنّ أحد أهمّ الطرق إليه من تلك العبادات هو الصوم، لأنّه يُعَبّد الطريق ويُهَبِّئ السبيل إلى أن نصل إلى «الصوم جنة من النار».

- ما هي العلاقة والرابط بين الصوم والتّقوى؟

إنّ أكثر ذنوب الإنسان أساسها أمران هما: الغضب والشهوة، والصوم علاج وقائي وراغع واقٍ من عمل هاتين القوتين، لذلك كان سبباً للتّقوى.

٢- تقوية إرادة الإنسان: فقد فسر الصبر في بعض الآيات قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٢٥)، بالصوم فهو نوع من الصبر والقدرة على التحمل وتقوية الإرادة وهو سبيل للاتقاء عن المعاصي، وما ترك بعض الأمور

(المفطرات) في ظرف زمانٍ معينٍ إلا نوع تدريب ومررين ليتمكن من ترك أمور أخرى أهم (الحرمات).

٣- تعديل غرائزه: فقد ورد أنّه يقلل تهيج بعض الشهوات.

٤- الحكمة: فقد ورد في حديث المراج، إنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِرَبِّهِ: «يَا رَبِّي، وَمَا مِيراثُ الصَّوْمِ؟ قَالَ: الصَّوْمُ يُورثُ الْحِكْمَةَ، وَالْحِكْمَةُ تُورثُ الْعِرْفَةَ، وَالْعِرْفَةَ تُورثُ الْيَقِينَ. فَإِذَا أَسْتَيقِنَ الْعَبْدُ، لَا يَأْلِمُ كَيْفُ أَصْبَحَ، بَعْدِ أَمْ يَسِّرٍ»^(٢).

- وما هي العلاقة بين الصوم والحكمة؟

في حديث المراج: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَاطَبَ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا أَمْرَى الْعَبْدِ إِذَا أَجَعَ بَطْنَهُ، وَحَفَظَ لِسَانَهُ، عَلِمَتُهُ الْحِكْمَةُ، وَتَكُونُ حِكْمَتُهُ نُورًا وَبِرْهَانًا»^(٢٧)، وفي رواية أخرى عن الإمام علي عليه السلام: «الْخَمْمَةُ تُفسِدُ الْحِكْمَةَ، وَالْبَطْنَةُ تُحَجِّبُ الْفَطْنَةَ»^(٢٨)، وقال عليه السلام: «القلب يتحمل الحكمة عند خلو البطن، والقلب يبع الحكمة عند امتلاء البطن»^(٢٩).

٥- سكون القلب، كما ورد في الروايات الشريفة: «أَنَّ مِنْ ثُرَاتِ الصَّوْمِ سُكُونَ الْقَلْبِ».

٦- تثبيت الإخلاص: «الصوم لي وأنا أجزي به»^(٣٠).

الآثار الاجتماعية للتقوى

- ورد عن الإمام الرضا عليه السلام: «إِنَّمَا أَمْرَوْا بِالصَّوْمِ لِكِي يَعْرُفُوا أَلَمَ الْجُوعُ وَالْعَطْشُ فَيَسْتَدِلُوا عَلَى فَقْرِ الْآخِرَةِ، وَلِيَكُونَ الصَّائمُ خَاشِعًا ذَلِيلًا مُسْتَكِنًا مَأْجُورًا مُحْسِبًا عَارِفًا صَابِرًا عَلَى مَا أَصَابَهُ مِنْ الْجُوعِ وَالْعَطْشِ، فَيَسْتَوْجِبُ الثَّوَابُ، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ وَاعْظَمُهُ لَهُ فِي الْعَاجِلِ، وَرَايِضًا لَهُ عَلَى أَدَاءِ مَا كَلَّفَهُمْ، وَدَلِيلًا لَهُمْ فِي الْآجِلِ، وَلِيَعْرُفُوا شَدَّةَ مَبْلَغِ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْفَقْرِ وَالْمَسْكَنَةِ فِي الدِّينِ، فَيُؤْدِي إِلَيْهِمْ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ لَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ»، تحتوي هذه الرواية على الأبعاد التالية: البناء الفكري والإعداد النفسي والبعد الاجتماعي للصوم.

- الإمام الصادق ع: «إِنَّمَا فرَضَ اللَّهُ الصِّيَامَ لِيُسْتَوِيَ بِهِ الْفَقِيرُ وَالْغَنِيُّ وَذَلِكَ أَنَّ الْغَنِيَّ لَمْ يَكُنْ لِيَجِدْ مِسْأَلَةً لِجُوعِ الْفَقِيرِ، وَأَنَّ الْغَنِيَّ كُلِّمَا أَرَادَ شَيْئًا قَدِرَ عَلَيْهِ فَأَرَادَ أَنْ يُسْوِيَ بَيْنَ خَلْقِهِ وَأَنْ يُذْيِقَ الْغَنِيَّ مِسْأَلَةً لِجُوعِ وَالْأَلْمِ ، لِيُرِقَّ عَلَى الْعَصِيفِ وَيُرِحَّ الْجَانِعَ».

ومن الآثار الصحيحة ما ورد عن رسول الله ﷺ: «صوموا تصحوا»^(٣١).

الهوامش:

- (١) البقرة: ١٨٣.
- (٢) مجمع البيان في تفسير الآية.
- (٣) آل عمران: ٩٧.
- (٤) المائدة: ٤٥.
- (٥) الجادلة: ٢١.
- (٦) يس: ١٢.
- (٧) النوادر للأشعري القمي: ٢٢.
- (٨) مريم: ٢٦.
- (٩) المصدر نفسه: ٢١.
- (١٠) المصدر نفسه: ٢٠.
- (١١) وسائل الشيعة، ج ١٠، ص ١٦٥.
- (١٢) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٦٥.
- (١٣) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٦٦.
- (١٤) الإنسان: ٣.
- (١٥) الكهف: ٢٩.
- (١٦) طه: ٤٤.
- (١٧) معاني الأخبار، الصدوق، ص ٣٨٥.
- (١٨) الشمس: ٧ و ٨.

- .٢٨: (١٩) ص.
- .١٠٢: (٢٠) آل عمران:
- .٢٨١، ١٢٣، ٤٨: (٢١) البقرة:
- .١٣١: (٢٢) آل عمران:
- .٦١: (٢٣) الزمر:
- .٢٠٣: (٢٤) مقالة للشيخ محمد صنكور، موقع حوزة الهدى.
- .٤٥: (٢٥) البقرة:
- .٢٠٣: (٢٦) إرشاد القلوب، الديلمي، ج ١، ص
- .٦٣: (٢٧) المصدر نفسه.
- .٣٦٠: (٢٨) غرر الحكم، ص
- .١١٨: (٢٩) مجموعة ورام، ج ٢، ص
- .٤: (٣٠) الكافي، الكليني، ج ٤، ص
- (٣١) اعتمدت في كتابة هذا البحث على عدّة مصادر منها: تفسير الميزان؛ تفسير نور بالفارسي؛ وسائل الشيعة؛ موقع حوزة الهدى للدراسات والبحوث؛ موقع سماحة الشيخ محمد العبيدان؛ علوم القرآن للسيد محمد باقر الحكيم؛ المراقبات للملكي التبريزي؛...).



عظمة الحجّ في أدعية شهر رمضان

الشيخ محمد عباس الجرجاني

بسم الله الرحمن الرحيم، لماذا ذُكر الحجّ في كثير من
أدعية شهر رمضان؟ وما هو الارتباط بين الحجّ وشهر
رمضان؟

ونجيب على ذلك:

أولاً: لا بدّ من أن نذكر مقدمة حول أهميّة الحجّ في
الإسلام، وأنّ الحجّ من أركانه كما ورد في روایات
عديدة صحيحة، منها: «بني الإسلام على خمسة أشياء: على
الصلوة، الزكاة، الصوم، والحجّ والولايّة»^(١).

فمن ترك أحدّها عمداً فقد ترك ركناً من أركان الإسلام، ومن ترك ركناً من

أركان الإسلام عمداً فقد كفر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، فعبرت الآية أن ترك الحج عمداً كفر.

وعن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه، فليتم يهودياً أو نصراانياً»^(٣).

والحج شعيرة من شعائر الله العظيمة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٤).

عن جعفر بن محمد عن آبائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في وصيَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «يا عَلِيٌّ كَفَرَ بِاللهِ الْعَظِيمِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَشْرَةً... إِلَى أَنْ قَالَ: وَمَنْ وَجَدَ سُعَةَ فَمَاتَ وَلَمْ يَحْجُّ، يَا عَلِيٌّ تَارِكُ الْحَجَّ وَهُوَ مُسْتَطِيعٌ كَافِرٌ، يَقُولُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامٌ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ أَمِنًا وَلَلَّهُ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٥).

عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أبيه عن آبائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَقِيَ أَعْرَابِيَّ فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي خَرَجْتُ أُرِيدُ الْحَجَّ فَفَاتَنِي وَأَنَا رَجُلٌ مُمِيلٌ^(٦)، فَعَرَنَّيَ أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي مَا أُبْلِغُ مِثْلَ أَجْرِ الْحَاجِ، فَالْفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: انْظُرْ إِلَى أَبِي قَبِيسٍ فَلَوْ أَنَّ أَبَا قَبِيسَ لَكَ ذَهَبَةً حَمَراءً أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا بَلَغَ مَا يَلْغِي الْحَاجُ، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْحَاجَ إِذَا أَخْذَ فِي جَهَازِهِ لَمْ يَرْفَعْ شَيْئاً وَلَمْ يَضْعِهِ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ وَمَحِيَّ عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ درَجَاتٍ، فَإِذَا رَكِبَ بَعِيرَهُ لَمْ يَرْفَعْ خَفَّاً وَلَمْ يَضْعِهِ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَإِذَا طَافَ بِالْبَيْتِ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ، فَإِذَا سَعَى بَيْنَ الصَّفَّا وَالْمَرْوَةِ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ، فَإِذَا وَقَفَ بِعِرْفَاتِ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ، فَإِذَا وَقَفَ بِالْمُشْرِعِ الْحَرَامِ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ، فَإِذَا رَمَيَ الْجَمَارَ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ، قَالَ: فَعَدَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَذَا وَكَذَا مَوْقِعاً إِذَا وَقَفَهَا الْحَاجُ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ أَنَّى لَكَ أَنْ تَبْلُغَ مَا يَلْغِي الْحَاجُ، قَالَ أَبُو عبدِ الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَلَا تَكْتُبْ عَلَيْهِ الذُّنُوبَ أَرْبَعَةً أَشْهُرَ، وَتَكْتُبْ لَهُ الْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْ

يأتي بالكبيرة»^(٧).

مكانة الحجّ عند المقصومين عليهما السلام:

وفي الرواية عن رسول الله عليه وآله: «الحجّ مقبولة خير من عشرين صلاة نافلة»^(٨).
وقال أبو جعفر عليهما السلام: «أتى آدم عليهما السلام هذا البيت ألف أتية على قدميه، منها سبعمائة حجّة، وثلاثمائة عمرة»^(٩).

ويُستفاد من بعض الروايات حضور الإمام الحجّ عليهما السلام في كلّ موسم، فعن عبد الله بن جعفر الحميري، عن محمد بن عثمان العمري قال: سمعته يقول: «والله إنّ صاحب هذا الأمر يحضر الموسم كلّ سنة فيرى الناس ويعرفهم ويرونه ولا يعرفونه»^(١٠).

جامعية الحجّ وأهميّته في أحكامه ومسائله:

عن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليهما السلام: جعلني الله فداك أسألك في الحجّ منذ أربعين عاماً فتفتني فقال: «يا زرارة، بيت حجّ إليه قبل آدم بألفي عام تريد أن تغنى مسائله في أربعين عاماً»^(١١).

وعن هشام بن الحكم قال: سألت أبي عبد الله عليهما السلام فقلت: ما العلة التي من أجلها كلف الله العباد الحجّ والطواف بالبيت؟ فقال: «فجعل فيه الاجتماع من الشرق إلى الغرب ليتعرفوا... ولتعرف آثار رسول الله عليه وآله وصحبه وتجاره، ويدرك ولا ينس»^(١٢).

وعن محمد بن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال: قال رسول الله عليه وآله: « يأتي على الناس زمان يكون فيه حجّ الملوك نزهة، وحجّ الأغنياء تجارة، وحجّ المساكين مسألة»^(١٣).

عن أبي عبد الله عليهما السلام قال: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة»^(١٤).

أصناف الحاج:

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «الحجاج يصدرون على ثلاثة أصناف: صنف يُعتقد من النار، وصنف يخرج من ذنبه كيوم ولدته أمّه، وصنف يُحفظ في أهله وما له، فذاك أدنى ما يرجع به الحاج»^(١٥).

وعن أبي حمزة الشمالي قال: قال علي بن الحسين عليهما السلام: «لَا وَقْرَبَ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعْرَفَةَ وَهَمَّتِ الشَّمْسُ أَنْ تَغْيِبَ قَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ رَبَّكُمْ نَطَّوْلَ عَلَيْكُمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَغَفَرَ لَهُمْ سَخْنَكُمْ، وَشَفَعَ مُحَسِّنَكُمْ فَأَفِضُّوا مَغْفُورًا لَكُمْ»^(١٦).

وينبغي أن يُهْبِيَ الإنسان نفسه للحج للسنة الآتية إذا انتهى من مناسكه، وهذا دليل على أهميته على ذلك، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام ليعيسى بن منصور: «يا عيسى إني أحب أن يراك الله فيما بين الحج إلى الحج وأنت تهيا للحج»^(١٧).

ويُستحب أن ينوي الإنسان العود إلى الحج عند الخروج من مكة، فعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «من رجع من مكة وهو ينوي الحج من قابل زيد في عمره. وعنه عليه السلام قال: «من خرج من مكة وهو لا يريد العود إليها فقد اقترب أجله، ودنا عذابه»^(١٨).

ومن أهمية الحج: كراهة أن تشير على أحد بعدم الذهاب إلى الحج؛ لأنَّه يُبتلى، ففي الرواية أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ليحذر أحدكم أن يعوق أخيه عن الحج فتصيبه فتنة في دنياه مع ما يدخل له في الآخرة»^(١٩).

وقال إسحاق بن عمّار لأبي عبد الله عليه السلام: إن رجلاً استشارني في الحج وكان صغير الحال، فأشرت عليه ألا يحج، فقال: «ما أخلفك أن تمرض سنة»، قال: فمرضت سنة^(٢٠).

ذكر الحج في أدعية شهر رمضان:

وبعد هذه المقدمة نعرف أهمية الحج وعظمته، أما ذكره في أدعية شهر

رمضان فـإليك مقاطع منها:

«اللهم ارزقني حجـّ بـيتـك الحرام في عامـي هـذا وـفي كـلـ عام...».

«اللهم إـنـي أـسـأـلـكـ فيما تـقـضـيـ وـتـقـدـرـ أـنـ تـكـبـيـ من حـجـاجـ بـيـتـكـ الحـرـامـ،ـ المـبـرـورـ حـجـهمـ،ـ المـشـكـورـ سـعـيـهـمـ...».

«اللهم وأـسـأـلـكـ بـفـضـلـكـ أـنـ تـجـعـلـ لـيـ فيـ عـامـيـ هـذـاـ إـلـىـ بـيـتـكـ الحـرـامـ سـيـلـاـ حـجـةـ مـبـرـورـةـ»^(٢١).

الأعمال المشتركة في شهر رمضان:

١- من ضمن أعمال ليالي شهر رمضان: «اللهم وليلة القدر وحجـّ بـيـتـكـ الحـرـامـ وـقـتـلاـ فيـ سـيـلـكـ فـوـقـ لـنـاـ...».

«اللهم اجعلـ فيما تـقـضـيـ وـتـقـدـرـ أـنـ تـجـعـلـنـيـ منـ حـجـاجـ بـيـتـكـ الحـرـامـ المـبـرـورـ حـجـهمـ».

وفي مقطع من دعاء أبي حمزة الشمالي: «اللهم وارزقني حجـّ بـيـتـكـ الحـرـامـ فيـ عـامـنـاـ هـذاـ وـفيـ كـلـ عامـ».

ومن ضمن أدعية نهار شهر رمضان: «وارزقني الحجـّ والـعـمـرـةـ».

«اللهم إـنـيـ أـسـأـلـكـ أـنـ تـكـبـيـ منـ حـجـاجـ بـيـتـكـ الحـرـامـ»^(٢٢).

وفي أدعية ليالي القدر: «اللهم اجعلـ فيما تـقـضـيـ وـتـقـدـرـ منـ الـأـمـرـ الـخـتـومـ وـفـيـماـ تـفـرقـ منـ الـأـمـرـ الـحـكـيمـ فيـ لـيـلـةـ الـقـدـرـ وـفـيـ الـقـضـاءـ الـذـيـ لـاـ يـرـدـ وـلـاـ يـدـلـ أـنـ تـكـبـيـ منـ حـجـاجـ بـيـتـكـ الحـرـامـ المـبـرـورـ حـجـهمـ،ـ المـشـكـورـ سـعـيـهـمـ،ـ الـمـغـفـرـ ذـنـوبـهـمـ،ـ الـمـكـفـرـ عـنـهـمـ سـيـئـاتـهـمـ»^(٢٣).

والملاحظ أنه ليس فقط ليكون مكتوباً من حجاج بيته في تلك السنة بل في كلـ سنة يطلب منهـ -ـ تعالىـ -ـ تـكـرارـ الحـجـّـ «ـفـيـ عـامـنـاـ هـذاـ وـفيـ كـلـ عامـ».

فهذه الأدعية لأجل الحصول على التوفيق للحجـّـ وما ورد من الشـوـابـ العـظـيمـ فيهـ.

فعن أبي عبد الله عليه السلام: «تسبيحة بِمَكَّةَ أَفْضَلُ مِنْ خَرَاجِ الْعَرَاقِينَ يُنْفَقُ فِي سَبِيلِ
الله»^(٢٤).

وقال أبو جعفر عليه السلام: «وَالسَّاجِدُ بِمَكَّةَ كَالْمُشَحَّطِ بِدَمِهِ فِي سَبِيلِ الله»^(٢٥).

وعنه عليه السلام: «مَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ بِمَكَّةَ لَمْ يَمْتَحِنْ حَتَّى يَرَى رَسُولَ اللهِ صلوات الله عليه وآله وسلامه وَيَرَى مَنْزَلَه
مِنَ الْجَنَّةِ»^(٢٦).

وعن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه: «النَّظَرُ إِلَى الْكَعْبَةِ حَبَّاً لَهَا يَهْدِمُ الْخَطَايَا هَدْمًا»^(٢٧).

فالمستفاد من الأدعية الواردة في شهر رمضان وذكر الحجّ فيه وطلب التوفيق له، أهميّة الحجّ من جوانب متعدّدة، اجتماعية، وأخلاقيّة، ودينية، ومعنوّية، والآثار والبركات التي تشمل الحاج أهّمها غفران ذنبه ويكون كيوم ولدته أمّه، وتوفيق لقاء الحجّة الليلة العظيمة، وإن لم تره فهو يراك كما هو المستفاد من الروايات، وهو يدعوا لشيئته ومحبّيه من حجاج بيت الله الحرام، وكما أنّ محبيه ومنتظري ظهوره يدعون له بالفرج، فهو بدوره يفرح لدعائهم له ويدعوا لهم، وهذا توفيق عظيم.

وهناك أمر آخر، وهو أنّ من أهميّة الحجّ وما يتربّط عليه من آثار، أنّ المؤمن يدعو في شهر رمضان وهو شهر الدّعاء والتّضرّع إلى الله - تعالى - بالخاصّ في ليالي القدر التي تقدّر فيها الأمور فتكتب من حجاج بيته الحرام ووفده، وبما أنّ الشخص ربما لم يكن مكتوباً من الحجاج، فيكتب ذلك ليلة القدر؛ لأنّها ليلة التّقدير وليلة المو والإثبات كما ورد في أدعية ليالي القدر: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ
فِيمَا تَقْضِي وَتَقْدِرُ مِنَ الْأَمْرِ الْحَكِيمِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنَ الْقَضَاءِ الَّذِي لَا يُرَدُّ وَلَا يُبَدَّلُ أَنْ
تَكْتُبَنِي مِنْ حَجَّاجٍ بَيْتَكَ الْحَرَامَ الْمَبْرُورَ حَجَّهُمْ، الْمَشْكُورَ سَعِيهِمْ، الْمَغْفُورَ ذَنْبِهِمْ، الْمَكْفُرَ
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ...»^(٢٨).

فينبغي أن يدعو في ليلة القدر ليكون من الحجاج، وليحصل على التوفيق بأن يكون مبرور الحجّ، مشكور السعي، مغفور الذنب، وقد كفّر الله سيئاته.

وهناك أمر وهو: أنّ الحجّ عبادة تحتاج إلى تحمل جهد وعناء أكثر وليس كالصلوة أو الصوم، فإنّ الحجّ حاجة إلى تهيئه مقدمات وبعضها صعبة، منها: تحمل المشاق والزاد والرّاحلة، ومنها: أن يكون للحجّ مالٌ كافٍ للذهاب والإياب، أمّا بقية العبادات فلا تحتاج إلى هذا العناء وصرف المال.

فالتأكيد عليه في أدعية شهر رمضان؛ لأنّه شهر دعاء، ولأنّ أنفاس الصائمين ونومهم كلّها عبادة فيكون الدّعاء أقرب للإجابة، وتحصيل توفيق الحجّ.

يمكن أن يقال أنّ الهدف من ضيافة الله لعباده في شهره هو تهيئه النّفوس والأرضية لضيافته لهم في الحجّ وذلك عبر أدعية شهر رمضان وبركاتها.

فالباري - تعالى - لما استضاف عباده في شهر رمضان وهياً لهم الأرضية في ضيافة شهر الحجّ كانت بداية الضيافة في شهر رمضان، والتّنهاية في موسم الحجّ بعد الانتهاء من المناسب.

فالحجّ ضيافة الله، والحجّاج كالصائمين ضيوف الرحمن، فكما أنّ الصائم في ضيافة الله فكذلك الحاج كما ورد عن الإمام الصادق ع: «دُعِيتُمْ إِلَى ضيافته إنْ ضيافَةَ اللَّهِ بِعِزَّتِهِ رَجُلٌ حَجَّ وَاعْتَمَرَ فَهُوَ ضيافَةُ اللَّهِ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَىٰ مَنْزِلَهُ...»^(٢٩).

ضيافة الله على مرحلتين، الأولى: أنّ الدّاعي إلى الضييف يقول له: أدعوك واطلب حاجتك. وفي الثانية: يعطي المضييف ما سأله الدّاعي.

وفي شهر رمضان الدّاعي والمضييف هو الله - تعالى - حيث يقول: «اسأّلوا مني الحجّ»، وفي ذي الحجّة لا يقول اطلب مني بل يعطى الحاج.

ففي شهر رمضان الضييف يطلب، وفي الحجّ يعطى ويوقف الضييف لما طلبه.

والعبد المؤمن إذا سأّل الله فأعطاه - سبحانه - وأوصله إلى مراده يزداد العبد في السؤال ويطمع في رحمة الله - تعالى - ويدرك حوائجه، فيحصل له تحول روحيّ تتعدد مراتبه بحسب المسألة، بحيث يهديه - تعالى - إلى ما ينبغي له مسألته، وما

يقدمه في المسألة على غيره، حتى يصل إلى المرحلة الأولى من قبيل ما يرتبط بالمعارف الإلهية والحجّ ولا يقنع بالقليل، وهذه وظيفة العبد تجاه مولاه - كما قال تعالى - ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ حَوْفًا وَطَمَعًا﴾^(٣٠).

وكلما ازداد في المسألة الخوف والطعم كان أكثر خلوصاً وتقرباً إلى الله - تعالى -، وخزائن الله لا تنتهي بل تزداد؛ لأنّه كلما سئل ازداد جوده وكرمه، بل يزداد شرح صدر السائل، وتنتهي ظرفية الطلب، فيطلب الأفضل والأهم والأكثر ويحصل على عطاء أكثر، وهذا السير التصاعدي مستمرّ.

وقد ورد في دعاء الافتتاح: «الحمد لله الذي لا تقص خزاته ولا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً...»^(٣١)؛ لأنّ الخزينة الإلهية تؤمن بإرادته - تعالى - وإرادته غير قابلة للانتهاء بل مستمرة.

وروح الحجّ متوقفة على قبوله، وقبوله متوقف على الإقرار بولادة أهل البيت عليهم السلام، وقد ورد أنّ الإسلام بني على خمس، منها الولاية وهي أحد الأركان الخمسة وأهمّها؛ لأنّها كما قال الإمام الصادق عليه السلام مفتاحهن^(٣٢)، بل ورد في أدعية شهر رمضان بعد الدّعاء للحجّ «اللهم ارزقني زيارة قبر نبيك عليه السلام والأئمة عليهم السلام ولا تخليني يا ربّ من تلك المشاهد الشريفة والواقف الكريمة»^(٣٣).

ولتقريب ذلك نذكر مثالاً: ففي الضيافة الضيف يأكل من مائدة المضيف، فالضييف ينتظر المائدة ويجرّد أن توضع المائدة يده ليأكل مما عليها، أمّا في دعاء شهر رمضان فإنّ الدّاعي والمضيف هو الله - تعالى - وهو يطلب من ضيوفه أن يزوروا حرم رسوله محمد صلوات الله عليه وسلم وأبنائه عليهم السلام.

بهذه الأدعية ينتهي توفيق زيارة بيته وحرم رسوله والأئمة عليهم السلام في شهر رمضان، فشرف المكان بال McKin.

زيارة النبي وأهل بيته

ومن المستحبات الأكيدة بعد أعمال الحج زيارـة قبر الرسول عليهما السلام
والائمة عليهم السلام فهو كمال الحج وروحـه.

ولقد ورد عن الرسـول الأمـين عليهما السلام عدـة أحادـيث تؤكـد هذا المعـنى:

قال عليهما السلام: «من حج ولم يزرنـي فقد جفـاني»^(٣٤).

وعنه عليهما السلام: «من زارـني في مـاتـي كـمـن زـارـني في حـيـاتـي»^(٣٥).

وعنه عليهما السلام: «من أتـي مـكـة حاجـاً ولم يـزـرـني إـلـى المـديـنـة جـفـوـتـه يـوـم الـقـيـامـة، وـمـن أـتـانـي زـائـراً وجـبـتـ له شـفـاعـي...»^(٣٦).

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَابًا رَّحِيمًا﴾^(٣٧).

ورـدـ في الـزـيـارـةـ: «إـلـيـ فـقـدـ أـتـيـتـ نـيـكـ مـسـتـغـفـرـاـ تـائـيـاـ مـنـ ذـنـوبـيـ وـلـيـ أـتـوـجـهـ بـكـ إـلـىـ اللـهـ رـبـيـ وـرـبـكـ لـيـغـفـرـ لـيـ ذـنـوبـيـ»^(٣٨).

والـنـكـتـةـ الـمـهـمـةـ هيـ: أـنـ أـعـمـالـنـاـ تـعـرـضـ عـلـىـ رـسـولـ اللـهـ عـلـيـهـ وـلـهـ وـعـلـىـ إـلـامـ

الـحـجـةـ عـلـيـهـ، فـزـيـارـتـنـاـ لـهـ تـكـونـ سـبـبـاـ لـشـفـاعـتـهـ لـنـاـ بـقـبـوـهـاـ عـنـدـ اللـهـ تـعـالـىـ.

ويـؤـكـدـ ذـلـكـ قولـهـ تـعـالـىـ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣٩).

وـعـنـ إـلـامـ الـبـاقـرـ عـلـيـهـ قـالـ: «تـعـرـضـ الـأـعـمـالـ عـلـىـ رـسـولـ اللـهـ عـلـيـهـ وـلـهـ أـعـمـالـ العـبـادـ

كـلـ صـبـاحـ أـبـرـارـهـ وـفـجـارـهـ فـاحـذـرـهـاـ وـهـوـ قـوـلـ اللـهـ تـعـالـىـ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤٠).

وـقـدـ وـرـدـ عـنـ أـبـيـ عـبـدـ اللـهـ عـلـيـهـ أـنـهـ قـالـ: قـالـ رـسـولـ اللـهـ عـلـيـهـ وـلـهـ: «مـنـ أـتـانـيـ زـائـراـ

وـجـبـتـ لهـ شـفـاعـيـ، وـمـنـ وـجـبـتـ لهـ شـفـاعـيـ وـجـبـتـ لهـ الجـنـةـ...»^(٤١).

وـكـمـ آنـهـ لـوـلاـ رـسـولـ اللـهـ عـلـيـهـ وـلـهـ وـأـبـنـاؤـهـ الـمـعـصـومـونـ عـلـيـهـمـ لـمـ بـقـيـ منـ إـلـاسـلامـ



شيء، فهم الذين حفظوا الإسلام الحقيقي.

وهم الأئمّة الذين قال عَلَيْهِ وَاللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»^(٤٢).

وقد عرفتهم الشيعة ففازوا بقبول الأعمال كما ورد في روایات كثيرة عدم قبولها إلا بولايتهما، وأماماً غيرهم فكما قال الإمام الباقر عَلَيْهِ الْكَلَمُ: «أترى هؤلاء الذين يلبون والله لأصواتهم أبغض إلى الله من صوت الحمير»^(٤٣).

وعن الفضيل عن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «نظر إلى الناس يطوفون حول الكعبة فقال: هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية، إنما أمروا أن يطوفوا بها ثم ينفروا إلينا فيعلمونا ولاليهم ومودتهم، ويعرضون علينا نصرتهم، ثم قرأ هذه الآية ﴿فاجعل أفتدة من الناس تهوي إليهم﴾^(٤٤).

وعن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «تمام الحج لقاء الإمام»^(٤٥).

وعن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ: «يا أبا حزرة، بما أمر هؤلاء؟ فلم أدر ما أرد عليه؟ فقال: إنما أمروا أن يطوفوا بهذه الأحجار ثم يأتونا فيعلمونا ولاليهم»^(٤٦).

وعن أبي الحسن الرضا عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «إن لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالعهد زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم وتصديقاً بما رغبوا فيه كان أئمّتهم شفعاءهم يوم القيمة»^(٤٧).

وعن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية، قال زرار: فقلت: أي شيء من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل لأنها مفاتيحهن، والوالى هو الدليل عليهم»^(٤٨).

فالالتزام العلمي والعملي بأولياء الحق هو تمام النعمة وكمال الدين ورضا رب، ليس فقط تمام الحج لقاء الإمام، بل لقاوه تمام الإسلام كما قال عَلَيْهِ وَاللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: «الحمد لله على تمام النعمة بولالية علي بن أبي طالب عَلَيْهِ الْكَلَمُ»^(٤٩).

فلا يكن معرفة الحجّ حقيقة ولا درك المشعر وعرفات ومني واقعاً من دون المعصوم عليه السلام والحجّ والإنسان الكامل، وتكون المناسك كلّها قشرية صورية وبلا روح وجوهر لأنّه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَقِينَ﴾^(٥٠)، ومن لم يوال ولِي الله ولم يقرّ بولايته لا يكون متقياً، ومن لم يكن كذلك فعمله غير مقبول كما ورد: «لا تقبل الأعمال إلا بولايتنا»^(٥١).

ولأنّ الأعمال العبادية -ومنها الحجّ- من دون الولاية خالية عن الروح الحقيقية بل جميع الأعمال قبوها رهينة الولاية، ولا يترتب الشّواب على جميع الأعمال حتّى لمن زار رسول الله عليه السلام والأئمة عليهم السلام إذا لم يكن معتقداً بولايتهم ومتبرئاً من أعدائهم، كما ورد في زيارة الجامعات الكبيرة: «من أتاكم نجى، ومن لم يأتكم هلك»، «سعد من والاكم، وهلك من عاداكم»، «من اتبعكم فالجنة مأواه، ومن خالفكم فالنّار مثواه»، «وجعلني من خيار مواليك، التّابعين لمن دعوتم إليه، وجعلني من يقصّ آثاركم، ويسلك سيلكم، ويهتدى بهداكم»^(٥٢).

وكما قال عليه السلام: «أنا مدينة العلم وعلى بابها، فمن أراد العلم فليأت باب المدينة»^(٥٣).

فأخذ الأحكام الشرعية الصحيحة منهم لا من غيرهم؛ لأنّهم باب الله، من أتاهم نجى، ومن لم يأتهم هلك، ويدخل الإنسان في حصن الله بشرطها وشروطها، كما قال الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام: «لا إله إلا الله حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي»، ثم قال عليه السلام: «بشرطها وشروطها، وأنا من شروطها»^(٥٤).
 واعلم أنّ قيمة كلّ أمرٍ ما يحسنه من المبادئ السّامية والعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة والصفات الحميدة، فلا بدّ من المعرفة، فإنّ أفضلكم يوم القيمة أفضلكم معرفة.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «لا يقبل الله عملاً إلا بمعرفة، ولا معرفة إلا بعمل، ومن



عرف دلّته معرفته على العمل، ومن لم يعرف فلا عمل له»^(٥٥).

وإنما تكمل وتتّم معرفة الله ورسوله بعرفة الإمام، كما أن الطّاعات والقربات لا تقبل إلا بعرفته وولايته.

عن أبي حمزة الشّمالي قال: قال لي أبو جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنما يعبد الله من يعرف الله، فاما من لا يعرف الله فإنما يعبد هكذا ضلاًّا، قلت: جلعت فداك، فما معرفة الله؟ قال: تصديق الله عَزَّوجلَّ ورسوله وموالاة عليٍّ والاتّمام به وبائمة المدى، والبراءة إلى الله عَزَّوجلَّ من عدوهم، هكذا يُعرف الله عَزَّوجلَّ»^(٥٦).

وقال رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَوَاللَّهِ مَا يَنْعَمُ بِهِ الْجَنَاحُ لَوْلَا صَفَّ بَيْنَ الرِّكْنِ وَالْمَقَامِ وَرَأَكُوا ساجداً، ثُمَّ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّوجلَّ غَيْرَ مُحِبٍّ لِأَهْلِ بيتي لَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكُ»^(٥٧).

وقال الإمام السّجّاد عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ أَفْضَلَ البقاعَ بَيْنَ الرِّكْنِ وَالْمَقَامِ، وَلَوْلَا أَنَّ رَجُلًا عَمِّرَ مَا عَمِّرَ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قومِهِ -أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا- يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيلَ -فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ- ثُمَّ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّوجلَّ بِغَيْرِ وَلَائِتِنَا لَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ شَيْئًا»^(٥٨).

وعن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَاللَّهُ لَوْلَا أَنَّ عَبْدًا صَفَّ قَدْمِيهِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، قَامَ اللَّيلَ حَتَّى يُبَيِّنَهُ النَّهَارَ وَصَامَ النَّهَارَ حَتَّى يُبَيِّنَهُ اللَّيلَ، وَلَمْ يَعْرِفْ حَقَّنَا وَحَرَمَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ لَمْ يَقْبِلْ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا أَبْدًا»^(٥٩).

وعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَاللَّهُ لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا صَامَ النَّهَارَ وَقَامَ اللَّيلَ، ثُمَّ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّوجلَّ بِغَيْرِ وَلَائِتِنَا لَقِيهِ وَهُوَ سَاخِطٌ عَلَيْهِ»^(٦٠).

وقال رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَالذِّي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ نَبِيًّا، لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا لَقِيَ اللَّهَ بَعْلَ سَبْعِينَ نَبِيًّا ثُمَّ لَمْ يَأْتِ بِوَلَايَةٍ وَلِيَّ الْأَمْرَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، مَا قَبْلَ اللَّهِ مِنْهُ حِرْفًا وَلَا عَدْلًا»^(٦١).

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كُلُّ مَنْ دَانَ اللَّهَ عَزَّوجلَّ بِعِبَادَةٍ يَجْهَدُ فِيهَا نَفْسَهُ وَلَا إِمَامٌ لَهُ مِنَ اللَّهِ فَسَعْيُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَهُوَ ضَالٌّ، مُتَحِيرٌ، وَاللَّهُ شَانِعٌ لِأَعْمَالِهِ، وَمُثْلُهُ كَمْثُلَ شَاةٍ ضَلَّتْ عَنْ رَاعِيَهَا وَقَطَّعَهَا»^(٦٢).

كما ورد في الزّيارة الجامدة الكبيرة: «وَفَازَ مَنْ تَمْسَكَ بِكُمْ، وَأَمِنَ مَنْ جَاءَ إِلَيْكُمْ،

وسلم من صدّقكم، وهدي من انتقم بكم، من أتبعكم فالجنة مأواه، ومن خالفكم فالنار مثواه، ومن جحدكم كافر، ومن حاربكم مشرك، ومن ردّ عليكم في أسفل درك من الجحيم».

«من أراد الله بدأ بكم، ومن وحده قبل عنكم، ومن قصده توجه بكم».

«موالاتكم تمت الكلمة، وعظمت النعمة، واتلفت الفرفة».

«وموالاتكم تقبل الطاعة المفترضة، ولهم المودة الواجبة، والدرجات الريّعة، والمقام الحمود، والمكان المعلوم عند الله عزوجل، والجاه العظيم، والشأن الكبير، والشفاعة المقبولة».
والخلاصة: أنه لا يمكن أخذ العلم والعمل عن غير طريق أهل بيته العصمة؛ لأنّهم عليهما عدل القرآن كما قال عليهما عليهما عاصي الله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً»^(٣).

إذن تتحقق الشعائر بما إذا عمل بما يريد الله تعالى، ولا يمكن ذلك إلا عن طريق أهل البيت عليهما عاصي الله، ومع عدم معرفتهم والولاية لهم عليهما لا تتحقق روح العبادة، ولا يصدق عليهم أنّهم وفده وزوار قبر رسوله الأمين عليهما عاصي الله.

وقد ورد في ثواب زيارة النبي عليهما عاصي الله والأئمة عليهما عاصي الله روایات منها:

عن رسول الله عليهما عاصي الله: «من حج إلى مكة ثم قصدني في مسجدي كُتُبْت له حجتان مبرورتان»^(٤).

وعن الإمام الصادق عليهما عاصي الله: «إن زيارة قبر رسول الله تعدل حجّة مع رسول الله مبرورة»^(٥).

وعن رسول الله عليهما عاصي الله: «من زارني في حياتي وبعد موتي كان في جواري يوم القيمة»^(٦).

وعن رسول الله عليهما عاصي الله: «يا عليّ من زارني في حياتي أو بعد موتي أو زارك في حياتك أو بعد موتك أو زار ابنيك في حياتهما أو بعد موتهما ضمنت له يوم القيمة أن أخلصه من أهواها وشدائدها حتى أصيره معي في درجتي»^(٧).

وعن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال لرسول الله عليه السلام: «يا أبناه ما لمن زارك؟ فقال رسول الله عليه السلام: يا بني من زارني حيّاً أو ميتاً أو زار أبيك أو زار أخاك أو زارك كان حقاً عليّ أن أزوره يوم القيمة وأخلصه من ذنبه»^(٦٨).

الهوامش:

- (١) وسائل الشيعة، ج ١، ب ١ من أبواب مقدمة العبادات.
- (٢) سورة آل عمران: ٩٧.
- (٣) وسائل الشيعة ج ١١، ب ٧ من أبواب ثبوت الكفر، ح ١.
- (٤) سورة الحج: ٣٠.
- (٥) وسائل الشيعة، ج ١١، ب ٧، ح ٣.
- (٦) ممیل أو المیل: کثیر المال (القاموس المحيط -مول-، ج ٤، ص ٥٢).
- (٧) وسائل الشيعة، ج ٧، ب ٤٢، ح ١٧، ص ١١٣-١١٦.
- (٨) أصول الكافي، ج ٢، ص ١٩.
- (٩) وسائل الشيعة، ج ١١، ب ٤٥، ح ١٨، ص ٣٤-١٢٨.
- (١٠) المصدر نفسه، ب ٤٦، ح ٨، ص ٩.
- (١١) وسائل الشيعة، ج ١١، ب ١، ح ١٢، ص ١٢.
- (١٢) المصدر نفسه، ح ١٨، ص ١٤.
- (١٣) المصدر نفسه، ب ٢٢، ح ٩، ص ٦٠.
- (١٤) المصدر نفسه، ب ٤، ح ٥، ص ٢١.
- (١٥) المصدر نفسه، ب ٣٨، ح ٢، ص ٩٢.
- (١٦) المصدر نفسه، ح ٤، ص ٩٥.
- (١٧) المصدر نفسه، ب ٥٦ استحباب التهيئة للحج، ح ٢، ص ١٠٥.
- (١٨) المصدر نفسه، ب ٥٧ استحباب نية العود، ح ١، ٢.
- (١٩) المصدر نفسه، ب ٤٨، عدم جواز المشورة بترك الحج، ح ١، ٢.
- (٢٠) المصدر نفسه، ب ٤٨ عدم جواز المشورة بترك الحج، ح ١، ٢.

- (٢١) مفاتيح الجنان.
- (٢٢) المصدر نفسه.
- (٢٣) المصدر السابق.
- (٢٤) وسائل الشيعة، ج ١٣، ب ٤٥ استحباب الإكثار من ذكر الله وقراءة القرآن، ح ١، ص ٢٨٨.
- (٢٥) المصدر نفسه، ب ١٥ استحباب المجاورة بِكَة، ح ٢، ص ٢٣١.
- (٢٦) المصدر نفسه، ب ٤٥ استحباب استحباب الإكثار من ذكر الله وقراءة القرآن، ح ٢، ص ٢٨٨.
- (٢٧) المصدر نفسه، ب ٢٩، استحباب التَّنَطُّر إِلَى الْكَعْبَة، ح ٩، ص ٢٥٦.
- (٢٨) مفاتيح الجنان.
- (٢٩) وسائل الشيعة، ج ١٠: ٤٥٨. ١٣: ٩٧ استحباب زيارة المؤمنين ح ١٢: ٥٨٦.
- (٣٠) سورة السجدة: ١٦.
- (٣١) مفاتيح الجنان.
- (٣٢) وسائل الشيعة، ج ١، ب ١ أبواب مقدمات العبادات.
- (٣٣) مقطع من دعاء أبي حمزة الشمالي عليه السلام.
- (٣٤) كنز العمال: ٥ ح ١٢٣٦٩.
- (٣٥) مستدرك الوسائل: ١٠: باب تأكيد استحباب زيارة النبي عليه السلام، ح ١، كنز العمال: ١٢٣٦٨.
- (٣٦) الكافي: ٤: باب زيارة النبي عليه السلام، ح ٥.
- (٣٧) سورة النساء: ٦٤.
- (٣٨) وسائل الشيعة: ١٤: ب ٦ من أبواب كيفية زيارة النبي عليه السلام، ح ١. «مقطع من زيارته عليه السلام».
- (٣٩) سورة التوبة: ١٠٥.
- (٤٠) تفسير الصافي: ٢: ٣٧٣.
- (٤١) وسائل الشيعة: ١٤: ب ٣ تأكيد استحباب زيارة قبر رسول الله عليه السلام، ح ٣.
- (٤٢) المصدر نفسه: ١٦: ب ٣٣ من أبواب تحريم تسمية المهدى عليه السلام ح ٢٣. المناقب: ١: ٢٤٦.
- صحيح مسلم: ٣: ١٤٧٨. صحيح ابن حبان: ١٠: ٣٩. مسند أحمد: ٢: ٣-٨٣. ٤٤٦. المعجم الكبير للطبراني: ١٠: ٣٥٠. جمع الزوائد: ٢١٩، ٢١٨١٥.

- (٤٣) المصدر نفسه: ١٢: ي ٤٣ من أبواب أن المتمع يقطع التلبية إذا شاهد بيوت مكة ح ٣.
- (٤٤) وسائل الشيعة ب ٢ تأكيد استحباب زيارة النبي ﷺ والأئمة الأطهار علية السلام بعد الحج ح ١.
- أصول الكافي: ١: ح ١٠ ب الواجب على الناس عندما يقضون مناسكهم أن يأتوا الإمام فيسألونه عن معالم دينهم ويعلمونهم ولا يتهمهم وموتهم له. البحار: ٦٥: ٨٧.
- (٤٥) وسائل الشيعة: ١٤: ب ٢ تأكيد استحباب زيارة النبي ﷺ والأئمة علية السلام ح ٨، ١٢. عيون أخبار الرضا: ٢٩: ٢٩٣. علل الشرائع: ٢: ٤٠٩.
- (٤٦) المصدر نفسه: ح ١٢٩.
- (٤٧) المصدر نفسه: ح ٥.
- (٤٨) المصدر نفسه ب ١ من أبواب مقدمات العبادات ح ١، ٢.
- (٤٩) تفسير الدر المثمر: ١٩ في تفسير آية «اليوم أكملت لكم دينكم» من سورة المائدة: ٣. ينابيع المودة: ١١٥. أشبعنا البحث في آية الإكمال في كتابنا الآيات الباهرة: ٣١٧. بحار الأنوار: ٢٧: ب ١ من أبواب وجوب موالة أوليائهم ح ١٩: ٥٨.
- (٥٠) سورة المائدة: ٢٧.
- (٥١) أصول الكافي: ١: ١٤٣-٣٠٣. ثواب الأعمال: ٣٤٣. بحار الأنوار: ٢٧: ب ١ من أبواب وجوب موالة أوليائهم ح ١٦: ٥٧. المصدر نفسه ب ٧ أله لا تقبل الأعمال إلا بالولاية: ١٦٦. ينابيع المودة: ب ٩٠: ٤٨٠.
- (٥٢) مفاتيح الجنان. مستدرك الوسائل: ١٠ ب ٨٦ من أبواب المزار ح ١٧: ٤١٦. بحار الأنوار: ٩٩: ب ٨ من أبواب الزيارات الجامعية ح ٤: ١٢٧. البلد الأمين: ٤١٨. فرائد السقطين: ٢: ب ٣٨ من السمط الثاني ح ٤٦٣.
- (٥٣) تاريخ مدينة دمشق ترجمة الإمام علي علية السلام: ٢: ٢٦٤.
- (٥٤) ينابيع المودة: ب ٤٢: ١٢٦، ب ٦٥: ٣٨٥. عيون أخبار الرضا: ٢: ب ٣٧: ١٤٣، ١٤٤. فرائد السقطين: ٢: ١٨٩ ب ٣٩ ح ٤٦٦. حلية الأولياء: ١٩٢. الصواعق الحرقية: ٣١٠. نور الأبصار: ٣١٣. بحار الأنوار: ٣: ٥ ح ١٤، ١٥، ٢٣. كتاب التوحيد: ٢٣، ٢٣. ثواب الأعمال: ٢١. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ٢: ٢٨٤. وجاء في غرر الحكم: ١: ح ١٠٣: ٢٢٠ «إنني وذريتي من شروطها»، تعرضنا إلى شرح هذا الحديث مفصلاً في كتاب مستقلٌ مهيأ للطبع إن شاء الله تعالى.

- (٥٥) المحسن ١: ١٩٨. الكافي ١: ٤٤. مشكاة الأنوار: ٣٣٦.
- (٥٦) أصول الكافي ١: ١٨. تفسير أبي حمزة الشّمالي: ٨٠، بحار الأنوار ٢٧: ب١ من أبواب وجوب موالاة أوليائهم المصدر نفسه ب٧ أنه لاتقبل الأعمال إلا بالولاية ١٦٦ ينابيع المودة ب٩٠: ٤٨٠.
- (٥٧) أمالى الطوسي: ٦٣٣. بحار الأنوار ٤٧: ١٠٥.
- (٥٨) ثواب الأعمال: ٢٤٣. من لا يحضره الفقيه ٢٤٥: ٢٣١٤، أمالى الطوسي: ١٣٢ ح ٢٣.
- (٥٩) ثواب الأعمال: ٢٠٥. بحار الأنوار ٢٧: ١٧٨. تفسير فرات الكوفي: ٢٢٣.
- (٦٠) الكافي ٨: ٨٠ ح ١٠٧. أعلام الدين: ٤٢٧، البحار ٢٧: ١٩٠. تفسير العياشي ٢: ٨٩ رقم ٦١.
- (٦١) الكافي ١: ٣٣٦. أمالى المفيد: ١١٥ ح ٨ المجلس ١٣.
- (٦٢) الكافي ١: ١٨٢ و ٣٧٥. كتاب الغيبة (النعماني): ١٢٨.
- (٦٣) صحيح مسلم: ٤ ح ٢٤٠٨ فضائل علي بن أبي طالب. حلية الأولياء ١: ٣٠٥.
- (٦٤) كنز العمل للمتنقى الهندي ٥: ١٣٥ ح ١٢٣٧٩.
- (٦٥) وسائل الشيعة ١٤ ب٣ تأكيد استحباب زيارة قبر رسول الله ﷺ ح ٧.
- (٦٦) المصدر نفسه ح ٥.
- (٦٧) المصدر نفسه ب٢ زيارة النبي ﷺ والأئمة عٰلٰيهم ح ١٦.
- (٦٨) المصدر نفسه ح ١٤.



البكاء عند الدعاء

الشيخ حسن ملال الزكزي

المقدمة

يعتقد البعض أنَّ للإنسان حالات تعرض له بشكل اعتيادي وغريزي مناسبة لما يشعر به في الخارج، فضحكه أو ابتسامته تدل على شعوره بالفرح والسعادة وبكاءه دال على حزنه وألمه، ليس إلا.

وهذا الفهم البسيط ليس على قامه، باعتبار أنَّ البكاء - وهو محل الكلام - حركة تعبير عن حالة اهتزاز لكيان الإنسان وإنفجار لمشاعره، فلها الأثر البالغ على تحريك عجلة التغيير لدى الإنسان، وليس كما عبر بعضهم أنَّ البكاء إشارة إلى ضعف شخصية الباكي!

فدموع البكاء ليست مجرد سوائل مالحة تجري على وجنتيه، بل لجريان هذه الدموع في كثير من الأحيان تبني لأفكار أو تبرأ من أعمال، بل لصرخات البكاء أبعاد سياسية غير محدودة، وقد تحملت هذه الأبعاد في واقعة كربلاء بأبرز صورها.

كيف لو كان هذا البكاء في دائرة العلاقة مع الله! كيف لو كان خوفاً من الله؟! كيف لو كان البكاء في حال مناجاة الله وتوبه له؟! بل وما أدرك ما معنى بكاء الحب والعاشق الذي ذاق حلاوة محبة الله! حينها سيكون للبكاء أسمى المعاني وأقدسها، وقد أطلق عليه العلامة الفيض الكاشاني في موسوعته الأخلاقية بأنه سيد آداب الدعاء وذروة سنامها.

ولن يحمل البكاء في طياته معنى تفريغ للشحنات النفسية السلبية من أجل توفير راحة الإنسان كما صرخ بعضهم! بل سيكون الإنسان المؤمن في أحسن حال وأسعده حينما يعرف معنى لقاء الله، سيعرف معنى حاجة الروح لهذا اللقاء، فهناك حاجة روحية في الإنسان لا يصح التعبير عنها بالشحنات السلبية بل بالفراغ الروحي، وملئ هذا الفراغ خير معين عليه إنما هو البكاء من خشية الله. ونحن نعيش في أجواء أشهر العبادة المباركة، دعونا نقف معاً في محطة البكائيين في أدعيتهم ومناجاتهم مع الله، ونستلهم مما ورد عن سادتنا النجباء الأطهار عليهم السلام في البكاء وأثره، كما نتوقف في إشارات متفرقة من الأدعية الواردة عنهم صلوات الله عليهم وبيان موقعية البكاء في الدعاء.

مفاهيم البحث

البكاء:

في اللغة: [يُكَى] البكاء يد ويقصر، فإذا مددت أردت الصوت الذي يكون مع البكاء، وإذا قصرت أردت الدموع وخروجهما. قال الشاعر:

بكتْ عيني وحقَّ لها بُكاهَا وما يغنى البكاء ولا العويل

وبكيته وبكيت عليه بعن. قال الأصمي: "بكى الرجل وبكيته بالتشديد،
كلاهما إذا بكى عليه. وأبو زيد مثله. وأبكيته، إذا صنعت به ما يبكيه. وباكىته
فبكىته، إذا كنت أبكي منه. وتباكى: تكَلَّفَ البكاء. والبكى: الكثير البكاء"^(١).

وفي الاصطلاح: هو سيلان الدموع عن حزن وعويل، ويقال إذا كان الصوت
أغلب. لشدة الأنفعال والتتأثر من أمر معين ويتهيج جلد وجه الباكى ويقطب
 حاجبيه ويصدر صوتاً خاصاً من فرط فيض المشاعر وقد يكون التأثر حزناً أو
خشوعاً ألمًا^(٢).

الدعاء:

لغةً: [دعا] الدعوة إلى الطعام بالفتح. يقال: كنا في دعوة فلان ومدعوة فلان،
وهو في الأصل مصدر، يريدون الدعاء إلى الطعام. والدعوة بالكسر في النسب،
يقال: فلان دعي بين الدعوة والدعوى في النسب. هذا أكثر كلام العرب.
والدعى أيضاً من تبنيته. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾^(٣).
وادعى على فلان كذا. والاسم الدعوى. والادعاء في الحرب: الاعتراض، وهو أن
يقول: أنا فلان بن فلان. وتداعت المحيطان للخراب، أي تهادمت.

ودعوت فلاناً، أي صحت به واستدعيته، ودعوت الله له وعليه دعاء.
والدعوة المرة الواحدة. والدعاء: واحد الأدعية، وأصله دعاؤ، لأنَّه من دعوت إلا
أنَّ الواو قلبت لما جاءت بعد الألف همزةً. وتقول للمرأة: أنت تدعين، وفيه لغة
ثانية: أنت تدعويين، وفيه لغة ثالثة أنت تدعين بإشمام العين الضمة، للجماعة: أنت
تدعون. قال الأخفش: "سمعت من العرب من يقول: لو دعونا لا ندعينا، أي
لأجينا".^(٤)

اصطلاحاً: هو طلب الأدنى للفعل من الأعلى على جهة الخضوع

والاستكانة^(٥).

ويقول العلامة المجلسي رحمه الله: "الأدعية المأثورة على نوعين:

١-الأوراد والأذكار المقررة في كل يوم وليلة المشتملة على تجديد العقائد وطلب المقاصد والأرزاق.

٢-المناجاة وهي الأدعية المشتملة على صنوف الكلام في التوبة والاستغاثة والاعتذار وإظهار الحب والتذلل والانتكسار وظني آنه لا ينبغي أن تقرأ إلا مع البكاء والتضرع والخشوع التام^(٦).

البكاء في منظور أهل البيت عليهم السلام:

إنّ من يتصفح الجاميع الحديبية يتعجب مما نقل في فضل البكاء من خشية الله، فالكثير من الرويات وردت في بيان ذلك، وقد أقتصر في هذا البحث المتواضع على بحار الأنوار كمصدر، ووفقاً لله لفهرسة الأحاديث حسب العنوان المناسب لموضوعها، حيث تدور الأحاديث في خمسة عناوين أساسية، وهي في الحقيقة تحتاج في الوقوف عليها بشكل متأنٍ إلى تأمل ودراسة دقيقتين لنتوصل ونعرف معنى تلك الدمعة والبكاء المقصود في كلمات الموصومين عليهم السلام:

طائفة في فضل وثواب البكاء:

١ - جاء في أمالى الصدق عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «ألا ومن ذرفت عيناه من خشية الله كان له بكل قطرة قدرت من دموعه قصر في الجنة مكلاً بالدرّ والجوهر فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

٢ - عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آنه قال: «ثلاث منجيات؛ تكف لسانك وتبكي على خطيتك وتلزم بيتك».



طائفة في فضل البكاء في جوف الليل:

- ١- قال أبو عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع في سواد الليل يقطرها العبد خافة من الله لا يريد بها غيره وما جرعة يتجرعها عبد أحب إلى الله من جرعة غيظ يتجرعها عبد يرددتها في قلبه إما بصير وإما بعلم».
- ٢- عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كل عين باكية يوم القيمة إلا ثلاثة أعين، عين غضت عن حمار الله أو عين سهرت في طاعة الله أو عين بكت في جوف الليل من خشية الله».

طائفة في ذم قسوة القلب وجمود العين:

- ١- جاء عن رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا علي! أربع خصال من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وبعد الأمل وحب البقاء».
- ٢- وجاء في المursal أنّ رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «من علامات الشقاء جمود العين وقساوة القلب وشدة الحرص في طلب الرزق والاصرار على الذنب».

طائفة في فضل كثرة البكاء من خشية الله:

- ١- قال أبو عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بكى يحيى بن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى ذهب لحم خديه من الدموع فوضع على العظم لبوداً يجري عليها الدموع، فقال له أبوه: يا بني إبني سأله تعالى أن يهلك لي لتقرّ عيني بك. فقال: يا أبا إنّ على نيران ربنا معاشر لا يجوزوها إلا البكاؤون من خشية الله عَزَّوجلَّ وأتخوف أنّ آتيها فأزل منها فبكى زكريا حتى غشي عليه من البكاء».
- ٢- وروي عن أمامنا الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «كان في وصية رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه قال: يا علي أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها ثم قال: اللهم أعنده وعد خصالاً والرابعة كثرة البكاء من خشية الله عزّ وجلّ يبني لك بكل دمعة ألف بيت في الجنة».

طائفة في البكاء وثوابه الجزيل:

١- ورد عن مولانا الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَهُ قَالَ: «إِنَّ لَمْ يَبْكِ الْبُكَاءُ فِتْنَكَ فَإِنْ خَرَجَ مِنْكَ مُثْلُ رَأْسِ الظَّبَابِ فَبَخْ بَخْ». (١)

٢- وكذلك جاء عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَى شَاباً مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ: إِنِّي أَرِيدُ أَنْ أَفْرَأَ عَلَيْكُمْ فَمَنْ بَكَى فَلَهُ الْجَنَّةُ، فَقَرَا أَخْرَ الزَّمْرَ **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا**^(٢) إِلَى أَخْرِ السُّورَةِ فَبَكَى الْقَوْمُ جَمِيعاً إِلَّا شَاباً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ تَبَاكَتِ فَمَا قَطَرْتَ عَيْنِي! قَالَ إِنِّي مَعِيدٌ عَلَيْكُمْ فَمَنْ تَبَاكَ فَلَهُ الْجَنَّةُ قَالَ: فَأَعْدَدْتُ عَلَيْهِمْ فَبَكَى الْقَوْمُ وَتَبَاكَى الْفَتَى فَدَخَلُوا الْجَنَّةَ جَمِيعاً^(٣).

البكاء في أدعية أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ^(٤)

في هذا الحقل قمت باستقصاء ألفاظ البكاء ونحوه (كالدموع والأنين والعبرة) في سبيل تغذية هذا البحث موضوعياً، وفي الواقع يكن للمتبحرين في الأدعية ملاحظة استعمالها لهذه الألفاظ بشكل واسع في أدعية أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وكلم تلك القبسات لتنير لنا درب التوبة والرجوع إلى الله تعالى:

طلب التوفيق للبكاء من هيبة الله:

«وَأَجِرْ اللَّهُمَّ لِهِبِّكَ مِنْ أَمَاقِي زَفَرَاتِ الدَّمْوَعِ». (٥)

أن يدع المؤمن بأن تجري دموعه من هيبة الله فهذا مما يدعوا للتأمل!

وأن تكون تلك الدموع تحمل آهه من الإنسان وزفرة ممدودة من نفسه بحرارة فهذا أيضاً يستدعي التفكير عن أهمية هذه الدموع! فهنا المؤمن وفي دعاء أول يومه "دعاء الصباح" يطلب التوفيق على أن يحظى بالبكاء من هيبة الله وخشيته. ولكن ماذا بعد هذه الدموع؟!

نعم هذا ما سيتضمن في الأسطر الآتية ولكن إجمالاً نقول إن خروج هذه

الدموع إنما هو بالإضافة إلى التوبة والرجوع إلى الله يعبر عن قلب مشغول بالله: عن قلب نال شيئاً من هيبة عظمة الحق تعالى.

فهذه الدموع في الحقيقة ليست منفصلة عن شعور قلب المؤمن بل إن حركة الدموع إنما تبدأ بذكر الله ودعائه ثم يستشعر القلب مدى عظمة الخالق وهيبته ومدى حقاره وجسارة معصيته وغفلته إلا أن تغسل هذه الدموع كل أدران هذا القلب بحيث تحجز العبد عن معاصي الله، فقد جاء عن مولانا الإمام زين العابدين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ في عِدَّةِ الدَّاعِيِّ: «لِيْسَ الْخَوْفُ خَوْفٌ مِنْ بَكَىٰ وَجَرَتْ دَمْوعَهُ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ وَرَعٍ يَحْجِزُهُ عَنْ مَعَاصِيِ اللَّهِ إِنَّمَا ذَلِكَ خَوْفٌ كَاذِبٌ»^(١٠).

إذاً البكاء الحقيقي والصادق يُعرف إذا تُرجم إلى الواقع العملي، بأن يبعد العبد عما يسخط الله ويقربه لما يحب الله.

البكاء في الدنيا خير من البكاء في الآخرة:
«لأي الأمور إليك أشكو، ولما منها أضج وأبكي، لأليم العذاب وشدته، أم لطول البلاء ومدته)، (ولأبكيك عليك بكاء الفاقدين)».

في دعاء كميل بن زياد رضوان الله تعالى عليه يصور لنا أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ مشهداً من مشاهد يوم القيمة، ومشهداً في الحقيقة من أخطر مواقف ذلك اليوم للإنسان الذي أدخل الجحيم بما اقترفت يديه "أعاذنا الله وإياكم من نظاها".

حيث يرتفع ضجيج ذلك العاصي وصراخه من أهواه، ولعل الإمام علي عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ لم ير تصويراً أفضل لبيان ذلك اليوم إلا بأن يشبه ذلك بكاء أهل جهنم ببكاء الفاقدين لعزيز أو مثل تلك الفاقدة لابنها، وهذا يعيش في الواقع مدى الحسرة والندامة الشديدة لما ارتكبه في دار الدنيا من الاستهتار بحرمة أحكام الله والتجرء على ساحته المقدسة.

والتعبير بالبكاء على الله «لأبكيك عليك» يحتاج إلى دقة نظر فلم يقل

الأمير عليه السلام على نفسي أو لجنتك أو مشابه فإنه بكاء الشوق لله فكما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «الحب أفضل من الحفو»^(١١) فإنّ بكاء المشتاقين أعلى درجة من الخائفين، وهل الدين إلا الحب، كما ورد عنهم عليهما السلام.

ومن ذلك نصل إلى معرفة الحديث الوارد عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام «كم من كثرة ضحكه لاعباً يكثر يوم القيمة بكاؤه، وكم من كثرة بكاؤه على ذنبه خائفاً يكثر يوم القيمة في الجنة سروره وضحكه»^(١٢).

كيف يكون البكاء سلاحاً؟

«أرحم من رأس ماله الرجاء، وسلامه البكاء».

نعم، كيف أصبح البكاء علامه لضعف الشخصية عند آخرين، وسبباً في زرع البوس والحزن عند البعض وعندها إلى سلاح للمؤمن!!

إنه لسؤال يدعونا إلى الوقوف والتفكير في حال ذاك الإنسان العاصي والغافل عن ذكر الله، ليس لديه عمل يتتكل عليه يوم الحساب، وليس لديه أي عذر ولا حجة لما اقترفه من ذنب في ملذات هذه الدنيا الفانية!! لم يبق له إلا سلاح واحد ليستجلب رحمة الله ويستعطف به رب الأرباب ويتنزّل بكل ما يمكن. نعم لم يبق لديه إلا أن يبكي وي بكى آملاً في أن ينال من أرحم الراحمين من العطف الودود رحمة تشمله.

ومن يريد أن يتصور هذا المنظر بأوضح صوره، يستطيع أن يستحضر في ذهنه ذلك الطفل الذي أثى بفعل يسخط أباه، بعد ذلك يسرع نحوه يبكي في أحظائه بلسان التوبة وعدم الرجوع. إلى ذلك فالبكاء مجلب لرحمة الله فعندما تقرأ في دعاء الجوشن الكبير ودعاء المشلول عبارة «يا راحم العبرات» تتضح إضافة الرحمة إلى العبرة ليست مجرد عن هذا المعنى.

من الذي يرى بكاء الخاشعين؟

«يا من يرى بكاء الخاقفين»

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا اقشعرَ جلدك ودمت عيناك ووجل قلبك فدونك فقد قصد قصتك»^(١٣) ولعل من أوضح معاني رؤية الله للباكيين هو قبول عملهم واستجابة أدعیتهم، وإنما تنم هذه الرؤية لرب العزة عن حبه إلى هؤلاء الذين أذابوا قلوبهم في سبيله، وفنوا أنفسهم في عشقه عز وجل. فالإمام عليه السلام في الحديث الشريف يبيّن أن قصد الداعي و حاجته يتحقق بمجرد أن تنهمل عيناه بالبكاء المحفوف بالخوف والرهبة من ربّه.

ولذا نقل عن آية الله الشيخ بهجت قده: "إِنْ لَمْ يَكُنْ فَالْبَاكِيُّ وَلَوْ قَلِيلًاً جَدًا، ثُمَّ أَطْلَبَ حَاجَتَكَ، إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَمْرَاتِ، أَيْ: الثَّنَاءُ وَالْتَّعْظِيمُ وَالْتَّمْجِيدُ وَالْعُتْرَافُ بِالذُّنُوبِ وَالصَّلَواتِ وَالبَكَاءُ أَوْ التَّبَاكِيُّ فِي حَالِ السُّجُودِ فَهَذَا أَفْضَلُ وَتَأْثِيرُ البَكَاءِ فِي هَذَا الْمَجَالِ كَبِيرٌ إِلَى درجة أَنَّهُ وَرَدَ فِي عَمَلِ أُمِّ دَاوُودِ وَكَذَلِكَ فِي قَوْتَ الْوَتَرِ عَنْهُ (إِنْ ذَلِكَ مِنْ عَلَمَةِ الإِجَابَةِ)"^(١٤) وقد ورد في إذن الدخول على الأئمة الأطهار عليهما السلام عن البكاء «فَهُوَ عَلَمَةُ الْقَبُولِ وَالْإِذْنِ»^(١٥) في مدرسة العارف آية الله الشيخ بهجت^(١)، والأية الكريمة في سورة الإسراء تعينا على هذا المعنى ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَدْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ حُشُوعًا﴾^(١٦).

الباكي حبيب الله:

«يا حبيب الباكيين».

عندما نقرأ ما قاله صادق المقصومين عليه السلام: «مَا مِنْ قَطْرَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَةٍ دَمَعَ فِي سَوَادِ اللَّيلِ يَقْطُرُهَا الْعَبْدُ خَفَافَةً مِنَ اللَّهِ لَا يَرِيدُ بِهَا غَيْرَهُ، وَ... أَلْخَ»^(١٧). يتضح لنا أنّ هذا الحب الإلهي للباكيين لم يأت من صرف هذه الدموع بل لأجل ذلك القلب الذي عصر بتوبة صادقة، حتى ذاق بها شيئاً من لقاء الله وطعم محبته، إضافة إلى

أن هذه الدموع تحمل معاني الخلوص التام، ولعل البكاء يحمل في خصوصياته - كما هو الحال في الصوم - أنه لا يخرج غالباً إلا عن إخلاص وقربة للمولى عزوجل. فحب الله للباكيين ليس بالمعجز الغريب بل هو المتوقع كما جاء عنهم صلوات الله عليهم: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَعْرِفَ كِيفَ مَنْزَلَتْهُ اللَّهُ فَلَيَنْظُرْ كِيفَ مَنْزَلَةُ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْزُلُ الْعَبْدَ مِنْ نَفْسِهِ حِيثُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنْ قَلْبِهِ»^(١٩). فحينما نقول في الدعاء «يا حبيب من تحبب إليه» أي تحبب الله وذكره كثيراً ذكرأً عملياً ولسانياً حتى أنكسر قلبه وصار من الذاكرين حقاً، فحينها -وكما ورد في زبور آل محمد «يا حبيب التائبين تب على» - يكون هذا العبد التائب الله مصداقاً واضحاً لمن أحبهم الله وإنما يكتشف العبد ذلك باللازمية على البكاء بكل ما يقترفه غافلاً في حق الساحة الإلهية المقدسة، وأن لا يتحول هذا البكاء إلى بكاء شيطاني يمر الشيطان فيه لأعيشه المختلفة فيكون بكاء أخيه النبي يوسف عليه السلام «وَجَاءَهُ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ»^(٢٠)، وكل على نفسه أبصر. أعاذنا الله من سيئات أعمالنا.

ما علاج قسوة القلب؟

«إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو قَلْبًا قَاسِيًّا مَعَ الْوَسَوْسَ مُتَقْلِبًا ... وَعِيْنًا عَنِ الْبَكَاءِ مِنْ خَوْفِكَ جَامِدَةً، وَإِلَى مَا يَسِّرُّهَا طَاحِةً».

قد يسأل سائل كيف لي التخلص من قسوة القلب والذي بسببه لا أتمكن من البكاء حال مناجاة الله! وهذا واضح من قول أمير المتقين عليه السلام: «ما جفت الدموع إلا لقصوة القلوب وما قست القلوب إلا لكثرة الذنب»^(٢١).

والإجابة عليه تتبيّن من فقرة الدعاء من مناجاة الشاكين بالإضافة إلى ما تبيّن من هذا الحديث الشريف أن العلة الكبرى هي كثرة الذنب. حيث لا شك في أن لقصوة هذا القلب درجات ومراتب، وقصوة القلب في المرتبة الشديدة تمثل

أسبابها بشكل واضح في كثرة الذنوب والتجربة على الحق تعالى، والمراتب الأخرى التي يبتلى بها المؤمن من قسوة القلب لها علاج آخر، فبالإضافة إلى هجران الذنوب يستطيع المؤمن أن يشكوا الله قسوة قلبه ويتولى بالله الله (وأتولى بك إلينك) ليحظى بأسباب رحمته بعد أن يتمكن من تخلية نفسه وغسلها بدموعه. لأنَّ المولى عز وجل هو المتصرف بكلونات قلوبنا بلا ريب، وهذا معنى دعاء «يا مقلب القلوب والأوصار حُولَّ حالنا لأحسن حال».

ولكن قد يقال: عندما يلاحظ المتتبع للتاريخ بعض مواقف الملوك والسلطانين الذين أوغلوا في الذنوب والمعاصي وبعد عن الله، يجد نفسه متعجبًا من تأثر هؤلاء وبكاءهم في أخرى! مما معنى أن يبكي عمر بن سعد لعن الله وما معنى أن تخصل لحية الخليفة العباسى المعتصم لعن الله بالدموع جرأه سماعه لقصيدة الإمام الهادى عاشقًا حول الموت وعداب القبر؟ وما معنى بكاء معاوية لعن الله من ذكر خصال أمير المؤمنين عاشقًا وتقواه من بعض أصحابه! نعم ما معنى كل ذلك ونحن نعلم أن جفاف الدموع هو نابع من قسوة القلوب الدال على كثرة الذنوب، ألا يعني بكاء هؤلاء خلاف ذلك؟

هناك عدة إجابات متصورة:

أولها: أنَّ الشيطان يبيت إلى هؤلاء أن يبكون ليخطفهم على أنهم على الحق أو يسد تلك الحاجة الطبيعية للإنسان في البكاء.

وثانيها: أن نصيحة الإمام المعصوم عاشقًا وكلماته القدسية لها تأثير حتى على القلوب المتسخة فيحرق كلامهم كل الحجب التي رانت على قلوب العاصين.

إضافة إلى ما سبق من كلام الإمام السجاد عاشقًا حيث يوضح قسمين من البكاء، أوله بكاء يمحى عن معصية الله، وأخر بكاء كاذب لا يمحى الباكى عن معصية الله. «ليس الخوف خوف من بكى وجرت دموعه ما لم يكن له ورع يمحى عن

معاصي الله وإنما ذلك خوف كاذب»^(٢٢).

عادة البكاء من شأن المؤمنين:

«اللهم اجعلنا من دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفة والأنين، جباهم ساجدة لعظمتك وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك».

فرق بين أن يوفق الإنسان للحنين لمخاطبة الله ومناجاته في هذه الليلة أو في تلك الساعة، وبين أن يكون البكاء (أداءً) وعادة وشأنًا ملازما له، وهكذا يكون زمانهم وعادتهم البكاء والأنين بشدة ويترافق معه الألم والمحسنة في نفس المؤمن. فالإمام عليه السلام في هذه الفقرة من مناجاة الحسين يغذينا ويزرع في نفوسنا صفات المتدين الحقيقة في صلاتهم ومناجاتهم ودعائهم وفي كل دائرة من دوائر العلاقة مع الله عز وجل. فالبكاء كما سبق ليس بكاء صرفاً وإنما يعبر عن قلب حاضرٍ ونيةٍ صادقةٍ وحب متوجذر للحبيب تعالى.

لذلك عُدّ أنَّ جمود العين من علامات الشقاء، كما سبق في حقل الروايات الشريفة، ولو أمعنا النظر في خطبة المتدين لأميرهم عليه السلام على مسامع همام لوجدنا هذه الإشارات واضحة كما وردت في نهج البلاغة.

ما الذي يدعوني للبكاء؟!

«أعني بالبكاء على نفسي فقد أفتئت بالتسويف والآمال عمري ومالي لا أبكي ولا أدرى إلى ما يكون مصيرني، وأرى نفسي تخادعني وأيامي تخاتلي وقد خفت عند رأسى أجنحة الموت فمالي لا أبكي، أبكي لخروج نفسي أبكي لظلمة قبرى أبكي لضيق لحدى...».

الإنسان ينظر من حوله كل شيء يدعوه للبكاء على نفسه من خشية الله فمنها:

- المصير المجهول الذي ستقف أنفاسه عليه، فهل هو من أهل النعيم أم

والعياذ بالله من أهل الجحيم! فليس لديه يقين بالثبات على نهج المتقين وأخلاقهم، فالمؤمن دائم النّظر إلى خواتيم أعماله وأنفاسه، هل ستكون تلك الساعة في صالحه أم عليه، لما ينظر من تقلب الزّمان وأهله!! لذا كل ذلك يحتاج إلى ارتباط قلبي دائم بالله واستنزال لعونه ولطفه بالدموع والآنين.

- أهواء النّفس وخداعها المستمر للإنسان يجعله عرضة للغفلة واتّباع ملذات هذه الفانية، وتُزيف له الحقائق فيصبح الحق باطلًا والباطل حقاً، وشرور النّفس لا حد لها، فمتي يكن للإنسان إن يلجم هذه النّفس؟ حينما يستعين بالله ويتوكل على الله ويطلب السداد من الله ويبكي على حاله وغفلته ويتملق الله تعالى ويشتكي على نفسه الآمرة ببكاء وعويل، والله بحكم رحمته مستحيل أن يهمل هذا العبد اللاجيء إليه.

- قرب السفر الأخرى مع قلة الزاد له يجعل المؤمن في حيرة من أمره، حاملاً هموم ذلك اليوم الذي يذهب بنفسه مجرداً، وهذا أكبر داع بأن يجعل الإنسان يبكي كحالة طبيعية وكوسيلة يتوجه بها إلى الله أن يعينه على قلة الزاد وبُعد الطريق.

- أحوال ما بعد الموت فلحظات خروج هذه الروح مع ضعف الإنسان وقلة حيلته، وحالات القبر وظلماته، ومساءلة منكر ونكير وعظمتها شيء كبير على هذا الإنسان كيف بن شغلته هذه الدنيا وغرته وابتعد عن مراتب الله! حقاً يحتاج أن يرجع ويعلن التوبة لله تعالى ببكاء معلنًا ضعفه طالباً مغفرة الله. فحينما نسمع أنَّ "الإمام الحسن الزكي عَلَيْهِ الْكَلَمَاتُ" وهو الإمام المعصوم عندما يلفظ أنفاسه الأخيرة يبكي، فيقال له: يا بن رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمَاتُ أتبكي ومكانك من رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمَاتُ الذي أنت به! قد قال فيك رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمَاتُ ما قال!، وقد حججت عشرين حجة ماشيًا! وقد قاسمت ربك مالك ثلات مرات حتى النعل والنعل! فقال عَلَيْهِ الْكَلَمَاتُ

«إنما أبكي لخلتين: هول المطلع، وفرق الأحياء» فالإمام الزكي عليه السلام يبكي هول المطلع إذا تذكر تلك الأهوال الخطيرة وتلك الظلمات المتتابعة التي تمر على النفس^(٢٣).

البكاء على آلام صاحب العصر وأحزانه وخيبته!!

«عزيز عليّ أن أبكيك ويخذلك الورى عزيز عليّ أن يجري عليك دونهم ما جرى هل من معين فأطيل معه العويل والبكاء، هل من جزوع فأساعد جزعه إذا خلا».

دعاة الندبة من بين الأدعية له سمة خاصة يتميز بها، فالمؤمن في هذا الدعاء

يناجي ربه ويدعوه مُبدياً تحسره ومدى الألم الشديد الذي يعانيه السالك لله مع غياب الهدى للبرية وبقية الله في أرضه القائم المنتظر عليه السلام.

وفي الحقيقة هذه الفقرات وبعض فقرات هذا الدعاء المبارك تفرض الحالة البدئية التي يجب أن تكون عليها، وهي حالة البكاء والحزن الصادر عن ألم واستشعارٍ لصائب صاحب العصر والزمان عليه السلام أما حالة الغفلة والانتظار الخالي من الاستشعار بوجود الإمام عليه السلام بيننا هي حالة لا تتحمل إلا معنى البُعد وشبه القطيعة في إطار علاقنا بإمام زماننا عليه السلام.

والبكاء بل العويل على فقد وغياب بقية الله عليه السلام هي الأثر الطبيعي للعلاقة الرصينة بين المؤمن وحجة الله على أرضه.

ومن يدعوا الله أو يصلّي أو يتصدق ويغفل عن مكانة وموقعية الإمام عليه السلام من قيامه وصومه، فإنه يعيش في حالةٍ من الفوضى للأسف الشديد. فكيف بنا ونحن نريد أن نبني علاقتنا بالله من دون التّوسل والدخول من بوابة الإمام المعصوم المفترض الطاعة، وما عرض أعمالنا بشكل دائم على الصاحب عليه السلام إلا جزءٌ يسير من تلك الموقعة من الأعمال.

وفقرة الدعاء المذكورة أعلاه تترقّى من البكاء إلى العويل والجزع، فإن لم

نكن من المجازعين أو المعولين على مصائب وآلام صاحب العصر والزمان فلننبعي عليه بكاءً صادقاً يجعلنا من العاملين على ظهوره، ومن المعمرين لدولته. فالبكاء عليه عليه لا معنى له إلا أن يجعل قلب المؤمن مركزاً هموم المبكي عليه ومنطلقاً عملياً لتحقيق رضاه.

البكاء على مصائب أهل البيت الطريق الأسرع لله!

«فعلى الأطائين من أهل بيته محمد وعلى فلييك الباكون وإياهم فليندب النادبون ولثلهم فلتذرف الدموع ولি�صرخ الصارخون... أين الحسن أين الحسين».

إضافة إلى العبرة المرحومة التي وردت في زيارة أمين الله «وعبرة من بكى من خوفك مرحومة»، فإن هذا المقطع من دعاء التندبة يشير إلى عبرة أخرى بل يأمر بأن يجهش المؤمن بالبكاء ويندب بالصريح من أجل مصائب أهل بيته عليهما السلام الذين تفانوا من أجل هذا الدين وختموا حياتهم بين القتل والسم.

وقد يتسائل المؤمن ماذا يمثل هذا الأمر بأن يأني في طيّات الدّعاء وما الغاية منه؟! ولذلك عدة إشارات: أولها ما أفاده أحد المؤمنين أنّ البكاء على أهل البيت عليهما السلام له الأثر البالغ في ذهاب قساوة القلب وتخليله من الآفات، فإنّ من يبكي على أهل البيت عليهما السلام يبكي على المظلوم ضد الظالم، يبكي على حزب الله ضد حزب الشيطان، فلذا يميل قلبه للحق والخير وتذهب كل النكات السوداوات من قلبه.

وبالخصوص البكاء على الحسين الشهيد عليهما السلام فإنّ البكاء عليه يغسل قلب الباكي كلّما جرت تلك الدموع، وبذلك تتضح كيف أنّ «سفينة الحسين أوسع وأسرع» لأنّ البكاء هذا وما ورد من آثاره الكبرى وثوابه العظيم لعله يشير أيضاً لأنّه في قلب هذا العاصي بأن يظهره من كل آفات العاصي والآثام، ويجعل هذا القلب مستعداً لاستقبال الصالحات والنّدم على ما فات، نعم يهيئه للتوبة

والرجوع إلى الله تعالى. ولعل كون شهر المحرم من أول شهور السنة، من ألطاف الله تعالى علينا، بأن تغسل تلك الدّموع الجارية على مصائب أبي عبدالله الحسين عليهما السلام في كل سنة وتهيئه للتوبة المتتجدة.

وثانيها أنه لا غرابة لكون أهل البيت عليهما السلام هم عين الله وبابه الذي يؤتى منه «ومساكن بركة الله ومعادن حكمة الله حفظة سر الله وحملة كتاب الله وأوصياء نبي الله»زيارة الجمعة، وما قتلته الولاية من ركيزة أساسية في أصول الدين. أضف إلى ذلك فإن البكاء على أئمة الهدى يمثل أقوى مظهر في التوّلي والحب والذي ينعكس بعد ذلك عملياً في كل علاقات هذا القلب الطولية والعرضية وتجلي في البعد عن كل ما يسخط المحبوب والتقارب لكل ما يرضيه.

أخيراً في الاقتداء:

حرى بنا أن نقف على ما ورد من موافق البكاء العديدة من حياة المعصومين عليهما السلام والأولياء الصالحين عليهم السلام في كتب ومصادر التاريخ فإنّها تحمل في طياتها إشارات مهمة تضيء لنا ظلمات هذه الدنيا الفانية، لنسنلهم الكثير من الدروس التي تعيننا على مواصلة درب الهدى وسلوك طريق الرضوان. فلا يمكن أن نعي هذه الحياة ولا هذه العبادات من غير أن نقتفي آثارهم ونخطوا خطفهم ونسلم لأمرهم، إذ لا معنى للتسليم والحب والولاء من دون أن يتبعه اقتداء واقتفاء لآثار المحبوب. أعناننا الله على البكاء على أنفسنا وغفلتنا وتقصيرنا تجاه ساحة المولى العظيم.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًّا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ أَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفُّ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَئْمَارِ﴾^(٢٤).

الهوامش:

(١) صحاح الجوهرى ج ٦ ص ٢٢٨٤



- (٢) متفرقات من الشبكة العنكبوبية.
- (٣) الأحزاب :٤.
- (٤) صحاح الجوهري ج ٦ ص ٢٣٣٦ بتصرف طلباً للاختصار.
- (٥) الاصطلاح من كتاب "عدة الداعي" بتوثيق مؤسسة الدعاء العالمية على موقعها الإلكتروني.
- (٦) الاعتقادات للمجلسى: ٤١.
- (٧) الزمر: ٧١.
- (٨) مصادر جميع طوائف الأحاديث: بحار الأنوار: كتاب القرآن والذكر والدعاء/باب ١٩ فضل البكاء وذمة جمود العين ص ٣٥٤-٣٥٠.
- (٩) لقد اعتمدت على مفاتيح الجنان لاستقصاء موارد لفظ (البكاء) في الأدعية، ولم أؤسع البحث في مجاميع الأدعية الأخرى، وربما يكون هذا أنساب لتواضع البحث، والله خير معين.
- (١٠) بحار الأنوار: كتاب القرآن والذكر والدعاء/باب ١٩ فضل البكاء وذمة جمود العين ص ٣٥٣.
- (١١) الكافي ج ٨/ص ١٢٨.
- (١٢) بحار الأنوار: كتاب القرآن والذكر والدعاء/باب ١٩ فضل البكاء وذمة جمود العين ص ٣٥٠.
- (١٣) الكافي: ج ٢، ص ٤٧٨.
- (١٤) إقبال الأعمال: ٦٦٣.
- (١٥) البلد الامين: ٢٧٥.
- (١٦) مدرسة العارف، ج ١، ص ٨٢.
- (١٧) الإسراء: ١٠٩.
- (١٨) بحار الأنوار: كتاب القرآن والذكر والدعاء/باب ١٩ فضل البكاء وذمة جمود العين ص ٣٥٠.
- (١٩) عدة الداعي: ١٦٧.
- (٢٠) يوسف: ١٦.
- (٢١) بحار الأنوار: ٥٥/٧٠.
- (٢٢) بحار الأنوار: كتاب القرآن والذكر والدعاء/باب ١٩ فضل البكاء وذمة جمود العين ص ٣٥٠.
- (٢٣) في ظلال دعاء الافتتاح سماحة العلامة السيد منير الخباز / ط ١ / مكتبة فدك / ص ٣٨.
- (٢٤) آل عمران: ١٩٣.



بحث مختصر حول ليلة القدر

اشيخ عزيز حسن الخزان

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾. تكفي هذه الآيات المباركة في بيان فضل ليلة القدر، وما تحمله من أهمية عظيمة عند الباري عزوجل، ولذلك لا تحيي ليلةً طوال العام كما تحيي هذه الليلة، وفيها تتوارد كل فئات المجتمع، رجالاً ونساء، صغاراً وكباراً، فقراء وأغنياء، الكل يتربص بهذه الليلة، والسعيد والمخطوف من وفق لإحيائها، وعن أبي عبد الله عاشور عليه السلام عن أبيه صلوات الله عليهما قال: «قال

رسول الله ﷺ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ اخْتَارَ مِنَ الْأَيَّامِ الْجُمُعَةَ، وَمِنَ الشَّهُورِ شَهْرُ رَمَضَانَ، وَمِنَ الْلَّيَالِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَاخْتَارَنِي عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ، وَاخْتَارَ مِنِّي عَلَيْهِ، وَفَضَّلَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَوْصِيَاءِ، وَاخْتَارَ مِنْ عَلَيِّ الْمُحْسِنِ وَالْمُحْسِنِ، وَاخْتَارَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الْأَوْصِيَاءِ مِنْ وَلَدِهِ، يَنْفُونَ عَنِ التَّنْزِيلِ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَاتِّحَالِ الْمُبْطَلِينَ، وَتَأْوِيلِ الْمُضْلِلِينَ، تَاسِعُهُمْ قَاتِلُهُمْ وَ(هُوَ) ظَاهِرُهُمْ وَهُوَ باطِنُهُمْ^(١).

نخاول في هذه المقالة معرفة بعض الجوانب المتعلقة بهذه الليلة، والكلام في أمور عديدة:

الأمر الأول: ما هي ليلة القدر؟

هي الليلة التي أنزل فيها أشرف الكتب السماوية على أشرف الملائقة أجمعين، بواسطة أشرف الملائكة عليهما السلام: «وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ»^(٢)، «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذَرِينَ»^(٣)، فـأيّ عظمة تحملها هذه الليلة، وظاهر الآية الثانية كون هذه الليلة مباركة في حدّ نفسها، ولذلك اختيرت لنزول القرآن فيها، لا أنها إنما صارت مباركة بعد النزول.

ويقول صاحب الميزان رحمه الله: "والظاهر أنّ المراد بالقدر التقدير فهي ليلة التقدير يقدّر الله فيها حوادث السنة من الليلة إلى مثلها من قابل"^(٤).

وهذا هو الوارد عن إمامنا الباقر عليهما السلام حيث يقول: "يُقدّر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل، خير وشر، وطاعة ومعصية، ومولود وأجل أو رزق، مما قدر في تلك السنة وقضى فهو الختوم، والله عزّ وجلّ فيه المشيئة"^(٥).

الأمر الثاني: الآراء في تحديد ليلة القدر المباركة؟

أغلب الروايات لم تحدد ليلة القدر، وإنما رددتها بين عدة ليالي، والقدر المتفق منه هو كونها في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك، وأنّها ليلة إفراد، يقول

الشيخ الطوسي رحمه الله: «ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان بلا خلاف، وهي ليلة الإفراد بلا خلاف. وقال أصحابنا هي إحدى الليلتين؛ إما ليلة إحدى وعشرين أو ثلثاً وعشرين، وجوز قومٌ أن يكون سائر ليالي الإفراد إحدى وعشرين وثلاثة وعشرين، وخمس وعشرين، وسبعين وعشرين وسعين وعشرين»^(٦)، وبعض الروايات ذكرت أيضاً ليلة التاسع عشر.

وكثير من الروايات رددتها بين ليلة إحدى وعشرين وثلاثة وعشرين، فعن حسان بن مهران، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سألته، عن ليلة القدر فقال: التمسها ليلة إحدى، وعشرين وليلة ثلاثة وعشرين»^(٧).

ولكن الشيخ الصدوق رحمه الله نقل الاتفاق على أنها ليلة الثالث والعشرين^(٨)، وهذا ما يمكن الركون إليه من خلال مجموعة من الروايات، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «ليلة ثلاثة وعشرين، الليلة التي يفرق فيها كلُّ أمر حكيم، وفيها يكتب وفـد الحاج، وما يكون من السنة إلى السنة»^(٩).

وروى الصدوق في الفقيه عن زرارة عن أحد همـا عليه السلام قال: «سألته عن الليالي التي يستحب فيها الغسل في شهر رمضان؟ فقال: ليلة تسعة عشرة، وليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاثة وعشرين، وقال: ليلة ثلاثة وعشرين هي ليلة الجهني، وحديثه أنه قال لرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلام: إنَّ منزلي ناء عن المدينة، فأمره بليلة ثلاثة وعشرين»، قال مصنف هذا الكتاب رحمه الله: «اسم الجهني عبد الله بن أنيس الأنصاري»^(١٠).

وبعض الروايات تجمع بين الليالي الثلاث فتعطي كلَّ ليلة وظيفة معينة، وكأنَّ الليلتين التاسعة عشر والواحدة والعشرين مهدتان للليلة القدر التي هي الثالث والعشرون، فعن زرارة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «التقدير في ليلة تسعة عشرة، والإبرام في ليلة إحدى وعشرين، والإمضاء في ليلة ثلاثة وعشرين»^(١١).

وأما عن رأي العامة فقد قال العلامة الطباطبائي في الميزان: «وأما من طرق

أهل السنة فقد اختلفت الروايات اختلافاً عجيباً يكاد لا يضبوط، والمعروف عندهم أنها ليلة سبع وعشرون فيها نزلت القرآن، ومن أراد الحصول عليها فليراجع الدر المنثور وسائل الجواب (١٢).

الأمر الثالث: لماذا إخفاؤها؟

من الواضح لمن يقرأ الروايات المتعددة في ليلة القدر أنّ هناك تعمداً في إخفائها عن الناس، وتزديدها بين عدّة ليالي، ونذكر هنا بعض الروايات:

١- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نزلت التوراة في ست ممضت من شهر رمضان، ونزل الإنجيل في اثنى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان، ونزل الزبور في ليلة ثانية عشرة مضت من شهر رمضان، ونزل القرآن في ليلة القدر» (١٣).

نجد هنا الإمام علي عليه السلام يعين الليلة التي نزل فيها كلُّ كتاب سماويٍّ، ولكن عندما يصل إلى ليلة القدر يسكت عنها، ويكتفي بذكر أنها نزلت في (ليلة القدر).

٢- عن زرارة عن أبي جعفر عليهما السلام قال: «سألته عن ليلة القدر قال: هي ليلة إحدى وعشرين، أو ثلاط وعشرين، قلت: أليس إنما هي ليلة؟ قال بلـى، قلت: فأخبرني بها فقال: وما عليك أن تفعل خيراً في ليلتين» (١٤). فرغم إصرار زرارة (وما أدرك ما زرارة)، لم يحدد له الإمام علي عليه السلام ليلة القدر.

٣- في احتجاج للإمام الحسن عليه السلام مع معاوية: «فقال معاوية: يا أبو محمد أخبرنا عن ليلة القدر، قال: نعم عن مثل هذا فاسأـلـ، إن الله خلق السماوات سبعاً والأرضين سبعاً والجن من سبع والإنس من سبع فتطلب من ليلة ثلاط وعشرين إلى ليلة سبع وعشرين، ثم نهض عليه السلام» (١٥).

ولا يستطيع أحد غير المعصوم عليه السلام أن يجزم بليلة القدر، نعم قد يحصل ظنُّ قوي أو اطمئنان بها، فيأتي السؤال: لماذا أخفيت ليلة القدر عن الناس مع الحث على إحيائها لما لها من عظمة عند الله تعالى؟ وبعبارة أخرى، مع حث الشارع



على ضرورة إحيائها وعدم تفوتها يغيبها عن الناس، كيف الجمع بين هذين الأمرين؟

والجواب أولاً: وردت روايات عدة يمكن استفاده بعض العلل والحكم من

عدم تحديد ليلة القدر:

منها: ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام: أنه قال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا انْصَرَفَ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَسَارَ إِلَيْهِ مِنْيَةً، دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَقَامَ عَلَيْهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَطِيئًا قَوْلًا بَعْدَ الشَّاءِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: أَمَا بَعْدَ فَإِنَّكُمْ سَأَلْتُمُنِي عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَلَمْ أُطْهِرْهَا عَنْكُمْ لَا أَكُونُ بِهَا عَالِمًا، أَعْلَمُوا أَيْمَانَ النَّاسِ: أَنَّهُ مَنْ وَرَدَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ، وَهُوَ صَحِيحُ سُوءِ، فَصَامَ نَهَارَهُ، وَقَامَ وَرَدًا مِنْ لَيْلَهُ، وَوَاظَّبَ عَلَى صَلَاتِهِ، وَهَجَرَ إِلَى جَمَعَتِهِ، وَغَدَ إِلَى عِيَدِهِ، فَقَدْ أَدْرَكَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَفَازَ بِجَائِزَةِ الرَّبِّ. قَالَ أَبُو عَبدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَازَ وَاللَّهِ بِجَوَائزِ لِيَسْتَ كَجَوَائزِ الْعِبَادِ»^(١).

ومنها: ما رواه الكليني عن علي بن أبي حمزة الثمالي قال: «كنت عند أبي عبد الله علية السلام فقال له أبو بصير: جعلت فداك الليلة التي يرجى فيها ما يرجى؟ فقال: في إحدى وعشرين أو ثلاثة وعشرين قال: فإن لم أقو على كلتيهما؟ فقال: ما أيسر ليتين فيما تطلب قلت: فربمارأينا الهلال عندنا وجاءنا من يخبرنا بخلاف ذلك من أرض أخرى فقال: ما أيسر أربع ليال تطلبها فيها قلت: جعلت فداك ليلة ثلاثة وعشرين ليلة المجهني؟ فقال: إن ذلك ليقال، قلت: جعلت فداك إن سليمان بن خالد روى في تسع عشرة يكتب وفد الحاج، فقال لي: يا أبا محمد، وقد الحاج يكتب في ليلة القدر والمنايا والبلايا والأرزاق وما يكون إلى مثلها في قابل، فاطلبها في ليلة إحدى وعشرين وثلاث وعشرين، وصل في كل واحدة منها مائة ركعة، وأحيهما إن استطعت إلى النور، واغتنسل فيهما، قال: قلت: فإن لم أقدر على ذلك وأنا قائم؟ قال: فصل وأنت جالس، قلت: فإن لم أستطع؟ قال: فعلى فراشك، لا عليك أن تكتحل أول الليل بشيء من النوم، إن أبواب السماء تفتح في رمضان، وتصعد

الشياطين، وتقبل أعمال المؤمنين، نعم الشهر رمضان كان يسمى على عهد رسول الله ﷺ **المرزوق**^(١٧).

وهنا يصر الإمام عثيمين على عدم تعيين ليلة القدر، والظاهر أن الحكم هو أن يقوم العبد في أكثر من ليلة، وهذا ما ذكر في رواية أخرى نقلها المجلسي عن ابن أبي حميد عن ابن عرادة قال: «قيل لأمير المؤمنين عثيمين: أخبرنا عن ليلة القدر؟ قال: ما أخلو من أن أكون أعلمها فأستر علمها، ولست أشك أن الله إنما يسترها عنكم نظراً لكم، لأنكم لو أعلمكموها عملتم فيها وتركتم غيرها، وأرجو أن لا تخطئكم إن شاء الله»^(١٨).

وهذا المعنى ذكره الشيخ الطوسي قائل في تفسيره حيث قال: «إنما لم تعيّن هذه الليلة ليتوفّر العباد على العمل في سائر الليالي»^(١٩).

ولعل هذا ما قصده الشيخ ناصر مكارم شيراز في تفسيره حيث قال: "الاعتقاد السائد أن اختفاء ليلة القدر بين ليالي السنة، أو بين ليالي شهر رمضان المبارك يعود إلى توجيه الناس إلى الاهتمام بجميع هذه الليالي، مثلاً أخفى رضاه بين أنواع الطاعات كي يتوجه الناس إلى جميع الطاعات، وأخفى غضبه بين المعاصي، كي يتوجّب العباد جميعها، وأخفى أحباءه بين الناس كي يحترم كل الناس، وأخفى الإجابة بين الأدعية لتقرأ كل الأدعية، وأخفى الاسم الأعظم بين أسمائه كي تعظم كل أسمائه، وأخفى وقت الموت كي يكون الناس دائماً على استعداد. ويبدو أن هذا دليل مقبول»^(٢٠).

ثانياً: ذكر العلامة الطباطبائي قائل وجها آخر فقال: «إنما لم يعين تعظيمأ لأمرها أن لا يستهان بها بارتكاب المعاصي»^(٢١).

وثالثاً: لا شك في أن إدراك الثواب يحتاج إلى جهد، فيحتمل أن الشارع المقدّس يريد امتحان المؤمنين في جدهم وحرصهم على إدراك هذه الليلة، وأماماً

غير المهم يادرها فلا يستحق أن يعطي فضلها وثوابها، فتكون ليلة القدر حينئذ خاصةً بالمؤمنين المجتهدين في طلبها، والله العالم بحقائق الأمور.

الأمر الرابع: هل توجد مثل ليلة القدر في غير هذه الأمة؟

قال صاحب تفسير الأمثل للطهري: "رويات متعددة تصرّح أنّ هذه الليلة من المawahب الإلهية على هذه الأمة، وعن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ وَهُبَّ لِأَمْتَى لَيْلَةَ الْقَدْرِ لَمْ يَعْطِهَا مِنْ كَانَ قَبْلَهُمْ»^(٢٢). وفي تفسير الآيات التي نحن بصددها روايات تؤيد ذلك أيضاً"^(٢٣).

أقول: الرواية المذكورة مروية من طرق العامة، مع أنه قد يكون المراد منها هو معرفتهم بها، لا أنها غير موجودة أصلاً، فالآية المرحومة اختصّها الله تعالى بمعونة ليلة القدر ولو إجمالاً، دون الأمم السابقة.

ويؤيد هذا الأمر أنَّ ظاهر الآيات التي تتكلّم عن ليلة القدر كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَّةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾^(٤)، هو أنَّ الله تعالى اختار أفضل ليلة لتوزيل القرآن الكريم، وهذا يقتضي وجودها سابقاً، لا أنه بنزول القرآن وجدت ليلة القدر.

وقد نقل الطبرسي في تفسيره، والمجلسى في بحاره، عن أبي ذر رض أنه قال: «قلت: يا رسول الله ليلة القدر شيءٌ يكون على عهد الأنبياء ينزل فيها عليهم الأمر فإذا مروا رفعت؟ قال: لا، بل هي إلى يوم القيمة»^(٥).

وهنا لم ينفِ النبي ﷺ ما ذكره أبو ذر من وجود ليلة القدر عند الأنبياء السابقين، بل نفى ارتفاعها برحيلهم، بل ظاهرها أنَّ أبا ذر كان مُسلماً عنده وجود ليلة القدر في زمن الأنبياء عليهما السلام، وإنما شكُّه في التفاصيل، والله العالم.

وأوضح من ذلك ما رواه الكليني عن أبي جعفر الباقر عليه السلام حيث قال: «وأيم الله لقد نزل الروح والملائكة بالأمر في ليلة القدر على آدم، وأيم الله ما مات آدم إلا وله

وصي، وكل من بعد آدم من الأنبياء قد أتاه الأمر فيها، ووضع لوصيه من بعده، وأيم الله إن كان النبي ليؤمر فيما يأتيه، من الأمر في تلك الليلة من آدم إلى محمد عليهما السلام أن أوص إلى فلان»^(٢).

الأمر الخامس: إحياء ليلة القدر

ليلة بهذه العظمة لا بد أن يُحيث على إحياءها، ولا بد من أن يكون أئمة الهدى عليهما السلام وأحرصهم على ذلك، كيف لا وهم يحيون الليل طوال السنة فكيف بأفضل ليلة؟

هناك روایات كثيرة تؤكد على إحياء هذه الليلة المباركة، منها: عن الإمام أبي جعفر الباقر عليهما السلام قال: «من أحى ليلة القدر غرفت له ذنوبه ولو كانت عدد نجوم السماء ومتآقيل الجبال ومكائيل البحار»^(٢٧). وعن الإمام أبي الحسن الكاظم عليهما السلام: «من اغتنسل ليلة القدر وأحياها إلى طلوع الفجر خرج من ذنبه»^(٢٨).

وفي مضمرة سعادة بن مهران قال: سأله: «...وفي ليلة إحدى وعشرين وثلاث وعشرين يصلّي في كل واحدة منها إذا قوي على ذلك مائة ركعة سوى هذه الثلاثة عشرة ركعة، وليس لها حتى يصبح، فإن ذلك يستحب أن يكون في صلاة ودعاة وتضرع، فإنه يرجى أن يكون ليلة القدر في إحداها»^(٢٩).

وتقدم قول الإمام الصادق عليهما السلام لأبي بصير: «يا أبا محمد... وصل في كل واحدة منها مائة ركعة، وأحیهما إن استطعت إلى النور، واغتنس فيهما، قال: قلت: فإن لم أقدر على ذلك وأنا قائم؟ قال: فصل وأنت جالس، قلت: فإن لم أستطع؟ قال: فعلى فراشك، لا عليك أن تكحل أول الليل بشيء من النوم، إن أبواب السماء تفتح في رمضان، وتصفد الشياطين، وتقبل أعمال المؤمنين، نعم الشهر رمضان كان يسمى على عهد رسول الله عليهما السلام المرزوق».

ويظهر من هذه الرواية أن استحباب الإحياء يبدأ من أول الليل إلى مطلع

الفجر، ولكن إذا لم يتمكن من ذلك، فالأفضل هو إحياء القسم الأخير من الليل، وهذا لعله ليس مختصاً بشهر رمضان، فصلاة الليل مثلاً كلما أديت قرب الفجر كان أفضلاً. وأمّا ما هي الأعمال التي تحيي فيمكن مراجعة مفاتيح الجنان للمحدث القمي رحمه الله.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام عن آبائه: «أنّ رسول الله عليه السلام نهى أن يغفل عن ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلات وعشرين، أو ينام أحد تلك الليلة»^(٣٠).

وفي كتاب فقه الرضا عليه السلام (المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام): «وإن استطعت أن تحيي هاتين الليلتين إلى الصبح فافعل، فإنّ فيها فضل كثير، والنجاة من النار، وليس سهر ليلتين يكابر فيما أنت تومل. وقد روي: أنّ السهر في شهر رمضان في ثلاثة ليال: ليلة تسعه عشر في تسبيح ودعاء بغير صلاة، وفي هاتين الليلتين أكثروا من ذكر الله جل وعز، والصلوة على رسول الله عليه السلام وسلم، وفي ليلة الفطر»^(٣١).

الأمر السادس: كيف كانت تحيي ليلة القدر في عصر المعصومين عليهم السلام؟

لم تسعفنا المصادر لمعرفة ما كان يقوم به أئمة أهل البيت عليهم السلام في ليلة القدر، ولكن من خلال ما ورد عنهم من الحديث على أعمال معينة يمكن استفادتها أنهم يقومون بذلك، كصلاة مائة ركعة، وقراءة بعض السور الخاصة، والدعاة والتضرع وما شاكل.

نعم هناك بعض الروايات تشير إلى شيء من ذلك، فقد ذكر في دعائم الإسلام عن علي صلوات الله عليه: «أنّ رسول الله عليه السلام كان يطوى فراشه ويشدّ مترره في العشر الأواخر من شهر رمضان. وكان يوقظ أهله ليلة ثلات وعشرين، وكان يرشُّ وجوه النّيام بالماء في تلك الليلة. وكانت فاطمة عليها السلام لا تدع أحداً من أهله ينام تلك الليلة، وتداویهم بقلة الطعام وتتأهّب لها من التّهار، وتقول: محروم من حرم خيرها»^(٣٢).

وعن الفضيل بن يسار: "كان أبو جعفر عليه السلام إذا كانت ليلة إحدى وعشرين وليلة ثلاثة وعشرين أخذ في الدعاء حتى يزول الليل، فإذا ذال الليل صلى"^(٣٣). وظاهر الرواية استمرار الإمام عليه السلام على هذا الأمر في كلّ عام، وأنه كان ينظر من أصحابه عليهم السلام، وليس في مكان خاصّ.

وعن محمد بن أحمد بن مطهر: «أنه كتب إلى أبي محمد عليه السلام يخبره بما جاءت به الرواية: أن النبي عليه السلام كان يصلّي في شهر رمضان وغيره من الليل ثلاث عشرة ركعة، منها الوتر وركعتا الفجر، فكتب عليه السلام: فض الله فاه، صلّى من شهر رمضان في عشرين ليلة؛ كل ليلة عشرين ركعة ثانية بعد المغرب، واثني عشرة بعد العشاء الآخرة، واغتسل ليلة تسع عشرة، وليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاثة وعشرين، وصلّى فيما ثلاثة ركعة؛ الثني عشرة بعد المغرب، وثانية عشرة بعد عشاء الآخرة، وصلّى فيما مائة ركعة، يقرء في كل ركعة فاتحة الكتاب، وقل هو الله أحد عشر مرات، وصلّى إلى آخر الشهر كل ليلة ثلاثة وعشرين ركعة كما فسرت لك»^(٣٤).

الأمر السابع: ليلة القدر والإمامية

وردت روایات كثيرة جداً تربط بين ليلة القدر وبين الإمامة، مثلاً روى الصدوق أنّ رسول الله عليه السلام قال لأصحابه: «آمنوا بليلة القدر إنّها تكون لعلي بن أبي طالب وولده الأحد عشر من بعدي»^(٣٥). وفي الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «يا معاشر الشيعة خاصموا بسورة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ تخلجوا، فوالله إنها لحجة الله تبارك وتعالى على الخلق بعد رسول الله عليه السلام وإنّها لسيدة دينكم، وإنّها لغاية علمتنا، يا معاشر الشيعة خاصموا بـ ﴿حَمْ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾؛ فإنّها لولاة الأمر خاصة بعد رسول الله عليه السلام، يا معاشر الشيعة يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ﴾»^(٣٦).

فما هو سرّ هذه الليلة؟ وكيف يستدلّ بها على الإمامة؟

الجواب في نفس روایات الموصومين عليهم السلام، حيث أشارت بعضها إلى أنَّ تَنْزِيلَ الملائكة في ليلة القدر يقتضي وجود شخص (منزَّل عليه)، وهو رسول الله عليه السلام في حياته، والأئمة عليهم السلام بعد رحيله، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان علي عليه السلام كثيراً ما يقول (ما) اجتمع التيمي والعدوي عند رسول الله عليه السلام وهو يقرأ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ بتخشنّ وبكاء فيقولان: ما أشدَّ رقْتُك هذه السورة؟ فيقول رسول الله عليه السلام: لما رأى عيني ووعاً قلي، ولما يرى قلب هذا من بعدي فيقولان: وما الذي رأيت وما الذي يرى قال: فيكتب لهما في التراب: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أُمْرٍ﴾، قال: ثم يقول: هل بقي شيء بعد قوله عليه السلام: ﴿كُلُّ أُمْرٍ﴾ فيقولان: لا، فيقول: هل تعلماني من المنزل إليه بذلك؟ فيقولان: أنت يا رسول الله، فيقول: نعم، فيقول: هل تكون ليلة القدر من بعدي؟ فيقولان: نعم، قال: فيقول: فهل ينزل ذلك الأمر فيها؟ فيقولان: نعم، قال: فيقول: إلى من؟ فيقولان: لا ندرى، فيأخذ برأسى ويقول: إن لم تدرى فادرى، هو هذا من بعدي، قال: فإنَّ كاتنا ليعرفان تلك الليلة بعد رسول الله عليه السلام من شدة ما يدخلهما من الرعب»^(٣٧).

وفي بيان آخر للاستدلال عن مولانا الإمام الباقر عليه السلام حيث يستدلُّ على العصمة والإمامية بالأمر الحكيم الذي ينزل ليلة القدر والذي لا اختلاف فيه، فمن جاء بشيء فيه اختلاف فهو دليل على عدم عصمه، ومن جاء بأمر لا اختلاف فيه فهو الموصوم الذي يأخذ عن الله تعالى، قال عليه السلام: «قال الله عليه السلام في ليلة القدر: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أُمْرٍ حَكِيمٍ﴾، يقول: ينزل فيها كلُّ أمر حكيم، والحكم ليس بشيئين، إنما هو شيء واحد، فمن حكم بما ليس فيه اختلاف، فحكمه من حكم الله عليه السلام، ومن حكم بأمر فيه اختلاف فرأى أنه مصيب فقد حكم بحكم الطاغوت، إنه لينزل في ليلة القدر إلىولي الأمور تفسير الأمور سنة سنة، يؤمر فيها في أمر نفسه بكلذا وكذا، وفي أمر الناس بكلذا وكذا، وإنَّ ليحدث لولي الأمر سوى ذلك كلَّ يوم علم الله عليه السلام الخاص والمكتون العجيب المخزون، مثل ما ينزل في تلك الليلة من الأمر، ثمَّ قرأ:

﴿وَلَوْ أَتَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣٨).

وفي بيان ثالث يذكره مولانا زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث يقول: «﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقال في بعض كتابه: «وَمَا حَمْدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْقَلَبُتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» يقول في الآية الأولى: إنَّ حَمْدًا حِينَ يَمُوتُ، يقول أهل الخلاف لأمر الله عَزِيزٌ عَلَيْهِ الْحَقْلُ: مضت ليلة القدر مع رسول الله عَلَيْهِ الْحَقْلُ فهذه فتنة أصابتهم خاصة، وبها ارتدوا على أعقابهم، لأنَّه إِنْ قَالُوا: لَمْ تَنْهَبْ، فلَابدَّ أَنْ يكون لله عَزِيزٌ عَلَيْهِ الْحَقْلُ فِيهَا أَمْرٌ، وَإِذَا أَقْرَوْا بِالْأَمْرِ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ صَاحِبٍ بَدْ»^(٣٩). وهذا المضمون قريب من مضمون الرواية الأولى؛ لأنَّ من يَسْلِمُ أَنَّ ليلة القدر باقية إلى يوم القيمة، لا بدَّ من أَنْ يَسْلِمُ بِوُجُودِ شخصٍ يتنزل عليه الملائكة من كلِّ أَمْرٍ.

ويُكَلِّفُ استفادة عدة أمور من ليلة القدر فيما يرتبط بالإماماة:

الأمر الأول: أنَّ الأرض لا تخلي من حجَّةٍ؛ لأنَّ ليلة القدر باقية إلى يوم القيمة، ولا بدَّ لها من صاحب.

الأمر الثاني: عصمة هذا الشخص الذي يتلقَّى الأمور مباشرةً من الملائكة.

الأمر الثالث: علمه الواسع والشامل لكلِّ شيءٍ، وهو ظاهر ما تقدم عنه عَلَيْهِ الْحَقْلُ في الرواية الأولى المتقدمة حينما قال للرجلين: «هَلْ بَقِيَ شَيْءٌ بَعْدَ قَوْلِهِ عَزِيزٌ عَلَيْهِ الْحَقْلُ؟»، وَتَأْنِي روایات تدلُّ على ذلك.

ما هو الأمر الذي ينزل في ليلة القدر؟

هناك مجموعة من الروايات تبيَّن ما هو الشيء المنزل، وأنَّه نور ينزل على الأنبياء والأوصياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، منها ما عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «قال أبو عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ نُورًا كَهِيَّةَ الْعَيْنِ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الْحَقْلُ وَالْأَوْصياءِ لَا يَرِيدُ أَحَدٌ مِنَّا عِلْمًا أَمْرًا مِنْ

أمر الأرض أو أمر من أمر السماء إلى الحجب التي بين الله وبين العرش إلا رفع طرفه إلى ذلك النور فرأى تفسير الذي أراد فيه مكتوباً»^(٤٠).

وعن أبي جعفر عليه السلام أيضاً قال: «سأل أبو عبد الله عليه السلام رجلًّا من أهل بيته عن سورة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، فقال: ويلك سألك عن عظيم، إياك والسؤال عن مثل هذا، فقام الرجل، قال: فأتيته يوماً فأقبلت عليه، فسألته، فقال: إننا أنزلناه نور عند الأنبياء والأوصياء لا يريدون حاجة من السماء ولا من الأرض إلا ذكروها لذلك النور فأتاهم بها»^(٤١).

وكما تقدم تدلّ هاتين الروايتين على علم الإمام عليه السلام الغير المحدود، وتدلّ على عصمته أيضاً، حيث إنّ منبعه صافٍ زلالٌ لا اشتباه فيه.

ولعله لما تقدم يشير الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول -بعد أن سأله رجل عن ليلة القدر، كانت أو تكون في كلّ عام؟-: «لو رفعت ليلة القدر لرفع القرآن»^(٤٢).

روايات أخرى في الإمامة

لا بأس بذكر بعض الروايات فيما يتعلق بارتباط ليلة القدر بالإمامية، لأهميتها هذا الموضوع، وبعض هذه الروايات ترتبط بما مرّ:

١- روی أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قال لابن عباس: «إنَّ ليلة القدر في كلَّ سنة، وأنَّه ينزل في تلك الليلة أمر السنة، ولذلك الأمر ولادة رسول الله عليه وآله وسليمان»، فقال ابن عباس: من هم؟ قال: «أنا وأحد عشر من صلبي أئمة محدثون»^(٤٣).

٢- عن المفضل بن عمر، قال: «ذكر عند أبي عبد الله عليه السلام ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال: ما أبين فضلها على السور. قال: قلت: وأي شيء فضلها؟ قال: نزلت ولادة أمير المؤمنين عليه السلام فيها. قلت: في ليلة القدر التي نرجوها في شهر رمضان. قال: نعم، هي ليلة قدرت فيها السماوات والأرض وقدرت ولادة أمير المؤمنين عليه السلام فيها»^(٤٤).

٣- عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ قَرَا رَجُلٌ لَيْلَةً ثَلَاثَ وَعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ 《إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقُدْرِ》 أَلْفَ مَرَّةً لَأَصْبَحَ وَهُوَ شَدِيدُ الْيَقِينِ بِالاعْتِرَافِ بِمَا يَخْتَصُ بِهِ فِينَا، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِشَيْءٍ عَابِيْهِ فِي نَوْمِه»^(٤٥). وَمِنْ الْمُعْرُوفِ اسْتِحْبَابُ قِرَاءَةِ سُورَةِ الْقَدْرِ أَلْفَ مَرَّةً لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَيَكُونُ لِلْمُؤْمِنِ (الْأَنْشَغَالُ بِأَعْمَالِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ) أَنْ يَقْرَأَهَا بِدَأِيَةِ اللَّيلِ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ، وَيَكُونُ بِذَلِكَ قَدْ أَدْرَكَ هَذَا الْمُسْتَحْبَ.

٤- وَفِي رَوَايَةِ طَوِيلَةٍ عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ الْكَلَمُ جَاءَ فِيهَا: «لَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ جَلْ ذَكْرَهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ أَوْلَى مَا خَلَقَ الدُّنْيَا وَلَقَدْ خَلَقَ فِيهَا أَوْلَى نَبِيِّنَا، وَأَوْلَى وَصِيِّنَا، وَلَقَدْ قَضَى أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ سَنَةٍ لَيْلَةٌ يَهْبِطُ فِيهَا بِتَفْسِيرِ الْأَمْرِ إِلَى مِثْلِهَا مِنَ السَّنَةِ الْمُقْبَلَةِ، مِنْ جَهْدِ ذَلِكَ فَقَدْ رَدَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ ذِيْجَلَ عِلْمَهُ، لَأَنَّهُ لَا يَقْوِمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالرَّسُلُ وَالْمُحَدِّثُونَ إِلَّا أَنْ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حِجَّةٌ بِمَا يَأْتِيهِمْ فِي تَلْكَ الْلَّيْلَةِ، مَعَ الْحِجَّةِ الَّتِي يَأْتِيهِمْ بِهَا جَبَرِيلُ عَلَيْهِ الْكَلَمُ، قَلَتْ: وَالْمُحَدِّثُونَ أَيْضًا يَأْتِيهِمْ جَبَرِيلُ أَوْ غَيْرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ: أَمَا الْأَنْبِيَاءُ وَالرَّسُلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَلَا شَكَّ، وَلَا بَدْلٌ لِمَنْ سَوَاهُمْ مِنْ أَوْلَى يَوْمٍ خَلَقَتْ فِيهِ الْأَرْضُ إِلَى أَخْرَ فَنَاءِ الدُّنْيَا أَنْ تَكُونَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ حِجَّةٌ يَنْزَلُ ذَلِكُ فِي تَلْكَ الْلَّيْلَةِ إِلَى مِنْ أَحَبِّ مِنْ عَبَادِهِ... شَمَّ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ الْكَلَمُ: فَضْلُ إِيمَانِ الْمُؤْمِنِ بِحَمْلِهِ 《إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ》 وَبِتَفْسِيرِهِ عَلَى مَنْ لِيْسَ مِثْلَهُ فِي الإِيمَانِ بِهَا، كَفْضُلُ الْإِنْسَانِ عَلَى الْبَهَائِمِ»^(٤٦). وَهَذِهِ الرَّوَايَةُ تَحْثِنُ عَلَى تَعْلُمِ مَعْنَى سُورَةِ الْقَدْرِ وَتَفْسِيرِهِ.

الزَّهْرَاءُ عَلَيْهِ الْكَلَمُ لَيْلَةُ الْقَدْرِ:

وَمِنْ مَعْنَى لَيْلَةِ الْقَدْرِ الْمَبَارَكَةِ الَّذِي يَرْتَبِطُ بِالْإِمَامَةِ أَيْضًا هُوَ تَفْسِيرُهَا بِفَاطِمَةِ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهِ الْكَلَمُ، كَمَا جَاءَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ الْكَلَمُ، حِيثُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: 《إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ》: «اللَّيْلَةُ فَاطِمَةُ، وَالْقَدْرُ اللَّهُ، فَمَنْ عَرَفَ فَاطِمَةَ حَقًّا مَعْرِفَتَهَا فَقَدْ أَدْرَكَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَإِنَّمَا سَمِّيَتْ فَاطِمَةً لِأَنَّ الْخَلْقَ فَطَمُوا عَنْ مَعْرِفَتِهَا»^(٤٧).

فيكون معرفة ليلة القدر حقًّ معرفتها من اختصاص المعصوم عليه السلام، كما هو الحال بالنسبة إلى الزهراء البتول عليها السلام، وكذلك كلما تعرف المؤمن على فاطمة عليها السلام يكون أقرب إلى إدراك ليلة القدر.

وروى الكليني عن الإمام الكاظم عليه السلام في جواب أحد النصارى، في تفسير باطن قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَّةٍ إِنَّا كُنَّا مُّنْذِرِينَ»، قال عليه السلام: «وَمَا الْلَّيْلَةُ فَاطِمَةٌ»^(٤٨).

ومن الواضح لدى كل مؤمن دور الزهراء عليها السلام في الدفاع عن الإمامة، فعندما نتحدث عن الإمامة لا بد من أن نتحدث عنها عليها السلام، وهي التي تقول: «وَإِمَامَتِنَا أَمَانٌ مِّنَ الْفَرَقَةِ»، حيث تنسب نفسها المباركة إلى الإمامة الإلهية، حيث الإمامة كمقام إلهي ومنزلة ربانية حازت عليه الزهراء عليها السلام.

نسأل الله تعالى أن يزيد من معرفتنا بفاطمة الزهراء عليها السلام، وأن يوفقنا لإدراك ليلة القدر، إنه على كل شيء قادر.

الهوامش:

- (١) كمال الدين، ص ٢٨١.
- (٢) الشعراء: ١٩٤-١٩٢.
- (٣) الدخان: ٣.
- (٤) الميزان، ج ٢٠، ص ٣٣١.
- (٥) الكافي، ج ٤، ص ١٥٧-١٥٨.
- (٦) التبيان، ج ١٠، ص ٣٨٥.
- (٧) الخصال، ص ٥١٩.
- (٨) حيث قال عليه السلام: "اتفاق مشايخنا عليهما السلام على أنها ليلة ثلات وعشرين"، الخصال، ص ٥١٩.
- (٩) الهدایة للشيخ الصدوقي، ص ١٩٧.
- (١٠) الفقيه، ج ٢، ص ١٦٠-١٦١.



- (١١) الكافي، ج ٤، ص ١٥٩.
- (١٢) الميزان، ج ٢٠، ص ٣٣٤.
- (١٣) الكافي، ج ٤، ص ١٥٧.
- (١٤) التهذيب، ج ٣، ص ٥٨.
- (١٥) تحف العقول، ص ٢٣٣.
- (١٦) المقنعة للشيخ المفيد، ص ٣٠٨.
- (١٧) الكافي، ج ٤، ص ١٥٧-١٥٦، وقريب منه في التهذيب، ج ٣، ص ٥٨-٥٩.
- (١٨) البحار، ج ٩٤، ص ٥.
- (١٩) التبيان، ج ١٠، ص ٣٨٥.
- (٢٠) تفسير الأمثل، ج ٢٠، ص ٣٥٠.
- (٢١) الميزان، ج ٢٠، ص ٣٣٣.
- (٢٢) الظاهر أن الرواية عامية عن أنس لم ترو في مصادرنا.
- (٢٣) الأمثل، ج ٢٠، ص ٣٥١.
- (٢٤) الدخان: ٣.
- (٢٥) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٦، البحار، ج ٢٥، ص ٩٧.
- (٢٦) الكافي، ج ١، ص ٢٥٠-٢٥١.
- (٢٧) فضائل الأشهر الثلاثة، ص ١١٨.
- (٢٨) فضائل الأشهر الثلاثة، ص ١٣٧.
- (٢٩) التهذيب، ج ٣، ص ٦٣.
- (٣٠) البحار، ج ٩٤، ص ٩.
- (٣١) فقه الرضا عليه السلام، ص ٢٠٥.
- (٣٢) دعائم الإسلام للنعمان القاضي المغربي، ج ١، ص ٢٨٢، مستدرك الوسائل، ج ٧، ص ٤٧٠.
- (٣٣) الكافي، ج ٤، ص ١٥٥.
- (٣٤) نفس المصدر.
- (٣٥) الخصال، ص ٤٨٠.
- (٣٦) الكافي، ج ١، ص ٢٤٩-٢٥٠.

- (٣٧) الكافي، ج ١، ص ٢٤٩.
- (٣٨) الكافي، ج ١، ص ٢٤١.
- (٣٩) الكافي، ج ١، ص ٢٤٩.
- (٤٠) بصائر الدرجات، ص ٤٦٢.
- (٤١) بصائر الدرجات، ص ٣٠٠.
- (٤٢) علل الشرائع، ج ٢، ص ٣٨٨.
- (٤٣) الخصال للصادق، ص ٤٧٩-٤٨٠.
- (٤٤) معاني الأخبار، ص ٣١٦.
- (٤٥) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي، ص ٥٧٧.
- (٤٦) الكافي، ج ١، ص ٢٥٠-٢٥١.
- (٤٧) البحار، ج ٤٣، ص ٦.
- (٤٨) الكافي، ج ١، ص ٤٧٩.

الله ولهم فتح



الصيام في ضوء القرآن الكريم

الشيخ عيسى مكي الججزيري

تمهيد

من المعاجز التي أجرأها الله تعالى على أيدي رسليه هي الكتب السماوية، والتي يعد القرآن الكريم أشرفها وأجلّها فهو المعجزة الخالدة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الذي جعله الله -تبارك ذكره- تبياناً لكل شيء حيث قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١)، فهو يشمل إيضاحاً للعقيدة الإسلامية وتشريعاتها وما كلف الله به هذه الأمة، وكذلك أخلاقها وكل ما يرتبط بشؤون حياتها.

ومن العناوين التي تطرقَتْ إليها آياته عنوان «الصيام»، فحينما نستقرئ هذا العنوان في آياته نجد أنه قد تكرر في تسعة آيات مباركات، والبحث سيدور حول بعض الأبعاد التي تعرضت لها كل آية بشكل موجز ومحضر، ولكن قبل الشروع في بيان ما أود ذكره، أشير إلى بعض المقدمات:

الأولى: أن الصوم في الأصل هو الإمساك عن الفعل مطعماً كان أو كلاماً أو مشياً^(٢)، أمّا الصوم في الشرع فهو إمساك المكافف بالنسبة من الخطط الأبيض إلى الخطط الأسود عن المفترضات التي منعها الشارع المقدّس عن الصائم، وقد عرّفها صاحب الرياض قائلًا بالكف عن المفترضات مع النية^(٣).

الثانية: إن شهر رمضان مشتق من الرمضأ أي: شدة وقع الشمس، فيقال: أرمضه فرمض أي أحرقته الرمضأ^(٤)، وهذا المعنى يتناسب مع حال ذنب الإنسان المؤمن في شهر رمضان فإنّها ترمض رمضاً كما ورد في كتاب البرهان في تفسير هذه الآية عن أبي جعفر علّي^ع قال: «كنا عنده ثمانية رجال، فذكرنا رمضان، فقال: «لا تقولوا: هذا رمضان، ولا ذهب رمضان، ولا جاء رمضان، فإنّ رمضان اسم من أسماء الله لا يحيى ولا يذهب، وإنما يحيى ويذهب الزائل، ولكن قولوا: شهر رمضان، فالشهر مضاف إلى الاسم، والاسم اسم الله -عز ذكره-، وهو الشهر الذي أنزل فيه القرآن جعله مثلاً وعدياً».

الثالثة: أمّا الحديث حول الأبعاد المستفادة من هذه الآيات فيمكن تقسيم الآيات التي ورد فيها جذر الصوم باعتبار البعد الفقهي إلى قسمين، الأوّل: آيات تتحدد عن الصيام، بما هو فريضة شرعاًها الله تعالى في شهر رمضان، وأمّا القسم الثاني: فآيات تتحدد عن الصيام كنوع من أنواع الكفارات، وفي هذا القسم نجد أنّ الآيات تتحدد عن الكفارات التالية: كفارة القتل الخطأ، وكفارة تعجيل حلق الرأس قبل بلوغ الهدى، وكفارة اليمين، وكفارة الظهار. كما أنه سوف يكون

التعرض إلى بعض الأبعاد الأخلاقية في بعض الآيات.

آيات القسم الأول

١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُوداتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخْرَى وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٌ مُسْكِنٌ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلِيَصُمُّهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخْرَى يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَةَ وَلَا تُنكِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٥).

ونوع الكلام حول هذه الآيات في بعدين:

الأول: بعد الفقهى:

تتحدث هذه الآيات المباركة وكذلك ما سبقها من آيات عن مجموعة من الأحكام الإسلامية، كأحكام القتال، والإإنفاق، وشرب الخمر وغيرها، ثم تأتي هذه الآيات المذكورة وتحدث عن تشريع الصوم ووجوبه وبعض أحكامه، بحيث تدلّ الآيات على تشريعه في حصة من المؤمنين وأنه ثابت عليهم كما هو ثابت على الأمم السالفة، أما الأحكام المستفادة من هذه الآيات فهي كالتالي:

تشريع وجوب الصوم على المؤمنين، وأنه في أيام معدودات معينة بحيث يمكن استفادتها تعيناها من قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلِيَصُمُّهُ﴾^(٦)، أما الألف واللام عهديّة، وعليه يكون الصيام في خصوص شهر رمضان إذا ثبت هلاله^(٧).

وقد ذكر الفخر الرازبي في تفسيره أن هناك قول آخر في تفسير الأيام، حيث قال: "وقع الخلاف في هذه الأيام إلى قولين، الثاني هو ما تم ذكره، أما الأول، فهو أن بعضهم قال بأن هذه الأيام غير أيام شهر رمضان، ثم اختلف فيها، فقيل ثلاثة أيام من كل شهر، وقيل ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عاشوراء، ثم اختلفوا أيضاً فقالوا إنه كان تطوعاً ثم فرض، لكنهم اتفقوا على نسخ هذا الحكم، واحتجوا على قولهم، على ما ورد عن النبي الأكرم عليه السلام: «إن صوم رمضان نسخ كل صوم»، فدل هذا على أن قبل وجوب شهر رمضان، كان صوماً آخر، واجباً وكذلك احتجوا على ذكر حكم المريض والمسافر في الآية الأولى من الآيات المذكورة ثم ذكر حكمها أيضاً في الآية اللاحقة، فلو كان الحكم واحداً في صيام الشهر الكريم، لكان ذلك تكريراً محضاً من غيرفائدة، وأنه لا يجوز^(٨)، وقد ناقش هذه الأقوال وردّها.

وقد أفتى الفقهاء بأن من أنكر وجوب الصوم فهو مرتد يجب قتلـه، ومن آمن بوجوبه ولكن تركه تهاوناً واستخفافاً عزّرـ بما يراه الحاكم الشرعي واختلفوا هل يقتلـ في المرة الثالثة أم الرابعة لو عادـ إلى تركـه^(٩).

ومما ورد عن أهل بيت العصمة عليهما السلام في فرض الصيام على هذه الأمة، ما ورد في تفسير البرهان عن حفص بن غياث التخخي قال: سمعت أبا عبد الله عليهما السلام يقول: «إن شهر رمضان لم يفرض الله صيامـه على أحد من الأمم قبلـنا، فقلـت لهـ: فقولـ الله عزـوجلـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، قالـ: إنـما فرضـ الله عزـوجلـ صيامـ شهرـ رمضانـ علىـ الأـيـامـ دونـ الأـمـمـ فـفضلـ اللهـ بـهـ هـذـهـ الـأـمـمـ وـجـعـلـ صـيـامـ فـرـضاـ عـلـىـ رـسـولـ اللهـ عـلـيـهـ وـلـهـ عـلـىـهـ أـمـتـهـ»^(١٠).

تشير الآيات المتقدمة إلى أن الصيام يتعلقـ عنـ توـفـرـ فيـهمـ شـروـطـ معـينةـ ذـكـرـتـ فيـ كـتـبـ الـفـقـهـ، وـاستـثـنيـ منـهـ ثـلـاثـةـ:ـ الـمـرـيـضـ،ـ الـمـسـافـرـ،ـ وـالـذـيـ لـاـ يـتـمـكـنـ

من الصّوم إلّا بعشقة لكبر السنّ ونحوه. والأولان يلزمهما القضاء بعد شهر رمضان بالقدر الفائت، والأخير يلزمـه دفع الفدية، وذلك بإطعام مسكين عن كل يوم^(١١)، وهذا هو المعروف عن مدرسة أهل البيت ع. أمّا عند غيرهم ففي خصوص السّفر، فإنّ الإفطار فيه رخصة لا عزية، كما أنّهم اختلفوا فيما بينهم في السفر المبigh للإفطار، فبعضهم قال كل سفر ولو كان فرسخاً، وتمسّك على ما قال بصدق عنوان المسافر عليه، وقال بعضهم مسافة يوم؛ لأنّ أقلّ من هذا المقدار قد يتّفق للمقيم، والشّافعـي قدّره بستة عشر فرسخاً دون الإياب^(١٢). أمّا المذهب الحقـ فيرى أنّ مقدارها ثانية فراسخ على التّفصيل المذكور في الكتب الفقهية، ولكنّ التّأمل في الآية يجد أنّ التّرخيص فيها عزية لا رخصة؛ لأنّ الله -تبارك وتعالى- قال: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةُ مِنْ أَيَّامٍ أُخْرَ﴾^(١٣)، يعني أنّ الله -تعالى- أوجـب القضاء بنفس السّفر، والمرض، ولم يقل: فأفطر فعدة من أيام آخر، وتقدـير (أفطر) خلاف الظـاهر، والكلام لا يوجـبه؛ لأنّه يستقـيم من غير تقدـير^(١٤).

ويقول صاحب تفسير الميزان قـدـثـ: "وعلى فرض التـقدـير لا يدلـ على الرـخصـةـ، لأنـهـ خـاتـمةـ ما يـدلـ عـلـيهـ أنـ الإـفـطـارـ لاـ يـقعـ مـعـصـيـةـ، بلـ جـائزـ بـالـعـنـ الأـعـمـ مـنـ الـوـجـوبـ،ـ وـالـاسـتـحـبابـ،ـ وـالـإـبـاحـةـ،ـ وـأـمـاـ كـوـنـهـ جـائزـ بـعـنـ دـعـمـ كـوـنـهـ إـلـزـامـياـ فـلـاـ دـلـيلـ عـلـيـهـ مـنـ الـكـلـامـ أـلـبـتـةـ،ـ بـلـ الدـلـيلـ عـلـىـ خـالـفـهـ،ـ فـإـنـ بـنـاءـ الـكـلـامـ فـيـ مـقـامـ التـشـريعـ عـلـىـ دـعـمـ بـيـانـ ماـ يـجـبـ بـيـانـهـ لـاـ يـلـيقـ بـالـمـشـرـعـ الـحـكـيمـ"ـ^(١٥)ـ.ـ وـلـذـلـكـ ثـبـتـ عـنـ طـرـيقـ السـنـةـ وـالـشـيـعـةـ أـنـ رـسـوـلـ اللهـ عـلـيـهـ أـلـلـهـ قـدـثـ قالـ:ـ (لـيـسـ الـبـرـ الصـيـامـ فـيـ السـفـرـ)ـ^(١٦)ـ.ـ لـكـنـ ماـ هـوـ الـوـجـهـ فـيـ الـآـيـاتـ الـمـبـارـكـةـ أـنـهـ ذـكـرـتـ مـرـتـيـنـ بـأـنـ الـمـسـافـرـ وـالـمـرـيـضـ عـلـيـهـمـ الـقـضـاءـ فـيـ عـدـةـ مـنـ أـيـامـ أـخـرـ؟ـ

قد يـجـابـ:ـ بـأـنـ ذـلـكـ مـنـ كـراـهـيـةـ بـعـضـ الـمـسـلـمـيـنـ لـتـرـكـ الصـيـامـ أـيـامـ شـهـرـ رـمـضـانـ وـلـوـ كـانـواـ مـسـافـرـيـنـ أـوـ مـرـضـيـنـ،ـ وـالـقـرـآنـ بـهـذـاـ التـكـرارـ يـفـهـمـ بـأـنـ الإـفـطـارـ حـكـمـ إـلـهـيـ



لا يجوز مخالفته كما هو الحال في حال الحضر^(١٧).

ثم ما هو السر في تشريع الصيام في شهر رمضان بالخصوص من بين سائر الشهور؟

السر في ذلك أن الله تعالى أنزل القرآن فيه، وعليه مدار الدين والإيان، كما أن الكتب السماوية كما تذكر بعض الروايات نزلت في هذا الشهر الفضيل، فقد نقل الشيخ في التهذيب عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «نزلت التوراة في ست مضمون من شهر رمضان، ونزل الإنجيل في الثني عشر مضمون من شهر رمضان، ونزل الزيور في ثمانية عشر مضمون من شهر رمضان، ونزل القرآن في ليلة القدر»^(١٨).

الثاني: البعد الأخلاقي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ﴾^(١٩)، تشير هذه الآية المباركة إلى الحكمة من إيجاب الصوم، وهو حصول الصائم على التقوى التي مدح الله تعالى أصحابها في آيات عديدة في القرآن الكريم.

والتفوي من وقى؛ أي: الواقعية، وهي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره^(٢٠). ويقال إنّي السيف بدرعه؛ أي: اجتنب ضربة السيف بدرعه، والتقوى في الشرع، حفظ النفس عمّا يؤثم وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك المباحات، لما روى «اللال بين، والحرام بين، ومن رتع حول الحمى فحقيقة أن يقع فيه»^(٢١). ولذلك ورد عن الإمام علي عليه السلام: «التقوى أن يتقى المرء كل ما يؤثمه»، وكذلك ورد عن الإمام الصادق عليه السلام لما سُئل عن تفسير التقوى، قال: «أن لا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك»^(٢٢).

إذاً الصيام يؤدي إلى التقوى، أو بعبارة أخرى: التقوى غاية العبادة باعتبار أن الله تعالى خلق الإنسان لأجل عبادته -تعالى ذكره-، ولكن هذه العبادة

طريقٌ ووسيلة لتحصيل التقوى؛ لذلك ورد في قوله ﷺ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ» فنجد في هذه الآية أن التقوى جعلت هي الغاية والهدف من العبادة، لكن مع ذلك لا تكون التقوى هي الهدف النهائي والغاية القصوى فالقرآن يصرّح بهذه الحقيقة ويقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُثْلِحُونَ»^(٢٣)، إذاً الغاية من التقوى الوصول إلى الفلاح، بل هي (التقوى) وسيلة وطريق إلى الكرامة الحقيقة «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَنَاكُمْ»^(٢٤)، ولذلك ورد عن الإمام علي عليه السلام: «مفتاح الكرامة التقوى»^(٢٥). وكذلك تعتبر التقوى وسيلة إلى المحبة الإلهية، قال تعالى: «بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَأَتَقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ»^(٢٦)، وكذلك إلى التعليم الإلهي «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمُ اللَّهُ»^(٢٧)، وكذلك بالتقوى قبل الأعمال «إِنَّمَا يَتَّقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ»^(٢٨) وغيرها من الآيات التي تبيّن مدى أهمية التقوى في حياة الإنسان المؤمن.

أما خصائص المتقيين، فيكيفنا فيها حديث الإمام علي عليه السلام: «... فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْلَقُوهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلِيسُوهُمُ الْأَقْصَادُ، وَمَشِيهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَعُوا أَسْمَاعُهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نَزَلتْ أَنفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَمَا تَنَزَّلَتْ فِي الرَّخَاءِ. لَوْلَا الْأَجْلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرَفَةَ عَيْنٍ، شَوْقًا إِلَى التَّوَابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ. عَظُمَ الْخَالقُ فِي أَنفُسِهِمْ فَصَغَرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشَرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ حَقِيقَةٌ، وَأَنفُسُهُمْ عَقِيقَةٌ. صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبُتُهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تَجَارَةً مَرْبَحةً، يَسِّرَهَا لَهُمْ رَبِّهِمْ. أَرَادُتُهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسْرَتُهُمْ فَقَدَّلُوا أَنفُسَهُمْ مِنْهَا. أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُونَهَا تَرْتِيلًا يُحَرِّنُونَ بِهِ أَنفُسَهُمْ، وَيَسْتَهِنُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَّنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعُتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا، وَظَنُوا أَنَّهَا نُصْبٌ أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُوا

بِآيَةِ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَرُوا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ^(٢٩).

٢- **﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلَمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَاثُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرُبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَعُوا الصِّيَامَ إِلَى الظَّلَلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذِلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلتَّأْسِ لِعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(٣٠)**

والكلام حول هذه الآية يقع في بعدين أيضاً:

الأول: البعد الفقهى:

تشير الآية المباركة إلى أربعة أحكام إسلامية في متعلق الصوم والاعتكاف

وهي كالتالي:

أ- حلية مقاربة الزوجة في ليالي شهر رمضان بعدما كان ممنوعاً في لياليه كما ورد في بعض الروايات كما في تفسير علي بن إبراهيم قال: قال الصادق عليه السلام: «كان النكاح والأكل محظى في شهر رمضان بالليل بعد النوم، يعني من صلى العشاء ونام ولم يفطر ثم اتبه حرم عليه الإفطار وكان النكاح حراماً بالليل والنهار في شهر رمضان...»^(٣١).

ب- جواز الأكل والشرب في الليل إلى طموع الفجر **﴿كُلُوا وَاشْرُبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾**، والخط الأبيض هو الفجر الصادق وهو بياض يعرض الأفق في الفجر وقد ورد عن النبي الأكرم عليه السلام: «الفجر، فجران: فاما الذي كأنه ذنب السرحان فإنه لا يحمل شيئاً ولا يحرمه وأما المستطيل الذي يأخذ في الأفق -أي يتشر- فإنه يحمل الصلاة ويحرم

الطعام^(٣٢)، وعن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَفَافُ قال سأله عن الخيط الأبيض وعن الخيط الأسود فقال: «يَاضُ الْهَارِ مِنْ سَوَادِ اللَّيلِ»^(٣٣).

ج - قالت الآية: **«أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيلِ»** فانتهاء الصوم يكون بدخول الليل، والآية عبرت بـ(أتموا) ولم تعبّر بـ(أكملوا)، وفيها دلالة على أنه واحد بسيط وعبادة واحدة تامة غير مركبة من أمور عديدة^(٣٤).

د - جواز المقاربة مختص بحالة عدم كون الرجل معتكفًا في المسجد، فهو أشبه باستثناء من الحكم السابق.

والمقصود من الليل هو مغيب الشمس، ولكن مغيّبها لا يعرف بموارتها عن العيان، بل بارتفاع الحمرة المشرقية؛ لأنّ المشرق مطلّ على المغرب، وعلى هذا تكون الحمرة المشرقية انعكاساً لنور الشمس، وكلّما أوغلت الشمس في المغيب تقلّص هذا الانعكاس، أما أبناء العامة فقالوا بأنّ الليل هو غروب الشمس بحيث بجرد غروبها يمكنهم الإفطار اعتماداً على رواية نقلوها عن عمر بن الخطاب^(٣٥).

الثاني: بعد الأخلاقي:

ذكرت الآية المباركة حكماً من أحكام الاعتكاف، والاعتكاف في اللغة: الإقبال على الشيء، وملازمته على سبيل التعظيم له، أمّا في الشرع: فهو الاحتباس في المسجد على سبيل القربى^(٣٦)، وهو مستحب تأسياً بالنبي الأكرم عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَامٌ فقد كان يواكب عليه خصوصاً في العشر الأوّل في شهر رمضان، بحيث كانت تضرب له قبة بالمسجد من شعر، ويطوى فراشه، قال الشيخ الصدوقي: «وقال أبو عبد الله عَلَيْهِ الْكَفَافُ: كانت بدر في شهر رمضان، ولم يعتكف رسول الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَامٌ فلماً أنْ كانَ مِنْ قَبْلِ اعْتِكَافِ عَشْرِينَ، عَشْرَ لَعَامَهُ، وَعَشْرَ قَضَاءَ لِمَا فَاتَهُ»^(٣٧).

أ - وفي الاعتكاف عناصر متعددة يجنيها المعتكف لتسمو نفسه وروحه، منها:



التفرغ لعبادة الله تَعَالَى وذكره، بحيث إنَّ الإنسان في أَيَّامِه العادِية، وفي زحمة المشاغل اليوميَّة، وضرورات الحياة، لا يُكْنِه ذلك إِلا بِشكل قليل، أمَّا في الاعتكاف فهو قد ترك كل مشاغله خلف ظهره، وتفرغ لمناجاة الله تَعَالَى وعبادته، وبهذا التفرغ تسمو روحه وتتربي نفسيه.

ب - مخافة الأهواء، فمقتضى كونه صائماً في بيتِ من بيوت الله، ليست له الحرية الكاملة في فعل كلِّ ما تشتهيه نفسه، لكن يمكن في هذه الفترة القصيرة أن يربّي نفسه على مخالفه الموى.

ج - العزلة المؤقتة عن الناس وإتاحة الفرصة له لمراجعة نفسه ومحاسبتها واختبارها ومراقبتها، بينما في اليوم العادي طبيعة المشاغل التي يقوم بها والوقت الذي تستغرقه لا يُكْنِه ذلك من مراجعة ذاته وتقييمها وتركيز علاقته بخالقه^(٣٨).

إذاً كما يحتاج الإنسان إلى خلوة يتوجه فيها إلى الله تَعَالَى فيشعر أنه في ضيافة رب العالمين وفي بيته إذا كان في شهر رمضان وهو أفضل وقت للاعتكاف، بل يستأنس المعتكف بهذه الضيافة فيناجي ربَّه، فيجيبه إذا دعاه ويقبل عليه إذا ناداه، ويقوله إذا استقاله فهنيئاً للمعتكفين.

آيات القسم الثاني

و قبل الحديث عن هذا القسم نذكر تعريف الكفاره: الكفاره من الكفر بالفتح بمعنى التغطية، وقد سميت بذلك؛ لأنَّها تکفر الذنب عن الذنب أي تمحوه وتستره وتغطيه^(٣٩)، أمَّا في الشرع فإنَّها اصطلاح على الجزاء الثابت على ارتكاب بعض الذنوب لسترها في الجملة، فإنَّ الستر الكامل وإنْ كان لا يتحقق إلا بالتوبة الصادقة إلا أنه يتحقق بالكافاره في الجملة^(٤٠).

أمَّا أقسامها فأربعة: فتارة تكون كفاره مرتبة، وأخرى مخيرة، وثالثة يجتمع فيها الأمران التخيير والترتيب، ورابعة تكون كفاره جمع، وقد تعرض القرآن

الكريم إلى قسمٍ كبيرٍ منها، نذكر من ذلك الآيات التي تعرّضت للصيام على أنه أحد أنواع الكفارات.

ومن الأبعاد المستفادة من هذه الآيات:

أولاً: البعد الفقهي:

١- ﴿وَاتَّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أَخْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحْلَهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذَى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدِيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمْتَنُمْ فَمَنْ تَمَّمَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجَّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصَيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجَّ وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ تُلْكَ عَشَرَةُ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٤١).

وي يكن عنونتها بـكفارة حلق الرأس: فالآلية المباركة تشير إلى أن المقصور في الحج -الذي امتنع عن إقام الحج والعمره لمرض ونحوه- لا يجوز له الإحلال من إحرامه، بل عليه قبل ذلك إرسال هدي بالقدر المتيسر إلى مني، فإن أبلغها جاز له الإحلال آنذاك، ويُستثنى من ذلك المريض أو الذي في رأسه قمل يؤذيه فإنه يتمكن من الحلق قبل بلوغ الهدي محله ولكن عليه الفداء الذي هو عبارة عن التخيير بين أمور ثلاثة: الصيام، أو الصدقة، أو النسك، وقد فسر الصوم في الروايات بصوم ثلاثة أيام، والصدقة بإطعام ستة فقراء، والنسك بذبح شاة^(٤٢)، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ^(٤٣) قال: «إِنْ أَحْصَرَ الرَّجُلَ فَعُثِّ بِهِدِيهِ فَإِذَا رَأَسَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْحِرَ هَدِيهِ فَإِنَّهُ يَذْبَحُ شَاءَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي أَحْصَرَ فِيهِ أَوْ يَصُومُ أَوْ يَتَصَدِّقُ عَلَى سَتَّ مَسَاكِينَ وَالصَّوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَالصَّدَقَ نَصْفَ صَاعٍ لِكُلِّ مَسْكِينٍ»^(٤٤).

٢- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَّانًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَّانًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدِّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ

لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيَانَقُ فَدَيَةٌ
مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً
مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيَّاً حَكِيمًا ﴿٤٤﴾.

دللت هذه الآية المباركة على أنه ليس من شأنية الإنسان المؤمن قتل أخيه المؤمن، وإن صدر منه القتل أحياناً فذلك بسبب الاشتباه والخطأ، والقتل على ثلاثة أنواع: إما عمد محضر، أو خطأ محضر، أو شبه العمد، والحكم هنا في صورة الخطأ المحضر أو شبه العمد وهو التكفير بعتق رقبة، فإن عجز صام شهرين متتابعين، فإن عجز أطعم ستين مسكيناً ولذلك ورد عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «... ولَا قَتْلٌ خَطَاً أَدْى دِيْتَهُ إِلَى أُولِيَّاهُ ثُمَّ أَعْتَقْ رَقَبَةً فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، فَإِنْ
لَمْ يَسْتَطِعْ أَطْعَمْ سَتِينَ مَسْكِينًا مَدَّاً مَدَّاً ...» ﴿٤٥﴾.

٣- ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكُنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَدَّتُمُ
الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيْكُمْ أَوْ كِسْوَتِهِمْ
أَوْ تَخْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ
وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذِلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٤٦﴾.

وي يكن عنونتها بكفارة اليمين، وتشير الآية المباركة إلى نوعية من الأيمان، فهناك ي يكن لغو وهناك ي يكن شرعية مستوفية الشروط، فال الأولى هي التي ينطق اللسان بها من غير قصد مثل: لا والله، ورد في تفسير العياشي عن أبي بصير قال: سألت أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾، قال: «هو قول الرجل لا والله، وبلى والله (ولا يعقد عليها) ولا يعقد قلبه على شيء» ﴿٤٧﴾.

وهذه اليمين لا يترتب عليها شيء.

أما اليمين الشرعية - وهي التي يجب الوفاء بها و يؤخذ الخالق على حنثها - فهي التي توفر فيها الشروط المذكورة في كتب الفقه، وبحنثها تجب عليه كفاره

تخير من خصائص ثلاث: إطعام عشرة مساكين، أو كسوة عشرة مساكين، أو العتق، فإن لم يجد أو لم يتمكن من إحدى هذه الحالات صام ثلاثة أيام، ولو عجز عن الصوم استغفر الله ورجا عفوه^(٤٨).

لكن هل يشترط التتابع في الأيام الثلاثة؟

أبناء العامة مختلفون في ذلك، فالشافعي مثلاً يحوز التتابع وأبو حنيفة يوجبه^(٤٩)، أمّا أبناء المذهب الحق فالظاهر أنّهم يجمعون على شرطية التتابع في الصيام.

٤- ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصَيَّامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٥٠).

تشير هذه الآية إلى أنّ الزوج إذا ظهر من زوجته حرم عليه وطئها إلا إذا كفر أولاً فإنه يحق له الوطء بعد ذلك، لقوله تعالى: ﴿فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَ﴾، ولا تجب الكفارة إذا لم يرد الوطء، والكفارة هي تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً وللظهار أحكام وشروط مذكورة في كتب الفقه، عن جميل بن دراج قال: «قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: الرجل يقول لامرأته: أنت على ظهر عمتي أو خالي؟ قال: هو الظهار. قال: وسألناه عن الظهار متى يقع على صاحبه الكفارة؟ فقال: إذا أراد أن ي الواقع أمرأته قلت: فإن طلقها قبل أن ي الواقعها، أعلىها كفاره؟ قال: سقطت الكفارة عنه. قلت: فإن صام بعضاً ثم مرض فأفطر، أيستقبل أم يتم ما بقي عليه؟ فقال: إن صام شهراً فمرض استقبل، وإن زاد على الشهور الآخر يوماً أو يومين بني على ما بقي قال: وقال: الحرة والمملوكة سواء، غير أنّ على الملوك نصف ما على الحرّ من الكفار، وليس عليه عتق ولا صدقة، إنما عليه صيام شهر»^(٥١).

فلسفة الكفارة في التشريع الإسلامي:

بالرجوع إلى آيات القرآن الكريم وإلى روايات أهل البيت عليهما السلام، وبالنظر إلى عنوان الكفارات، نجد أن هناك حكمة بالغة لتشريعها، حيث نجد أن الشارع المقدّس شرّعها من منطلق الحكمة والرحمة والعدل بعيداً عن الحقد والتشفّي والانتقام من الجاني كما في بعض التشريعات التي تفرق بين طبقة وأخرى كما في القانون الهندي^(٥٢)، أو تارة ينظر إلى نفس الجاني بغض النظر عن الجريمة، أو أخرى إلى نفس الجريمة وحجمها، وإغفال الجاني^(٥٣).

وتعتبر الكفارة من أشكال العقوبة الإيجابية التي تحقق أمرين، أحدهما: رعاية مصلحة المجتمع بعقوبة من وجبت عليه الكفارة عقوبة تزجره عن ارتكاب ما يؤثر سلباً على المجتمع ويزعزع من أمنه، فمثلاً: تحرير الرقبة، وإطعام عدد من المساكين، أو كسوتهم، ينعش فئة من فئات المجتمع في مستواها المعيشي. وثانيهما: رعاية مصلحة الفرد باعتبار أن الكفارة تزجره عمّا نهاه عنه الشارع المقدّس؛ لأنّ فيما نهاه المولى عنه مفسدة كبيرة عليه.

إذاً الكفارة عبادة إلهية يُشترط فيها ما يُشترط فيسائر العبادات، تهدف نحو صيانة الفرد والمجتمع.

آثار الكفارة:

أمّا الآثار المترتبة على الكفارة فهي كالآثار المترتبة على أيّة عبادة أخرى؛ لأنّها عبادة شرّعها الشارع المقدّس، فكما أن الصلاة والحج يربّيان الإنسان على القيم الأخلاقية والفضيلة، كذلك الكفارة فإنّها تزجر الإنسان عن الوقوع مرة أخرى في المخالفة، وتجعل منه إنساناً منتسباً لما قد يواجهه في مستقبل أيامه، بل قد توقفه على قيمته التي حفظها الله تعالى له من الناحية الدينية والاجتماعية، فمثلاً في القتل الخطأ الشارع المقدّس حمل القاتل كفارة معينة - مع أن القتل لم

يُكَفَّرُ عَنْهُ عَمَدًا - تَجْعَلُ مِنْهُ إِنْسَانًا حَذَرًا عَلَى حَيَاةِ الْآخَرِينَ وَحَفْظِ نَفْوَسِهِمْ وَحَرْصِهِ عَلَى حَيَاتِهِمْ^(٥٤).

أمّا فلسفة كفاررة الصيام، فإنّها تفيد ما يفيده نفس الصيام من تقوية إرادة الصائم على مقاومة نفسه وجهادها، ومن تكاملٍ ورقيٍّ للإنسان على المستوى المادي والمعنوي، وهذا واضح، لكن هناك فرق وهو أنّه في فترة صيام المُكَفَّرِ شهرين متتابعين أو ثلاثة أيام مثلاً، فإنه في هذه الفترة يعيش جوًّا المعصية التي ارتكبها، فيكون صيام الكفاررة بثابة محطة يقف فيها الشخص مع نفسه فيشعر بالنندم سواء على المعصية أم على الإهمال والتّقصير، فيعزّز بذلك على اجتناب كلّ ما يُسخّط الله تعالى ويتكامل بأداء هذه الكفاررة، وهذا يشير العلامة الفضلي رحمه الله إلى هذه المسألة: "التكفير قد يفعله الإنسان تعبيراً عن ندمه على خطئته، وقد يفعله تعويضاً عن الخطأ الذي صدر منه تداركاً لمصلحته أو درءاً لفسدته"^(٥٥).

الهوامش:

- (١) التّحلل . ٨٩
- (٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني - ص ٥٠٠.
- (٣) رياض المسائل - ج ٥ - ص ٢٨٣ .
- (٤) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني - ص ٣٦٦ .
- (٥) البقرة: ١٨٣-١٨٥ .
- (٦) البقرة: ١٨٥ .
- (٧) دروس تمهيدية في تفسير آيات الأحكام للشيخ الأيرولي - ج ١ - ص ١٥٤ .
- (٨) التفسير الكبير للفخر الرازي - ج ٢ - ص ٢٤١ .
- (٩) تفسير الكاشف - ج ١ - ص ٢٨٢ .
- (١٠) تفسير البرهان - ج ١ - ص ٣٩٤ .

- (١١) دروس تمهيدية في تفسير آيات الأحكام للشيخ الأ伊رواني - ج ١ - ص ١٥٤.
- (١٢) التفسير الكبير للفخر الرازي - ج ٢ - ص ٢٤٤.
- (١٣) البقرة: ١٨٥.
- (١٤) التفسير الكافش - ج ٢ - ص ٢٨٣.
- (١٥) تفسير الميزان - ج ٢ - ص ١١.
- (١٦) التفسير الكافش - ج ٢ - ص ٢٨٣.
- (١٧) تفسير الأمثل - ج ١ - ص ٤٥٥.
- (١٨) التهذيب - ج ٤ - ص ١٩٣.
- (١٩) البقرة: ١٨٣.
- (٢٠) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني - ص ٨٨١.
- (٢١) المصدر السابق.
- (٢٢) منتخب ميزان الحكمة - ص ٦٧٥.
- (٢٣) آل عمران ٢٠٠.
- (٢٤) الحجرات ١٣.
- (٢٥) منتخب ميزان الحكمة - ص ٦٧٢.
- (٢٦) آل عمران ٧٦.
- (٢٧) البقرة - ص ٢٨٢.
- (٢٨) المائدة - ص ٢٧.
- (٢٩) نهج البلاغة الخطبة ١٩٣.
- (٣٠) سورة البقرة: ١٨٧.
- (٣١) تفسير نور التلقين - ج ١ - ص ١٧٢.
- (٣٢) التفسير الكافش - ج ١ - ص ٢٩٠.
- (٣٣) تفسير العياشي - ج ١ - ص ١٠٣.
- (٣٤) تفسير الميزان - ج ٢ - ص ٤٢.
- (٣٥) التفسير الكافش - ج ١ - ص ٢٩٠.
- (٣٦) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني - ص ٥٧٩.

- (٣٧) وسائل الشيعة - ج ٤ - ص ٣٩٧.
- (٣٨) نظرات في الإعداد الروحي للشهيد الشيخ حسن معن - ص ٣٢٣.
- (٣٩) مجمع البحرين - ج ٣ - ص ٤٧٦.
- (٤٠) دروس تمهيدية في تفسير آيات الأحكام للشيخ الأيررواني - ج ١ - ص ٥٢٥.
- (٤١) سورة البقرة: ١٩٦.
- (٤٢) المصدر السابق - ص ٥٣٥.
- (٤٣) وسائل الشيعة - ج ٩ - ص ٣٠٨.
- (٤٤) سورة النساء: ٩٢.
- (٤٥) المصدر السابق - ج ١٥ - ص ٥٥٩.
- (٤٦) سورة المائدة: ٨٩.
- (٤٧) تفسير نور التقلين - ج ١ - ص ٦٦٥.
- (٤٨) التفسير الكاشف - ج ٣ - ص ١٢٠.
- (٤٩) التفسير الكبير - ج ٤ - ص ٤٢٢.
- (٥٠) سورة المجادلة: ٤٠.
- (٥١) تفسير البرهان - ج ٧ - ص ٤٧٠.
- (٥٢) فلسفة العقوبة علي جعفر - ص ١٠.
- (٥٣) التشريع الجنائي لعبدالقادر عودة - ج ٢ - ص ١٧.
- (٥٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - ج ٥ - ص ٣١٤.
- (٥٥) مبادئ علم الفقه للفضلي - ج ٢ - ص ٨١.



حقيقة مصحف فاطمة عليها السلام

الشيخ إبراهيم الأنصاري

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، ثم الصلاة
والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد صلى
الله عليه وعلى آله الموصومين المنتجبين.

«السلام عليك أيتها الصديقة الشهيدة، السلام عليك أيتها
الرضية المرضية، السلام عليك أيتها الفاضلة الزكية، السلام عليكِ
أيتها الحوراء الإنسية، السلام عليكِ أيتها التقية النقية، السلام
عليكِ أيتها الحدثة العليمة، السلام عليكِ أيتها المغصوبة المظلومة،
السلام عليكِ أيتها المضطهدة المقهرة، السلام عليكِ يا فاطمة بنت رسول الله ورحمه
الله وبركاته»^(١).

الإمام الخميني تَشَّعُّ يتحدث عن الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ

الأسوة هي الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ:

”إنها امرأة قد ربّت في حجرتها الصغيرة وبيتها المتواضع أناساً قد انبثق نورهم من البساطة إلى عمق الأفلاك، وكان ذلك النور يتلألأ من عالم الملك إلى جانب الملائكة الأعلى، صلوات الله وسلامه على هذه الحجرة المتواضعة التي أصبحت تجلّياً لنور العظمة الإلهية ومحلّاً ل التربية المصطفين من أولاد آدم“^(٢).

وفي كلمة أخرى يشير الإمام الخميني تَشَّعُّ إلى الحديث المعروف المنقول في الكافي الشريف وهو: الكافي محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن محبوب، عن ابن رئاب، عن أبي عبيده، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ مكتَّبَةً: «إنَّ فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ مَكَّتَبَةً مَكَّتَبَةً بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَلَّمَ خَمْسَةً وَسَبْعِينَ يَوْمًا، وَكَانَ دَخْلُهَا حَزْنٌ شَدِيدٌ عَلَى أَيْمَانِهَا، وَكَانَ جَبَرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَأْتِيهَا فَيُحْسِنُ عَزَاءَهَا عَلَى أَيْمَانِهَا، وَيُطَبِّقُ نَفْسَهَا، وَيُخْبِرُهَا عَنْ أَيْمَانِهَا وَمَكَانِهَا، وَيُخْبِرُهَا بِمَا يَكُونُ بَعْدَهَا فِي ذَرِّيَّتِهَا، وَكَانَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَكْتُبُ ذَلِكَ، فَهَذَا مَصْحَفُ فَاطِمَةٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٣).

ثم يُعلق تَشَّعُّ على هذه الرواية فيقول: ”ظاهر الرواية هو أنّه كانت مراودة، أي: ذهاب وإياب كثير لجبرائيل الأمين، وذلك في ٧٥ يوماً، ولا أظنّ حدوث هذا الأمر لغير الطيبة الأولى من الأنبياء العظام بحيث يتراوح إليهم جبرائيل الأمين في ٧٥ يوماً“ ثم:

”إنّ كاتب الوحي للصادقة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ كما أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان كاتب وحي رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ (الذي انتهى ذلك الوحي بارتحال رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَلَّمَ، إنّه ليس من السهل مجيء جبرائيل للإنسان. ولا يُتخيل أنّ جبرائيل يأتي لكلّ أحد وأنّ هذا الأمر من الأمور الممكنة!! إنّ هذا الأمر يفتقر إلى تناسب وانسجام بين روح من يتوجه إليه جبرائيل وبين مقام جبرائيل الذي هو الروح الأعظم. وليس هناك

فرق بين القولين سواء قلنا أن تزيل جبرئيل إنما هو بواسطة الروح الأعظم للولي أو النبي، وأنه هو الذي ينزل جبرئيل أم قلنا بأن الله سبحانه يأمره بأن يأتي ويخبر عنه سبحانه، فعلى القولين: الأول الذي هو قول بعض من أهل النظر أو الثاني الذي قال به بعض أهل الظاهر، فلو لا التناقض بين روح من يأتي إليه جبرئيل وبين جبرئيل نفسه الذي هو الروح الأعظم، لا يمكن هذا المعنى أعني (إتيان جبرئيل إليه) وهذا التناقض كان في الدرجة الأولى بين جبرئيل الذي هو الروح الأعظم والأنبياء وهم الرسول الأكرم محمد ﷺ، وموسى عليهما السلام، وعيسى عليهما السلام، وابراهيم عليهما السلام، وأمثالهم، ولم يتحقق هذا الأمر بالنسبة إلى الآخرين، حتى بالنسبة إلى الأنئمة عليهما السلام، أنا لم أثر على مستند يدل على نزول جبرئيل عليهم بنفس المستوى الذي وصلت إليه الزهراء عليها السلام، هذا الأمر كان منحصراً بالزهراء عليها السلام لا غيرها... وإنما بما يتعلق بالسائل التي كان جبرئيل يبيّن لها، فربما كانت إحدى تلك المسائل المبينة لها من قبل جبرئيل تتعلق بما يحدث في عهد واحد من ذريتها العظيمة أعني صاحب الأمر سلام الله عليه، وسائل إيران كان من ضمنها، نحن لا نعلم، ربما كان ذلك، وعلى أي حال إني أرى هذه الفضيلة أسمى فضائلها (مع أن جميع فضائلها عظيمة) وهي الفضيلة التي لم تحصل لغير الطبقة العالية من الأنبياء عليهما السلام (لا كلام) وبعض الأولياء الذين كانوا في رتبة تلك الطبقة من الأنبياء. وإنما قضية مراودة جبرئيل في الخامس والسبعين يوماً فلم يتحقق لأحد حتى الآن، وهذه من الفضائل المختصة بالصادقة سلام الله عليها^(٤).

ليلة القدر فاطمة:

عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» الليلة فاطمة، والقدر الله، فمن عرف فاطمة حق معرفتها فقد أدرك ليلة القدر، وإنما سميت فاطمة لأنَّ الخلق فطموا عن معرفتها^(٥).

أقول: ومن خلال هذا الحديث نستفيد أموراً كثيرةً:
فكما أنَّ المعنى الحقيقي لليلة القدر غير معروف للخلق، كذلك الزهراء علیها السلام
 فهي مجهولة للخلق أجمع، أعم من الناس ومن الملائكة ومن الجن، فهي باطن تلك
الليلة المباركة ولا يعرفها إلا الموصومون علیها السلام:
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾^(٦).

كذلك من حيث موضع قبرها فهناك ثلاثة احتمالات في ذلك، فربما يكون
القبر في البيت، وربما في البقيع، وربما بين المنبر وقبر الرسول؛ حيث ورد أنَّ
هناك روضة من رياض الجنة؟ إشارةً إلى قبرها سلام الله عليها، والليلة أيضاً
مرددةٌ بين ليالٍ ثلاث، وكما أنَّ الليل هو مظهر الستر والعفاف فهي سلام الله
عليها كذلك.

والأهم من ذلك:

أنَّه كما أنَّ ليلة القدر ظرف زماني قد احتمل كلَّ ما أنزله الله تعالى الذي
كان في الكتاب المكون في كتابه الكريم، ففاطمة علیها السلام ظرف مكاني قد احتمل كلَّ
ما أنزله الله تعالى، فهي سلام الله عليها محلٌّ لتجلي الاسم الأعظم، ومن هنا نسبت
إلى الله تعالى مباشرةً من غير واسطة، وهذا يدلُّ على خصوصية في خلقها فالله
الفارطُ خلق فاطمة علیها السلام، ومن هنا نعرف ما ذكره الإمام الصادق علیه السلام حيث قال:
«فمن عرف فاطمة حق معرفتها، فقد أدرك ليلة القدر»^(٧).

فلا يمكن إدراك تلك الليلة المباركة والوصول إلى فضائلها إلا بمعرفة
فاطمة علیها السلام.

وفي حديث آخر في الكافي: عن أحمد بن مهران وعلي بن إبراهيم جمِيعاً، عن
محمد بن علي، عن الحسن بن راشد، عن يعقوب بن جعفر بن إبراهيم، قال:
«كنت عند أبي الحسن موسى علیه السلام إذ أتاه رجل نصراوي فسألته عن مسائل، فكان

فيما سأله أنس قال له: أخبرني عن ﴿حُمٌ * وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أُمْرٍ حَكِيمٌ﴾، ما تفسيرها في الباطن؟ فقال: ... وأمّا الليلة ففاطمة ظليلة».

فاطمة محدثة:

فعلى ضوء ما قلنا نعرف السر في إطلاق المحدثة عليها، وفي هذا المجال هناك أحاديث كثيرة دالة على أن الملائكة كانت تهبط عليها من السماء وتناديها فتحدّثهم ويحدّثونها، كما ورد في كتاب علل الشرائع للصدوق رضوان الله تعالى عليه: بإسناده حدثنا علي بن جعفر الحضرمي بصر من ذهابه سنة قال: حدثنا سليمان، قال محمد بن أبي بكر لما قرأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ ولا محدث، قلت: وهل يحدّث الملائكة إلا الأنبياء قال: إن مريم لم تكن نبية وكانت محدثة، وأم موسى بن عمران كانت محدثة ولم تكن نبية، وسارة امرأة إبراهيم قد عاينت الملائكة فبشروها بِإِسْحَاقَ، ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، ولم تكن نبية، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت محدثة ولم تكن نبية^(٨).

أهمية المصحف:

لمعرفة أهمية مصحف الزهراء ظليلة يكفي التأمل في الحديث التالي المنقول في كتاب الكافي الشريف للكليني رضوان الله تعالى عليه: أحمد بن محمد، ومحمد بن الحسين، عن ابن حبوب، عن ابن رئاب، عن أبي عبيدة قال : «سأل أبا عبد الله ظليلة بعض أصحابنا عن الجفر، فقال: هو جلد ثور مملوء علمًا، فقال له: ما الجامع؟ قال: تلك صحفة طولها سبعون ذراعاً، في عرض الأديم، مثل فخذ القاج، فيها كل ما يحتاج الناس إليه، وليس من قضية إلا وفيها، حتى أرش الخدش، قال له: فمصحف فاطمة، فسكت طويلاً، ثم قال: إنكم ليبحثون عمّا تريدون وعمّا لا تريدون، إن فاطمة مكتت بعد رسول الله ﷺ خمسة وسبعين يوماً، وقد كان دخلها

حزن شديد على أبيها، وكان جبرئيل يأتيها، فيحسن عزاءها على أبيها، ويُطيب نفسها، وينبّهها عن أبيها ومكانته، وينبّهها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان علي عليه السلام يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة»^(٩).

أقول:

إنَّ الإمام الصادق عليه السلام يهذب حماد بن عثمان، ليسأل عن مصحف فاطمة عليه السلام، فهو سأل عن حقيقة المصحف، بعد ما سمع بعض الشيء عن الجفر والجامعة، وتلاحظ أنه عليه السلام في بيان الجفر قال: «جلد ثور ملوء علمًا»، ومن الواضح أنَّ الإتيان بالنكرة المنوطة، أعني «علمًا» يدلُّ على عظمة ذلك العلم، كما أنَّ كلمة «تلك» في قوله عليه السلام عندما سأله عن الجامعة: «تلك صحيفة طوها سبعون»، مع أنَّ الجامعة فيها كلُّ ما يحتاج إليها الناس، حتى أنها تشمل على جميع الأحكام الشرعية، بل جميع القضايا «وليس من قضية إلا وفيها» حتى أرش المحدث.

ولكن، مجرد أن سأله عن مصحف الزهراء، واجه موقفاً غريباً من الإمام عليه السلام حيث «سكت طويلاً»، وهذا السكتة، إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على عظمة الأمر وأهميته: ثم قال: «إنكم لتبخثون عمماً تريدون وعمماً لا تريدون»، وعندما يجيب عليه عن سؤال الرأوي، يبيّن له الأمر بنحوِ محمّل لأنَّه وغيره من الناس لا يمكنهم تحمل حقيقة المصحف.

نَزْوَلُ الْمَلَكِ:

الأرضية التي من أجلها جاء الملك (وإن جاء في بعض الأخبار «إملاء رسول الله وخط على»)، فالظاهر أنَّ المقصود من رسول الله هو جبرئيل الأمين جماعاً بينه وبين الأخبار الكثيرة الأخرى، وقد أطلقت كلمة الرسول على جبرئيل في القرآن الكريم وفي الأحاديث الشريفة، قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لَأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾^(١٠)، ولهذا لم يأت

حرف (ص) المختصة برسول الله في تلك الرواية، والجدير بالذكر ما ورد في نفس الرواية: «وخلفت فاطمة عليها السلام مصحفًا ما هو قرآن، ولكنه كلام من كلام الله أنزله عليها، إملاء رسول الله وخط على عليها السلام»^(١١)، أعني الروح الأمين إلى الصديقة فاطمة سلام الله عليها، وحدثها، هي في شدة حزnya على أبيها، صلوات الله وسلامه عليه.

فقد ورد في حديث الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إن فاطمة عليها السلام مكثت بعد رسول الله عليه السلام وسلم، خمسة وسبعين يوماً، وكان قد دخلها حزن شديد على أبيها...»^(١٢).

وفي حديث بصائر الدرجات: «إن الله تبارك وتعالى لما قبض نبيه عليه السلام وسلم، دخل على فاطمة من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله عزوجل، فأرسل إليها ملكاً...». وكان حزnya من وفاة أبيها، قد وصل إلى غاية من الشدة، بحيث لا يعلمه إلا الله عزوجل.

من هنا يمكننا معرفة عمق معاني كثير من الأحاديث التي وردت في شأنها، وفي شأن أبيها، صلوات الله وسلامه عليهمما، وأيضاً في العلاقة الحاصلة بين الأب والبنت، وبينهما وبين الله.

فمنها ما روى العلامة الجلسي: «قال: خرج النبي عليه السلام وسلم، وهو آخذ ييد فاطمة عليها السلام، فقال: من عرف هذه فقد عرفها، ومن لم يعرفها، فهي فاطمة بنت محمد، وهي بضعة مني، وهي قلبي، وروحني التي بين جنبي، فمن آذها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»^(١٣).

وفي الحديث المنقول عن جعفر بن محمد عليه السلام، قال: «قال رسول الله عليه السلام وسلم: إن الله ليغضب لغضب فاطمة، ويرضى لرضها»^(١٤).

أقول:

هذه العلاقة القوية، قد اشلت بعد وفاة الرسول الأكرم عليه السلام وسلم، على

مستوى عالم الملك والدنيا، فقدانه صلوات الله عليه للزهراء سلام الله عليها، يعني فقدان كل شيء، فمن الطبيعي أن يشتدد حزنهما، بحيث لا يعلمه إلا الله.

فماذا حصل بعد الحزن؟

الأحاديث تدل على أن جبريل كان يأتيها، كما في حديث الكافي، وفي الحديث المنقول عن بصائر الدرجات ورد: «دخل على فاطمة من وفاته، من الحزن ما لا يعلمه إلا الله بِرَحْمَةِ رَبِّكُنَّ فأرسل إليها ملكاً...».

ولا يخفى عليك، ما يستفاد من كلمة الفاء، في فأرسل إليها ملكاً، حيث تدل على أن الملك إنما أرسل إليها، لأجل حزnya على أبيها، بحيث إن الحزن لم يكن منقطعاً، بل كان مستمراً طوال خمسة وسبعين يوماً، فكان جبريل يتراود إليها بنحو مستمرٍ، كما في حديث الكافي الذي مرّ.

«مكثت بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمسة وسبعين يوماً، وكان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتيها فیحسن عزاءها على أبيها، ويُطیب نفسها، ويُخبرها عن أبيها، ومکانه، ويُخبرها بما يكون بعدها في ذریتها».

تأمل في كلام الإمام الخميني قَدِّشَ اللَّهُ مُحَمَّدَ حيث شرح الرواية بقوله: "ظاهر الرواية هو أنه كانت مراودة، أي: ذهاب وإياب كثير لجبريل الأمين، وذلك في خمس وسبعين يوماً، ولا أظن حدوث هذا الأمر، لغير الطبقة الأولى من الأنبياء العظام، بحيث يتراود إليهم جبريل الأمين في خمس وسبعين يوماً".

لذلك، نشاهد الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ قد استخدم الأفعال المضارعة، الدالة على الاستمرار، وهي «يأتيها فیحسن... ويُطیب... يُخبرها».

مهمة جبريل الأمين:

كانت مهمة الملك المرسل إليها هي:

- 1- أن يحسن عزاء الزهراء عَلَيْهِ السَّلَامُ على أبيها، ويسلي عنها غمها.

ମୁଖ୍ୟ ଧୀର୍ଜନ

جميع حالاته فكان مأنوساً بصوت جبرئيل.

فهو سلام الله عليه، كان صاحب فكرة كتابة المصحف، حيث يسمع صوت روح الأمين، فيكتب كلما يسمعه، إلى أن اجتمع في مصحف متكملاً، وهو مصحف الزهراء عليها السلام.

ولا يخفى عليك، أنه ليس من السهل كتابة ما يلقيه جبرئيل، بل كان ذلك ضمن العلوم الخاصة الإلهية التي امتاز بها أمير المؤمنين عليه السلام، فهو الذي كتب من قبل ما أملأه رسول الله عليه، وهو الذي جمع القرآن الكريم في المصحف الشريف كما هو ثابت في محله.

محتوى المصحف:

إن المصحف يشتمل على أمورٍ كثيرة تتلخص في كلمة واحدة وهي: استيعابه لجميع الحوادث الخطيرة الآتية، خصوصاً ما سيواجه ذريتها، من المصائب والبلایا، وأيضاً الانتصارات، ويشتمل على أسماء جميع الملوك والحكام إلى يوم القيمة، كما ورد في الحديث: «ما من نبیٌ ولا وصیٌ ولا ملك إلا وفي مصحف فاطمة»^(۱).

ويحتوي على أمور ترجع إلى شخص رسول الله صلوات الله عليه وسلام، وأيضاً يشتمل على وصيتها سلام الله عليها.

ابن هاشم، عن يحيى بن أبي عمران، عن يونس، عن رجل، عن سليمان بن خالد قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «... فإنَّ فيه وصيَّةً فاطمة عليها السلام»^(۲).

ومن الطبيعي أنَّ الوصيَّة تشمل على أمور خاصة، تتعلق بجزئها عليها السلام، وبالصائب الواردة عليها، من أعدائها، ليُنفِّذها ابنها الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر، عجل الله تعالى فرجه الشريف، لأنَّه هو الإمام المبسوط اليد، الذي به يعلأ الله الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً.

الأئمة عليهم السلام ومصحف فاطمة:

كان الإمام الصادق عليه السلام يؤكّد دائمًا على علوم أهل البيت عليهم السلام، ففي الحديث أنّه "كان يقول: أنَّ علمهم عليه السلام (غابر ومزبور، ونكتٌ في القلوب ونقر في الأسماع)، وأئمّهم يتلّكون «الجفر الأحمر، والجفر الأبيض، ومصحف فاطمة، والجامعة»، فهم عليه السلام رغم ارتباطهم وسماعهم صوت الملائكة، ورغم تبعيّتهم لمصحف الإمام عليٌّ الذي هو الجامعة المشتملة على جميع الأحكام حتى أرش المدش، ورغم معرفتهم بعلم الجفر الذي يشتمل على «علم ما يحتاج إليها الناس إلى يوم القيمة من حلال وحرام»، إلاّ أنّهم كانوا يعتمدون في فهم الحوادث الخطيرة على مصحف فاطمة عليه السلام كما ورد في الحديث: «فتحن تبع ما فيها فلا ندعوها»، حيث يشتمل على الحوادث الخارجية جميًعاً. وأيضاً أسماء الملوك إلى يوم القيمة، ففي الحديث: «سئل عن محمد بن عبد الله بن الحسن فقال عليه السلام: ما من نبِيٍّ ولا وصيٍّ ولا ملك إلاّ وهو في كتاب عندي. يعني مصحف فاطمة، والله ما محمد بن عبد الله فيه اسم»^(١٨).

وفي حديث آخر:

«عن الوليد بن صبيح قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام، يا وليد إنّي نظرت في مصحف فاطمة عليه السلام، فلم أجده لبني فلان فيها إلاّ كغبار العُل»^(١٩).

وعند التأمل في جملة إنّي نظرتُ نعرف أنّهم عليه السلام كانوا يدقّقون النظر في مصحف أمهم فاطمة عليه السلام، عند طرُو حادثة من الحوادث المهمة، أو ظهور من يدعى الملك وإمامية المسلمين، بل قد وصل المصحف إلى مستوى من الرفعة والسموّ بحيث صار مصدر سرورهم واستبشارهم، كما يستفاد من جملة «قرْتْ عينه» في الحديث التالي: عن فضيل بن عثمان عن الحذاء قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا عبيدة كان عنده سيف رسول الله عليه السلام وسلم، ودرعه ورأيته المغلبة، ومصحف فاطمة عليه السلام قرْتْ عينه»^(٢٠).

هل مصحف فاطمة هو القرآن؟

إنَّ الكثيِرَ مِنَ النَّاسِ كَانُوا وَلَا زَالُوا يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ الْمَسْحَفَ يَشْتَمِلُ عَلَى الآيَاتِ الْقُرَآنِيَّةِ الشَّرِيفَةِ، أَوْ أَنَّ هُنَاكَ قُرْآنًا آخَرَ عِنْدَ الشِّعْعَةِ، كَمَا يَزَعُمُ بَعْضُ الْجُهَّالَ مِنَ الْعَامَّةِ.

ولكِنَّ الْوَاقِعُ هُوَ خَلَافُ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَسْحَفَ لَا يَشْتَمِلُ حَقًّا عَلَى آيَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، كَمَا هُوَ الْمُسْتَفَادُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْكَثِيرَةِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْقُرْآنِ وَلَا يَشْبَهُهُ مِنْ نَاحِيَةِ الْمُتَوْاَلِ أَصْلًا، فَهُوَ مِنْ مَقْوِلَةِ أُخْرَى، فَأَحَادِيثُنَا صَرِيقَةٌ فِي ذَلِكَ فَقْدٌ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ: «...عَنْ عَلَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ... مَا فِيهِ آيَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٢١).

وَفِي أَحَادِيثِ أَخْرَى: «...عَنْ عَلَى بْنِ الْحَسِينِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ... عَنْدَنَا مَسْحَفٌ فاطِمَة، أَمَا وَاللَّهِ مَا فِيهِ حِرْفٌ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٢٢).

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرَ، عَنْ مُوسَى بْنِ جَعْفَرَ، عَنْ الْوَشَاءِ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «مَسْحَفٌ فاطِمَة عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ...»^(٢٣).

عَنْ عَنْبَسَةِ بْنِ مَصْعَبٍ قَالَ: كَنَّا عَنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ... «وَمَسْحَفٌ فاطِمَة أَمَا وَاللَّهِ مَا أَزْعَمُ أَنَّهُ قُرْآنٌ»^(٢٤).

عَنْ مَلَاحِظَةِ الْأَحَادِيثِ تَعْرِفُ أَنَّ الشَّبَهَةَ كَانَتْ مُنْتَشِرَةً فِي عَصْرِ الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَهَذَا نَرَاهُمْ يَسْتَنْكِرُونَ بِكُلِّ حَزْمٍ وَجَدٍّ، وَيَتَوَسَّلُونَ بِالْقُسْمِ لِنَفِيِّ ذَلِكَ، غَيْرَ أَنَّ هُنَاكَ حَدِيثًا يَدْلِلُ عَلَى أَنَّ الْمَسْحَفَ: «فِيهِ مِثْلُ قُرْآنِكُمْ هَذَا ثَلَاثَ مَرَاتٍ»^(٢٥).

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمَقْصُودُ هُوَ مِنْ نَاحِيَةِ الْكَمْيَةِ وَحِجْمِ الْمَعْلُومَاتِ، لَا مِنْ حِيْثِ الْمُتَوْاَلِ.

وَأَيْضًاً: الْمُسْتَفَادُ مِنَ الْأَحَادِيثِ كَثِيرًا أَنَّ مَسْحَفَ الرَّهْرَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ

علامات الإمام:

من الحال والحرام أصلًا، ومن تلك الأحاديث قوله عليه السلام: «أما إله ليس من الحال والحرام»^(٢).

- هناك علامات ذكرت كدليل لإمامية الإمام علي عليه السلام تخلص في الأمور التالية:
 - صحيفة فيها أسماء شيعتهم إلى يوم القيمة.
 - صحيفة فيها أسماء أعدائهم إلى يوم القيمة.
 - تكون عنده الجامعة، وهي مصحف على علي عليه السلام.
 - يكون عنده الجفر الأكبر والأصغر.
 - يكون عنده مصحف فاطمة عليها السلام.

من خلال ذلك نعرف أنَّ مصحف فاطمة عليه السلام مع صغر حجمه، يشتمل على رموز كثيرة ومحاسبات دقيقة، يمكن من خلال تلك المحاسبات الوصول إلى الحقائق، فهو كعلم الجفر الذي هو علم الحروف والأعداد.

وأما مصحف علي عليه السلام فيختلف تماماً، ولأهميةه نفرد له عنواناً مستقلاً

فنقول:

مصحف علي (الجامعة):

إنَّ هناك أحاديثاً تبيِّن مصحفاً آخر، هو مصحف علي عليه السلام ومن تلك الأحاديث: محمد بن عيسى، عن الأهوازي، عن فضالة، عن قاسم بن بريد، عن محمد، عن أحد همأ عليه السلام قال: «إنَّ عندنا صحيفة من كتاب علي عليه السلام، أو مصحف علي عليه السلام طوحاً سبعون ذراعاً»^(٢٧).

وعند استقراء الأخبار الواردة في هذا الباب نصل إلى النتيجة الآتية وهي أنَّ (مصحف علي عليه السلام) هو نفس الجامعة المذكورة في الأحاديث السابقة، وهي الصحيفة التي طوحاً سبعون ذراعاً، وفيها كلُّ ما يحتاج إليها الناس).



وهذا المصحف يتميز بالأمور التالية:

١- أنه بإملاء رسول الله محمد عليه السلام وخط علي عليه السلام، بيده المباركة:
«إملاء رسول الله عليه السلام وخط علي عليه السلام»^(٢٨).

٢- يحتوي على جميع الأحكام من الحال والحرام، وأحكام الإرث والحدود،
وفي هذا المجال وردت أحاديث كثيرة إليك بعض المقاطع منها:

«فيها الحال والحرام والغرائز»^(٢٩)، «كل شيء حتى أرش الخدش»^(٣٠)، «فيها كل
ما يحتاج إليه حتى أرش الخدش، والظفر»^(٣١)، «حتى أن فيه أرش الخدش، والجلدة،
ونصف الجلدة»^(٣٢)، «وليست من قضية إلا وفيها».

وقد ذكر الإمام الصادق عليه أ Favor من الأحكام الواردة في مصحف
علي عليه السلام حيث قال: «فيه أن النساء ليس لهن من عقار الرجل إذا هو توفى عنها
شيء»^(٣٣).

٣- الأحكام المذكورة في الجامعة صريحة واضحة غير مبهمة، بخلاف مصحف
الزهراء، فإنها رموز علمية لا تُعرف إلا بالتأمل والنظر كما مر، ولذلك صار طول
الجامعة سبعون ذراعاً، وربما هو إشارة إلى مدى سعتها، بحيث إنها وضعت في
بيت كبير، كما يصرح بذلك حديث حمران بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال:
أشار إلى بيت كبير، وقال: «يا حمران إن في هذا البيت صحيفة طولها سبعون ذراعاً،
بنخط علي عليه السلام، وإملاء رسول الله عليه السلام، لو ولينا الناس لحكمنا بما أنزل الله، لم نعد ما
في هذه الصحيفة»^(٣٤).

٤- الجامعة كانت تُلف، وكانت من السمك وكأنها فخذ فالج.

فما هو المقصود من فخذ فالج؟

هناك احتمالان:

ألف: أن الجامعة كانت ضخمة للغاية وكأنها فخذ فالج، وهو على ما بيشه

وربما يُقوّي هذا الاحتمال وجود الصحيفة في بيت كبير، وأن طوها سبعون ذراعاً، وغير ذلك من الشواهد المؤيدة، وإن كانت هناك شواهد أخرى تُضعف هذا الاحتمال، ومنها أنهم عليهما كانوا يحملونها وهي مطوية كما ورد في الحديث الآتي: محمد بن الحسين، عن جعفر بن بشير، عن الحسين، عن أبي مخلد، عن عبد الملك قال: "دعا أبو جعفر بكتاب على فجاء به جعفر، مثل فخذ الرجل مطوي".^(٣٥) فما هو الرجل؟ هل هو بكسر الراء أو بفتحها؟ إذا كان بفتحها، فيكون المراد من الفالج الاحتمال الثاني وهو:

ب: المبتلى بالفالج، كما ذكر اللغويون في معنى الكلمة فقالوا: الفالج بكسر اللام، استرخاء عام لأحد شقّي البدن طولاً من الرأس إلى القدم.

فحينئذ قد استعمل اسم الفاعل أعني الفالج وقدّم منه اسم المفعول، وهو المفلوج، وهذا النوع من الاستعمال متداول بكثرة في اللغة العربية، وعليه تكون الصحيفة حين اللف صغيرة كفخذ الفالج، وذلك لرقّة الجلد الذي كُتُبَتْ فيه.

وهنا يشار سؤال ينبغي الإجابة عليه وهو:

لماذا خصّص له بيتٌ كبير؟

وفي الجواب أقول:

أولاً: هذا الإشكال يرد حتى على الاحتمال الأول، لأن فخذ الجمل مهما كبر لا يستوعب بيته.

ثانياً: ربما كان أئمننا عليهما يفتحون الجامعة وينشرونهما في ذلك البيت حفاظاً عليها من التلف، وشاهد ذلك الحديث التالي:

أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير،

عن أبي جعفر قال: «أخرج إلى أبو جعفر عليه السلام صحيحة فيها الحلال والحرام والفرائض، قلت: ما هذه؟ قال: هذه إملاء رسول الله عليه السلام وسلم، وخطه على عليه السلام بيده، قال: قلت: فما تُبلي؟ قال: فما يُلِيهَا قلت: وما تُدرِسُ؟ قال: وما يُدْرِسُها، قال: هي الجامعة أو من الجامعة»^(٣٦).

تلاحظ أنَّ أبا بصير يسأل عن أنَّ الصحيفة هل تتلف وتنمحى، وهذا السؤال يدلُّنا على أنَّ هذا الأمرَ كان مُحتملاً، حيث إنَّ الصحيفة كانت مكتوبة على أديم، كما في حديث ابن رئاب عن أبي عبيدة قال: «سأَلَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْضَ أَصْحَابِنَا عَنِ الْجَفَرِ فَقَالَ: هُوَ جَلْدٌ ثُورٌ مَلْوَءٌ عِلْمًا فَقَالَ لَهُ: مَا الْجَامِعَةُ؟ قَالَ: تِلْكَ صَحِيفَةً طَوْلُهَا سَبْعُونَ ذَرَاعًا، فِي عَرْضِ الْأَدِيمِ مِثْلُ فَخْذِ الْفَالِجِ»^(٣٧).

يقول العلامة المجلسي: "الأديم الجلد أو أحمره أو مدبوغه"^(٣٨).

وجاء في الحديث حول الجفر: «عَنْدَنَا الْجَفَرُ، وَهُوَ أَدِيمٌ عَكَاظِيٌّ قَدْ كُتِبَ فِيهِ»^(٣٩).

وهو شاهد على ما قاله اللغويون من أنَّ الأديم هو الجلد، فكانوا يكتبون على الجلد، ومن الواضح أنَّ الجلد لو أصابته حرارة شديدة يتتصق بعضه ببعضٍ فيتلف، إلا أنَّه يُنشر.

٥- إنَّ في مصحف علي عليه السلام ما أنزل الله من الأحكام والقضايا، كما في حديث حمران: «لَوْ وَلَيْنَا النَّاسُ لَحَكَمْنَا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، لَمْ نَعْدُ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ»^(٤٠).

وفي الختام نبتهل إلى الباري جل شأنه ونتضرع إليه وندعوه ليُعجل في فرج قرّة أعيننا الإمام الثاني عشر المهدى المنتظر روحى لتراب مقدمه الفداء، وأن يجعلنا من أنصاره والذابين عنه والمستشهدين بين يديه، والآخذين بثأر الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها أفضل صلوات الله وملائكته، وثار ابنها سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليهما السلام. والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

- (١) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ١٩٥، رواية ١٢، باب ٥.

(٢) صحيفة التور، ج ١٦، ص ١٢٥.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٥٤٥، رواية ٦٣، باب ٢.

(٤) صحيفة التور، ج ١٩، ص ٢٧٨.

(٥) البحار، ج ٤٣، ص ٦٥، رواية ٥٨، باب ٣.

(٦) القدر: ٢.

(٧) البحار، ج ٤٣، ص ٦٥، رواية ٥٨، باب ٣.

(٨) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٧٩، رواية ٦٦، باب ٣.

(٩) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٤١، رواية ٧٢، باب ١.

(١٠) مريم: ١٩-١٨.

(١١) راجع البحار ج ٢٦، ص ٤١، رواية ٧٣، باب ١.

(١٢) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٥٤٥، رواية ٦٣، باب ٢.

(١٣) بحار الأنوار، ج ٣٤، ص ٥٤.

(١٤) بحار الأنوار، ج ٣٤، ص ٥٤.

(١٥) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٤١، رواية ٧٣، باب ١.

(١٦) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣٢، رواية ٢٩، باب ٤.

(١٧) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٤٣، رواية ٧٦، باب ١.

(١٨) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣٢، رواية ٢٩، باب ٤.

(١٩) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٤٨، رواية ٩١، باب ١.

(٢٠) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢١١، رواية ٢٢، باب ١٦.

(٢١) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٤٢، رواية ٧٤، باب ١.

(٢٢) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٤٦، رواية ٨٤، باب ١.

(٢٣) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٤٨، رواية ٨٩، باب ١.

(٢٤) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٣٣، رواية ٥٠، باب ١.

- (٢٥) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٣٨، روایة ٧٠، باب .
- (٢٦) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٤٤، روایة ٧٧، باب ١.
- (٢٧) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٣٣، روایة ٥٠، باب ١.
- (٢٨) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٤٨، روایة ٩٠، باب ١.
- (٢٩) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٣، روایة ١٦، باب ١.
- (٣٠) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٤٨، روایة ٩٠، باب ١.
- (٣١) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٤١، روایة ٧٣، باب ١.
- (٣٢) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٨، روایة ١، باب ١.
- (٣٣) بحار الأنوار، ج ١٠٤، ص ٣٥٢، روایة ٩، باب ٧.
- (٣٤) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٢، روایة ١٢، باب ١.
- (٣٥) بحار الأنوار، ج ١٠٤، ص ٣٥٢، روایة ٩، باب ٧.
- (٣٦) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٣، روایة ١٦، باب ١.
- (٣٧) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٤١، روایة ٧٢، باب ١.
- (٣٨) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٢، روایة ٩، باب ١.
- (٣٩) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٤٨، روایة ٩٠، باب ١.
- (٤٠) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٢، روایة ٢٢، باب ١.



سيماه فاطمة صَلواتُ اللهِ عَلَيْهَا فِي القرآن

الشيخ حسين كنجي

ترجمة وتحقيق: **الشيخ رائد عبد الكريم الخنزيري**

بيان خصوصيات فاطمة في القرآن

القرآن هو كتاب صناعة الإنسان، نزل هذا الكتاب السماوي من أجل تعريف وبيان احتياجات البشر التي من جملتها التوحيد، النبوة، الإمامة، المسائل الأخلاقية و...، بين السور والآيات الكثيرة يوجد بيان أمور متنوعة حول الأنبياء والأوصياء الإلهيين عليهما السلام وذكر فضائلهم، لكن لا توجد سورة نازلة بصورة كاملة في وصف النبي و حتى خاتم الأنبياء عليهما السلام والأئمة الطاهرين عليهما السلام. مثال ذلك سورة الإنسان التي هي معرفة لأهل البيت عليهما السلام والنبي الأكرم عليهما السلام فقط فيها ثانية عشر آية مختصة بهم،

وهي بصورة مشتركة وليس منفصلة أيضاً، توجد آيات أخرى نازلة في سور القرآن المختلفة في شأن فضائل أهل البيت عليهم السلام هكذا أيضاً.

هذه الطريقة الكلية في مورد واحد لم يعمل به، يعني على أنه توجد عدّة آيات، سواء بصورة مختصة أم مشتركة في بعض السور، كذلك توجد سورة بصورة (كاملة) في تعريف وشرح فضائل شخصية ومقام السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

كثير النبي الاكرم عليه وآله هي الشخصية الوحيدة فقط التي نزلت فيها سورتان كاملتان لأجل بيان فضائلها وخصوصياتها، هما سورتا القدر والكوثر، على أنه توجد آيات كثيرة في السور القرآنية تُعرّف السيدة الزهراء عليها السلام وتفسّر خصوصياتها وامتيازاتها أيضاً.

القرآن الكريم يذكر ألقاباً مختصة ومنحصرة بفرد واحد، إذا دقق إنسان في هذه الامتيازات والخصوصيات، حتماً سوف يحصل على نتائج عالية وشريفة من جهة المقامات العالية والعرفانية؛ ولذلك لأجل معرفة وإدراك عظمة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام لا بد من أن يتمسك الإنسان بالقرآن ولا يكتفي بما يحصل عليه ويفهمه بنفسه؛ لأن السيدة الزهراء المرضية عليها السلام أعلى من وهمنا وخيالنا، ومن هذه الجهة لا يستطيع شخص أن يكون في صدد بيان الفضائل التي هي بدون عدٍ وإحصاء. لدينا أمل على أن هذا المختصر -بقدر التوفيق- نستطيع فيه الإشارة إلى زاوية من هذا المحيط الذي لا انتهاء له من صفات وخصال عزيزة الله، التي لم يشترك في هذه الخصوصيات أحد غير والدتها وزوجها.

كتاب فضائلك لا يكفيه البحر حتى أبيض الصفحات وأعدها [شعر مترجم]
نقول بصورة أفضل:

فيك يا أعيوبة الكون غدا الفكر كليلًا كلّما أقدم فكري فيك شبراً فرّ ميلاً

لذلك الأفضل أن نضع العلم الشخصي على جانب، وننظر إلى فاطمة الزّهراء عليها السلام نظرة الله لها ونعرفها به، ولنرى كيف يعرفها الله المتعال.

فاطمة ليلة القدر

يقول الله في سورة القدر:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾

من جملة التعبيرات التي استخدمها الله المتن حول السيدة فاطمة الزّهراء عليها السلام ﴿لَيْلَةُ الْقَدْر﴾، هذا التعبير القرآني عجيب جداً، وله نكات قيمة بحيث يتضمن بحراً من المعارف.

شأن نزول سورة القدر:

المرحوم الشيخ محمد تقى الجلسي قىتلى فى كتاب "روضة المتقيين"، وكذلك ملا محسن الكاشانى فى "تفسير الصافى" ذكرًا حول شأن نزول هذه السورة: "رأى النبي الأكرم عليه السلام فى إحدى الليالي رؤيا أفرزته، ما إن يرحل حتى يصعد بنو أمية واحداً بعد واحد على منبره، ويحكمون الناس، ويغيّروا مسيرة الإسلام ويحرّقون الناس ويسخوّهم (معنوياً) فاستيقظ من نومه وهو محزون مغموم".

لم يكن حزن وغم الرسول عليه السلام أمراً شخصياً، بل بسبب أنه لماذا هؤلاء الناس لا يذهبون تجاه الحق، بل يسيرون إلى الضلال، حتى تحمل كل هذا الأذى والصعوبات والمتابع طوال ثالث عشر سنّة هدرأ؛ ولذلك نزل جبرائيل عليه بسورة القدر.

تفسير ملكي وملكتي:

بالنسبة إلى القرآن يوجد تفسيران: أحدهما ظاهريٌّ وملكيٌّ، والآخر باطنيٌّ وملكتيٌّ؛ كذلك كلّ شيءٍ له ظاهر وباطن، الملك مرتبط بظاهر الأشياء، لكن الملكوت له ارتباط بباطن الأشياء. لأجل ذلك نضرب مثلاً: بني الإنسان كلهم متساوون في الظاهر، لكن بالنسبة إلى الباطن يوجد بينهم تفاوت؛ لأنّ ملكوتهم مختلف، الإنسان كان من أهل أيّ شيءٍ، فإنه سيكون ملكوته في ذلك الشكل، ولذلك كثيرٌ من الناس بالنسبة إلى الباطن حيوانات.

يوجد مُلك وملكت بين النباتات والشمار أيضاً، مثل ذلك: الرّمان ثمرة؛ ظاهرها وملكتها ملءُ البطن، لكن باطنها وملكتها هي جعل الباطن نورانياً. المال الحلال والحرام بالنسبة إلى الظاهر متساويان أيضاً، لكن بالنسبة للجهة الملكوتية يوجد تفاوت مع بعضهما، القرآن يقول: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ»^(١)، كل موجود في الوجود يسبح الله؛ لكن أنتم لا تفهمون ذلك التسبيح.

ما هي علّة عدم فهم تسبيع الأشياء في العالم؟ هل غير أننا فقط ظاهريون وملكيون، وغافلون عن الملكوت والباطن وحقائق الأمور. العاصي تغلق عين الباطن، وتمنع ارتباط الإنسان بملكوت الأشياء، ولذلك أولئك الذين هم مهذبون ويعملون على تزكية أنفسهم، لديهم أنس بملكوت وحقائق عالم الوجود.

ولذلك القرآن الكريم لديه مُلك وملكت، مُلك القرآن الكريم هو ظاهر الآيات، وملكته باطنها، ومن هذه الجهة فإنّ ظاهر هذه السورة مرتبط بليلة القدر لكن باطنها يريد بيان أمر آخر.

التفسير الملكي لسورة القدر:

التفسير الملكي لهذه السورة هكذا قالوا: إنّ المراد من ليلة القدر السيدة

الصَّدِيقَةِ الطَّاهِرَةِ عَلَيْهَا السَّلَامُ، يعْنِي أَئُّهَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَامٌ نَحْنُ أَعْطَيْنَاكَ فاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، كُلُّ هَذَا الْقَرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ فِي فَضَائِلِ وَجَمَالِ زَهْرَائِكَ عَلَيْهَا السَّلَامُ نَحْنُ أَعْطَيْنَاكَ لِيَلَةَ الْقَدْرِ، يعْنِي أَنَّ كُلَّ الْقَرْآنِ هُوَ فِي فَضَائِلِ الزَّهْرَاءِ الطَّاهِرَةِ عَلَيْهَا السَّلَامُ، وَلِذَلِكَ أَعْطَيْنَاكَ كُلَّ الْحَقَائِقِ وَالْمَعْرِفَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْقَرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهَذَا وَضْعُنَاهُ فِي ظَرْفٍ وَخَزِينَةِ الْوُجُودِ الشَّرِيفِ لِفاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، وَمِنْ هَذِهِ الْجَهَةِ السَّيِّدَةُ الزَّهْرَاءُ عَلَيْهَا السَّلَامُ حَامِلَةً كُلَّ الْأَنوارِ وَالْحَقَائِقِ وَالْمَعْرِفَةِ وَ...».

يقول الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الليلة فاطمة والقدر الله».

يعني فاطمة الله، في تعبير الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ مضافاً إلى الله تعالى، يعني فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ منسوبة إلى الله تعالى، يعني فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ إلهية، ولا بد من أن يُعرَفُها الله فقط.

شَبَهُ فاطِمَةَ بِلِيلَةِ الْقَدْرِ:

يوجَدُ مِنْ بَيْنِ الْرَوَايَاتِ أَنْوَاعُ مِنَ الشَّبَهِ بَيْنَ السَّيِّدَةِ فاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَبَيْنِ لِيلَةِ الْقَدْرِ وَيُكَيِّنُنَا أَنَّ نَحْصُلُ عَلَيْهَا فِي تَلْكَ الرَوَايَاتِ، وَسُوفَ نَشِيرُ إِلَى عَشْرَةِ وَجُوهٍ:

١- عدم معرفة ليلة القدر ومقام فاطمة

ليلة القدر مجهملة المنزلة والقيمة بالنسبة إلى الناس، ولا يوجد شخص يعرف ما هي القيمة الحقيقية لهذه الليلة؛ كذلك القرآن يقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، لم يعْرِفُوا الله حق معرفته.

الصَّدِيقَةِ الشَّهِيدَةِ عَلَيْهَا السَّلَامُ مجهملة المنزلة أيضاً؛ يعْنِي أَنَّهَا موجودة ملكوتية وسماوية مجهملة وغير معلومة القدر والمقام، ليس فقط في هذه الدنيا، بل حتى في عالم الآخرة لا تُعرَفُ بصورة كاملة، والله عَزَّ ذِيَّلَهُ وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَامٌ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقط هُمُ الْعَارِفُونَ مَقَامَهَا الْعَالِيَّ.

يقول النبي الأكرم عليه وآله: «لو كان الحُسنُ شخصاً لكان فاطمة بل هي أعظم، إنْ فاطمة ابنتي خيرُ أهل الأرض عنصراً وشرفاً وكرماً»^(٢).

لو كل جمال أهل العالم يجتمع في مكان واحد، وتُنفحُ فيه الروح حتى يصبح إنساناً له شخصية، ستُصبح هذه الشخصية فاطمة عليها السلام، بل عظمة فاطمة عليها السلام أعظم من ذلك! كما أنَّ فاطمة عليها السلام من جهة العنصر والشرف والكرامة هي أفضل أهل الأرض.

«كل ما لدى الأولياء فقط لديك أنت ذلك».

إنَّ هذا التعبير من الرسول الأكرم عليه وآله دقيق جداً ولطيف وله نكات:
النكتة الأولى: إنَّ النبي الأكرم عليه وآله لم يعبر عن حسن وجمال زمان معين، بل ذكر حسن وجمال كل الأزمنة.

النكتة الثانية: إنَّ الرسول عليه وآله لم يشير إلى فضائل وجمال وحسنٍ يوجد في الناس، بل قال كل حُسنٍ وجمال وفضائل الوجود، يعني ما يوجد في النبي آدم عليه السلام؛ النبي نوح عليه السلام؛ النبي إبراهيم عليه السلام؛ النبي موسى عليه السلام؛ النبي عيسى والأنبياء الإلهيين الآخرين عليه السلام من حسن وجمال وكمالات بصورة كاملة موجودة في الوجود المقدس للسيدة الطاهرة عليها السلام، سواء كان حسناً وكمالاً وجمالاً في الاعتقادات والأفعال والصفات، أو الكلمات الأخرى في عالم الوجود وما سوى الله.

النكتة الثالثة: إنَّ النبي الأكرم عليه وآله لم يكتفي بهذا الحد، بل يواصل ويقول: «بل هي أعظم»، أي أنَّ ابنتي أفضل وأعلى من كل هذه الكمالات والحسن والجمال الذي ذكرته. فاطمة عليها السلام، هي حُسن الوجود، ورمز وضع أسماء أبنائها حسن، حسين، محسن، هو أنها حَسَنَ الوجود، حسين الوجود ومحسن الوجود.

النكتة الرابعة: في ذلك الوقت قال رسول الله عليه وآله «ابنتي خيرُ أهل الأرض»

يعني من بداية الخلقة إلى نهايتها، أفضل مخلوق فوق الأرض من جهة العنصر والشرفية والكرامة هي ابنتي الزهراء علیها السلام.

النكتة الخامسة: الشيء الذي جاء في بيان الرسول عليهما السلام وقابل للتأمل والتدقيق إن هذه الخصوصيات للسيدة فاطمة علیها السلام لم ترد حتى للنبي الأكرم (ولذلك يظهر بأن السيدة الزهراء علیها السلام حقيقةً مجهلة القدر والمنزلة، وسوف تبقى غير معروفة المنزلة والمقام).

٢- أفضل من الأنبياء الإلهيين

ليلة القدر هي أفضل ليلة في السنة وشهر رمضان أفضل شهر في السنة. السيدة فاطمة علیها السلام أفضل وأعلى مقاماً من كل الأنبياء والأوصياء والملائكة المقربين علیهم السلام، إلا أن النبي الأكرم عليهما السلام أفضل من كل المخلوقات.

٣- قيمة حبّة فاطمة

فضيلة العبادة في ليلة القدر أفضل من عبادة ألف شهر. حبّة السيدة الصديقة علیها السلام أفضل من أي نوعٍ من العبادات التي تؤدي في ألف شهر، بل لو كان عابد ليس في قلبه حبّة السيدة فاطمة علیها السلام، لن يكون للصلوة أثر أبداً، والصيام، والحج، والرياضة، والمجاهدات كذلك.

كما أن الأمم السابقة لها وظيفة بالنسبة إلى ساحة قدس هذه السيدة علیها السلام من الحبّة والمعرفة أيضاً.

قال الإمام جعفر الصادق علیه السلام: «وهي الصديقة الكبرى وعلى معرفتها دارت القرون الأولى»^(٣).

فاطمة الزهراء علیها السلام الصديقة الكبرى، والأمم السابقة لديهم وظيفة بالنسبة إليها أن يكون لديهم معرفتها، لأن الأمور تدور حول مدار دائتها.

بعارة أخرى إن ليلة القدر هي منشأ الفيوضات والكمالات، والتسلل

بالصَّدِيقَةِ الشَّهِيدَةِ عَلَيْهَا وسِيلَةُ الْوُصُولِ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ وَابْتِعَادِ الْبَلَاءَاتِ
وَأَنْوَاعِ الْمَصَائِبِ.

٤- فاطمة مرقاة السير إلى الله

الطريق الذي يوصل الإنسان إلى الله قد يكون أحد أمرين:
ألف: السير الآفافي، وهو عبارة عن التوجّه للعلمات التي في عالم الخلقة، حيث بالتدقيق والتدبر في هذه الأمور يحصل الإنسان على معرفة الله، يقال هذه الطريقة السير الخارجي. العلمات التي توجد في عالم الوجود كثيرة جداً، وكل شخص بحسب ظرفيته ومقدراته يحصل عليها ويطوي طريق معرفة الله، النباتات وال موجودات الأرضية والبحرية، والسمائية والكواكب و...، توجد أمور متعددة بالتدقيق والتفكير في خلقتها وحركتها التكوينية، توصل إلى خالقها.

باء: السير الأنفسي، الذي هو عبارة عن الحركة الباطنية، بداية هذا السير من باطن الإنسان وفي النهاية يصل الإنسان إلى الله. الإنسان في هذه الطريقة ينظر إلى باطنه، ومن هذا الطريق يعرف عظمة الله: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»^(٤)، تفكير الإنسان في نفسه يوصل إلى الله، ينظر إلى روحه، ويرى نفسه مجردة وها مقدرة **الخلاقية**^(٥) على أنها ليست قابلة للرؤيا، ومن هذه الجهة يفهم بأنَّ الله هكذا أيضاً. ومن جهة أخرى يحسُّ الإنسان بوجود روحه في وجوده، ويعرف ويتووجه أنَّ الله هكذا أيضاً وليس له مكان مختصٌ به. الروح هي الحاكمة والبدن مسلماً في مقابلاها، هكذا الله في عالم الخلقة: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبَصِّرُونَ﴾.

سنين القلب يطلب كأس الملك

غافل أن لديه ويتمناه من الآخرين

صاحب القلب، الله معه في كل الأحوال

لكن لا يراه ويناديه من بعيد

[شعر مترجم]

ومن هذه الجهة قالوا: «أفضل المعرفة معرفة الإنسان نفسه»^(٦).

القرآن الكريم يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(٧). في هذه الآية تشير إلى كلا النوعين من السيرين، يقول: نريهم علاماتنا سريعاً - في الآفاق وفي نفوسهم حتى يظهر واضحًا أن الله هو الحق، ولذلك لا بد من أن نعلم أن ليلة القدر وسيلة لأجل السير الأنفسي والآفقي؛ ولذلك عن طريق هذين الأمرين يمكن في هذه الليلة الوصول إلى الكمالات.

خصوصية ليلة القدر المهمة هي أنها تقرب الإنسان إلى الله. السيدة فاطمة عليهما السلام لها شبهة بليلة القدر أيضاً، ولذلك عبر عنها بليلة القدر لأنها مرقة الصعود والسير إلى الله، بالخصوص أنها بواسطتها يستطيع الوصول بسرعة إلى الله، ولذلك أي شخص يريد الوصول إلى الله عن طريق هذين المسارين لا بد من أن يكون مجهزاً بولايتها، وأن يجعل ظرف قلبه محبة ذاك الوجود المقدس عليهما السلام، وكذلك يكون في صدد تحصيل الأنس القلبي معها، وبهذه الصورة يحصل على التوفيق، وبواسطة هذا الطريق يطمئن أن مسیر التكامل والرشد يطويه بسرعة؛ لأن هذه السيدة عليهما السلام هي منشأ كل المخارات والكمالات وب بواسطتها ترتفع كل البلاءات؛ كما في بيان الأمير عليهما السلام: «ذَكَرْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ شَفَاءً مِّنَ الْوَعْكِ وَالْأَسْقَامِ وَوَسْوَاسِ الرَّيْبِ»^(٨).

فاتحة مشكاة، هي منبع نور الله، كما أن زيتون له منافع كثيرة ومتنوعة فإن كلخلق يستفيد من وجودها، وبركاتها تشمل الكل.

٥- محبة فاطمة مراج الأنباء

ليلة القدر مراج كل الأنبياء والأولياء الإلهيين عليهما السلام، عرضت ولاية ومحبة السيدة الزهراء عليهما السلام على كل الأنبياء ووظيفتهم قبولاً. الملائكة لتعيين قدر ومنزلة الأنبياء عليهما السلام ميزانه قبول ولاية السيدة فاطمة عليهما السلام كما جاء في الرواية المروية

عن النبي ﷺ: «ما تكاملت النّبوة لنبيٍ في الأُظلة حتّى عرضت عليه ولابي وولايته أهل بيته ومثّلوا له فأقرّوا بطاعتهم وولايتهم»^(٩).

مثلاً، النبي إبراهيم عليه السلام في مسيرة النّبوة وطيّ مراحلها، في البداية كاننبياً وبعد ذلك رسولاً وفي آخر الأمر نال مقام الإمامة. هذا السير والتكميل لنبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام بواسطة الإقرار بمحبة وفضائل السيدة فاطمة عليها السلام في العالم. كذلك بقية الأنبياء عليهم السلام بواسطة قبول السيدة عليها السلام كان ميزان وصوّفهم إلى مقامٍ ومنزلة عند الله عزوجل.

٦- فاطمة حاضنة الإمامة

ليلة القدر هي ظرف نزول القرآن الكريم؛ لأنّ في هذه الليلة نزل كل القرآن الكريم، والوجود المبارك لفاطمة عليها السلام ظرف الإمامة والمصحف أيضاً، يعني أنّ أئمّة الهدى عليهم السلام تربوا في حضن وعطف السيدة عليها السلام أولئك العظماء الذين هم عدُلُ القرآن الكريم، النبي الأكرم عليه السلام طوال عمره الشريف أوصى بهذين؛ ولذلك فاطمة الزهراء عليها السلام على أنها ظرف الإمامة ظرف المصحف أيضاً.

٧- محل نزول الآيات الإلهية

تنزل آيات القرآن الكريم ومقدرات العالم وحقائق الوجود في ليلة القدر. إحدى معاني ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أنها نزلت في شأن السيدة الزهراء عليها السلام، نزلت هذه الآيات القرآنية الكريمة على قلبها المطهر ومقدرات العالم، وتنزل على الأئمّة المعصومين عليهم السلام وبعد ذلك تصل إلى بقية الخلق.

نقرأ في زيارة الإمام الحسين عليه السلام المطلقة: «إراده رب في مقادير أمره تهبط إليكم وتصدر من يوتكم، والصادر عما فصل من أحكام العباد»^(١٠).

٨- فصل الحق عن الباطل

من شبهات السيدة الزهراء عليها السلام بليلة القدر أنّ ليلة القدر ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ

أُمِرٍ حَكِيمٍ، في ليلة القدر كلّ أُمِرٍ يُفصلُ وفق أُسُاسِ الحِكْمَةِ والتدبیر الإلهيَّين. فاطمة الطهر علیها السلام فاصلةٌ بين الحق والباطل أيضًاً، وتفصل بين المؤمن والكافر. يقول أمير المؤمنين علیه السلام دخلت إلى المنزل ذات يوم ورأيت النبي الأكرم عليه السلام قال الله عز وجل: «يا حسن، ويا حسين! أتمما كفتا الميزان وفاطمة لسانه، ولا تعدل الكفتان إلا باللسان، ولا يقوم اللسان إلا على الكفتين».

ولذلك السيدة الزهراء علیها السلام ميزان الحق ومعياره، ولهذا قال النبي الأكرم عليه السلام: «إن الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضها». ولذلك ملاك ومعيار الحق رضا الزهراء علیها السلام وميزان الباطل غضبها.

٩- القبر المخفي

ليلة القدر مخفية طوال السنة ولا يعرف أي أحد أئمَّة ليلة هي ليلة القدر. قبر سيدة نساء العالمين علیها السلام مخفي أيضًاً، كما أن ليلة القدر فقط ولِي الله يعلم بها ومحفية على بقية الناس. هذه التكفة رمز وسرّ مخفي فيها مظلومية وحقانية الشيعة.

يقول الراوي سألت الإمام جعفر الصادق علیه السلام: لأي علة دفنت فاطمة علیها السلام بالليل ولم تدفن بالنهار؟ قال علیه السلام: «لأنها أوصت أن لا يصلّي عليها الرجال الأعرابيان». فاطمة الزهراء علیها السلام هكذا كتبت في وصيتها: ... يا علي أنا فاطمة بنت محمد عز وجل الله منك لا تكون لك في الدنيا والآخرة. وبعد ذلك واصلت الكلام وقالت: أنت أولى بي من غيري حنطي وغسلني وكفني بالليل وصلّ علي وادفني بالليل ولا تعلم أحداً». ^(١)

١٠- عمل شفاف ونوراني

عمل السيدة الزهراء علیها السلام مثل ليلة القدر من الحكمات الواضحات الثابتات.

بالاستدلال بسورة القدر تُحرز وتحصل حقانية الشيعة وإمامية أئمة الهدى عليهما السلام.

يقول الإمام محمد الباقر عليهما السلام: «يا معاشر الشيعة خاصموا بسورة إنا أنزلنا في ليلة القدر تقلحوا، فوالله إنها لحجة الله تبارك وتعالى علىخلق بعد رسول الله عليهما السلام»^(١٢).

تعلمنا الاستدلال بهذه السورة من رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليهما السلام مضمونها: «كان أبو بكر وعمر عند النبي الأكرم عليهما السلام - وكان في حالة خشوع وبكاء، وتلاوة سورة القدر، الاثنان سألا: ما أشد رقلك لهذه السورة؟

قال رسول الله عليهما السلام: «لِمَا رأَت عيني ووَعْنَ قلبي، وَلِمَا يَرَى هَذَا مِنْ بَعْدِي يَعْنِي إِلَامَ عَلَيَّهُ». فيقولان: وما الذي رأيت وما الذي يرى؟ قال: فيكتب لهما في التراب **﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مَنْ كُلُّ أَمْرٍ﴾**. قال: ثم يقول: هل بقي شيء بعد قوله عز وجل: (كُلُّ أَمْرٍ)؟ فيقولان: لا. فيقول: هل تعلمان من المنزل إليه بذلك؟ فيقولان: أنت يا رسول الله. فيقول: نعم. فيقول: هل تكون ليلة القدر من بعدي؟ فيقولان: نعم. قال: فيقول: فهل ينزل ذلك الأمر فيها؟ فيقولان: نعم. قال: فيقول: إلى من؟ فيقولان: لا ندرى.

يقول الإمام علي عليهما السلام: «فَيَأْخُذُ بِرَأْسِي وَيَقُولُ: إِنْ لَمْ تَدْرِي فَادْرِيَا، هُوَ هَذَا مِنْ بَعْدِي». قال: **فَإِنَّهُمَا كَانَا لِيَعْرَفَانِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من شدة ما يدخلهما من الرعب^(١٣).

ولذلك بالاستفادة من هذه السورة يمكن الاستدلال وإثبات الولاية وإمامية الأئمة الطاهرين عليهما السلام. بهذا الدليل تعتبر هذه السورة من المحكمات الواضحة وشبهة السيدة الزهراء عليهما السلام بهذه السورة من هذه الجهة؛ لأنّ عمل السيدة عليهما السلام واضح وشفاف ومن المحكمات، يعني ليس مثل عمل بقية الأئمة عليهما السلام والمخالفين؛ لأنّ الأئمة الطاهرين عليهما السلام في غالب الموارد من أجل مراعاة المصلحة الإسلامية وحفظ الدين يعملون بالتقىة، ويتماشون مع الغاصبين، وفي بعض الأحيان ينادونهم بلقب "أمير المؤمنين" أما السيدة الصديقة عليهما السلام بصورة علنية

تبرز نظرها بعيداً عن أي نوعٍ من التقىّة. من جملة ما لم تقبله خلافة أبي بكر، وهذا الأمر واضح من بيانات السيدة الزّهراء علیها السلام، كما أنها تنفرّت من الاثنين وأعلنت لهما عدم الرضا والغضب، وحتى يتبّه الناس إلى هذا الأمر أوصت أن تدفن ليلاً حق لا يستطيع الغاصبون والمنافقون أن يحضروا للصلاة عليها وتشييعها.

معرفة ليلة القدر:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾، أَيُّهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَامٌ: ما أدراك ما هي فاطمة علیها السلام؟
نحن نعرفك السيدة الزّهراء علیها السلام! ولو لم نعطيك العلم والعصمة والامتياز وعلو المقام ولم نعرفك على فاطمة علیها السلام، ليس معلوماً أن تستطيع معرفة الزّهراء المرضية علیها السلام،
نحن المعرفون للسيدة الصديقة علیها السلام!

ولذلك سيأتي بنو أميّة ويحكّمون ألف شهر (أكثر من ثلاثة وثمانين سنة) لا يصيّبك الغمّ والهم لذلك! لأننا سوف نعطيك عوضاً عن ذلك، والعوض هو فاطمة علیها السلام، فاطمة علیها السلام التي سوف يولد منها أحد عشر إماماً وحجّة الله عزوجل، وأخرهم الإمام صاحب الزمان علیها السلام حيث إنّه سوف يزيل كل اسم وعلامة لبني أميّة وبني العباس والظالمين، "للباطل جولة وللحق دولة" ، بمعنى أنّ الباطل له جوّان أما الحق له استقرار واستمرار.

النكتة في هذا القسم من سورة القدر والتي لا بد من أن توضع في نظر الإنسان هي أن ليلة القدر في عالم الملك والزمان ليست بتلك الأهميّة حتى تواجه بهذه الجملة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾؛ لأنّ الزمان والمكان قائم بوجود النبي الأكرم علیه السلام.

بين أَحمد واحد ميم واحدة فارقة
عالَم في هذه الميم غارق

معنى أن خلق كل المكنات بلطف وجود رسول الله الأكرم عليه وآله ومرتبط بوجوده.

الاسم الأرضي للنبي محمد عليه وآله، والاسم السماوي أَمْدَعْلَيْلَهُ، ولذلك مقام أَمْدَعْلَيْلَهُ أعلى من الاسم الأرضي؛ لأن هذا اسم لأهل السماوات، يعني جبرائيل، اسرافيل، ميكائيل وعزرايل لديهم معرفة مقامه هذا، ويعملون به، ولذلك يقول الله في حديثه القدسي: «**لولاك لما خلقت الأفلاك**».

ولذلك تعتبر هي ليلة قدر عالم الملك، ولها اطلاع وعلم بها، لأن الزمان تحت إرادتها، من هذه الجهة، لا يسعها الزمان؛ لأنها أعلى من الزمان والمكان، ولذلك فإن هذه الجملة معنىًّا دقيقاً.

لا بد من أن تكون أفضلية ليلة القدر أكثر من ليلة قدر عالم الملك وهي الوجود المقدس للسيدة الزهراء المرضية علیها السلام، كما قالوا في وصفها: «فُطِمتْ من الشر»، ليس لها أي شر ونجاسة ورجس وحتى لم يصدر منها ترك الأولى أبداً. إذاً ليلة القدر التي عرّفها الله هي فاطمة الزهراء علیها السلام.

معرفة ليلة القدر مرتبطة بمعرفة السيدة فاطمة علیها السلام:

قال الإمام جعفر الصادق علیه السلام: «**فمن عرف فاطمة علیها السلام حق معرفتها فقد أدرك ليلة القدر**»، هذه الجملة لها معنيان:

المعنى الأول: يعني لو أن شخصاً يريد أن يعرف ويفهم ليلة القدر أية ليلة في السنة، لا بد من أن يعرف الزهراء علیها السلام، يعني يسير ويسلك في فصل المعرفة والعرفان.

يقول المرحوم السيد بن طاووس قتيله: «أنا أعلم متى ليلة القدر! سُئلَ: من أين تعرف؟ قال: طوال السنة توجد ليلة واحدة تكون فيها السماء والأرض مملوقة من الملائكة الإلهيين ولذلك أعرف بأن هذه ليلة القدر».

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾، كلّ الملائكة تأتي بصفائف الأعمال وتقديرات العالم وتعرضها في المحضر الشريف للإمام صاحب الزمان عليه السلام حتى يضي تلك الصحف، وعلة أنّ السيد بن طاووس قيل ملتفت إلى ذهب وإياب الملائكة، معرفته القلبية بالسيدة الزهراء عليها السلام، حيث من أثر هذه المعرفة وصل إلى مقام الفناء في الولاية.

المعنى الثاني: هو كما أنّ الناس لا تستطيع أن تدرك ليلة القدر وأن تعرفها، فاطمة الزهراء عليها السلام ستبقى مجھولة أيضاً، ولا يوجد شخص قادر على أن يعرفها حق معرفتها.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾.

المعنى الباطني لليلة القدر:

ذكر الله العادل في القرآن الكريم السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بكلمات عظيمة، على سبيل المثال في هذه الآية الشريفة ذكرها بـ ﴿لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾، هذه الآية أيضاً لها معنى ظاهري ومعنى باطني. المعنى الظاهري ليلة القدر، أما المعنى الباطني لها طبق الروايات -القرآن يصل إلى سبعين معنى باطنياً- هكذا: نحن أنزلنا القرآن الكريم في شأن وفضيلة ومدح وثناء فاطمة الزهراء عليها السلام، المعنى الباطني الآخر هو: نحن أنزلنا القرآن الكريم في ظرف وجود قلب السيدة الزهراء عليها السلام، يعني مركز العبارات، اللطائف، الإشارات، الكنایات، الحقائق والمعارف القرآنية هو قلب زهراء الطهر عليها السلام. إذا أراد شخص أن يحصل على حقائق القرآن الكريم ويدركها، لا بد من أن يكون في فصل ومسير ولاية وعصمة الزهراء المرضية عليها السلام; لأنّ السيدة فاطمة عليها السلام لا تفترق ولا تنفصل عن القرآن الكريم، بل هي القرآن الناطق.

القرآن عَبَرَ عن السيدة فاطمة عليها السلام بـ ﴿لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾. يعني كلّ البركات

التي تصل من جانب الله المتن إلى ما سوى الله، كل العطایا المادیة والمعنویة، وكل الحقائق والمعارف والنّعم ببرکة الوجود الممتاز لفاطمة الزّهراء علیها السلام، ولو لم تكن فاطمة علیها السلام لم يوجد في العالم شيء.

لم أخلق الوجود ليصلني شيء
بل حتى أجود على العباد [شعر مترجم]

مقام السيدة فاطمة علیها السلام

يقول الإمام جعفر الصادق علیه السلام: «تسبيح فاطمة في كل يوم في دبر كل صلاة أحب إلى من صلاة ألف ركعة في كل يوم»^(١٤).

يريد الإمام جعفر الصادق علیه السلام أن يقول: لو أن ركعة واحدة من صلاة في دبرها تسبيحة الزّهراء علیها السلام ورُزِعَتْ على كل الأنبياء علیهم السلام، كلهم سوف يفتخرن بأنهم وصلوا إلى مراحل كمالية؛ لذلك يقول: تسبيحات أمي أفضل من ألف ركعة صلاة، لكن لم يبين فضيلة هذه التسبيحات التي هي أفضل من ألف ركعة بصورة أكثر، بل هذا السر جعله مغلقاً وهذه نكتة تحتاج إلى تأمل.

ما هذه السيدة فاطمة علیها السلام؟ ما هي بركتها لكي يكون لتسبيحها هذا المقدار من القيمة؟ في حال أن محبّتها واتّباعها والتّوسل بوجودها وذاتها المقدسة له آثار وبركات بلا انتهاء وأن البشر ليس لهم القدرة إدراكها وعددها.

يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(١٥).

ما هو المقصود من الذكر الكبير؟ يقول: الذكر تسبيحات أمينا الزهراء علیها السلام، حتى لو كان بحسب الظاهر، مائة تسبيحة، أما في الباطن كثير وبلا انتهاء، ولذلك بواسطة وجود برکة هذه السيدة علیها السلام وصلت برکات بلا عدد إلى المخلوقات وبني الإنسان، ومن جملتها بل وعلى رأسها وجود الأئمة الأطهار علیهم السلام؛ كما نقرأ في

زيارتها: «... وسللت منها أنوار الأئمة».

زهراء الطهر عليها السلام هي ظرف الأئمة عليهم السلام ومنشأ كمالاتهم، حتى قال الإمام صاحب الزمان عليه السلام: «وفي ابنة رسول الله عليه السلام لي أسوة حسنة» ^(١).

كذلك الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حديث آخر قال: «يا أبا هارون إنا نأمر صبياناً بتسبيح فاطمة كما نأمرهم بالصلوة فالزمه فإنه لم يلزمك عبدٌ فشقى» ^(١٧).

الهوامش:

(١) الإسراء: ٤٤.

(٢) مئة منقبة، ابن شاذان القمي، ص ١٣٥.

(٣) أمالى الشیخ الطوسي، ص ٦٦٨.

(٤) بحار الأنوار، المجلسي، ج ٢، ص ٣٣.

(٥) أقل درجات الحلائقية أن نخلق خيالاتنا ونوجدها في أذهاننا.

(٦) ميزان الحكمة، الريشهري، ج ٣، ص ١٨٧٦.

(٧) سورة فصلت: ٥٣.

(٨) المحسن، البرقي، ج ١، ص ٦٢.

(٩) بصائر الدرجات، الصفار، ص ٩٣.

(١٠) الكافي، الكليني، ج ٤، ص ٥٧٧.

(١١) بحار الأنوار، المجلسي، ج ٤٣، ص ٢١٤.

(١٢) الكافي، الكليني، ج ١، ص ٢٤٩.

(١٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٩.

(١٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٤٣.

(١٥) سورة الأحزاب: ٤١ - ٤٢.

(١٦) الغيبة، الطوسي، ص ٢٨٥.

(١٧) الكافي، الكليني، ج ٣، ص ٣٤٣.



القاعدة في الحيوان حلية أو حرمة ذاتاً

الشيخ علي فاضل الصدوي

مقدمة

لا شبهة فيما خصّ البهائم من حيوان البرّ - في حلية الإبل والبقر والغنم الأهلية، وكذا الخيل والبغال والحمير الأهلية، وفي حلية كبش الجبل والبقر والغنم والحمير والغزلان واليhamir الوحشية.

وهل يختصّ حل الوحشية غير ما استثنى كالسباع والمسوخ والحشر ونحو العين - بالخمسة المتقدمة فلا تحلّ الزرافة ووحيد القرن واللاما وفرس النهر والكنغر والسنجباب ونحوها أم لا؟
ففي منهج الإمام الحوئي قدّس: "وفي تخصيص الحلّ بهذه الخمسة إشكال،

والحلية غير بعيدة^(١).

كما وقع الكلام في حلية ما تولد من مأكول كالشاة ونجس العين كالكلب ولم يقع على المتولد اسم أحدهما أو اسم غيرهما من مأكول أو غير مأكول، وقد ذكر الشهيد الثاني نقش في طهارة الروضة أن مقتضى الأصل هو الحرمة^(٢). فلابد من بحث مقتضى الأصل أولاً.

مقتضى الأصل

أما فيما يخص المتولد من حيوانين أحدهما ظاهر والآخر نحس ولم يصدق عليه اسم أحدهما أو اسم غيرهما فقد سبق أصلان للحرمة:-
الأول: استصحاب نجاسته الثابتة حينما كان دماً وعلقة في رحم الكلبة أو الخنزيرة أو حينما كان منيّاً^(٣).

الثاني: استصحاب نجاسته عندما كان جنيناً ولو قبل ولوج الروح فيه إذا كانت أمّه كلبة أو خنزيرة؛ لكونه جزءاً من أمّه^(٤).

وفي هذين الأصلين ما لا يخفى؛ لاستحالة المني والدم، فلا يجري الاستصحاب في الأول، على أنه يكفي في عدم جريانه عدم إحراز وحدة الموضوع، ولمنع الجزئية في الثاني، بل الجنين كالبيضة بالنسبة إلى الدجاجة من قبيل المظروف مع الطرف.

وأما مقتضى الأصل فيما يعم المتولد من حيوانين أحدهما نحس أو غير مأكول، وكذلك ما ليس محرماً بعنوان عام من حيوان الوحش - فقد سبقت جملة أصول للحرمة:-

الأول: أصلة عدم وقوع التذكية على الحيوان المشكوك صحة تذكيته^(٥).

الثاني: استصحاب حرمة اللحم الثابتة حال الحياة^(٦).

الثالث: ما قيل: من أن المحلات محصورة، والمحرّم غير محصور، فإذا لم يدخل

في المخصوصات حكم بحرمتها^(٧). وقد يكون مردّ هذا إلى أنّ كثرة المحرّمات وغلبتها على الحلال مانعٌ عن التمسّك بأصالة الحلّ، فالحلّية توقيفية، ولذا كان بناء أصحاب الأئمة عليهما السلام على السؤال عن الحالات - كما حاول أن يوجهه به الشيخ الأعظم (قد) -^(٨).

ويتوجّه على أصالة عدم قبول الحيوان للتذكرة بعد عدم كونها أصلاً برأسه، بل مرجعها إلى استصحاب عدم التذكرة - أنّ هذا الاستصحاب إنما يجري في بعض الموارد وعلى بعض المبني في حقيقة التذكرة، فإذا قلنا بأنّ القابلية المعتبرة في الحلّية مرجعها إلى اشتراط خصوصيّة وجوديّة في الحيوان كالغنميّة والأهليّة ونحو ذلك، وقلنا بأنّ حقيقة التذكرة هي المسبّب الشرعي أو التكويني عن الذبح، أو قلنا بأنّها عبارة عن عنوان مجعلو شرعاً بإزاء الذبح الخارجي فيجري استصحاب عدمها عند الشكّ فيها؛ للشكّ في القابلية، وكذا إذا كان الشكّ في القابلية على نحو الشبهة الموضوعيّة وأنّها موجودة في نحو الكنغر أم لا، وقلنا بأنّ التذكرة مركبة من الذبح الشرعي والقابلية، فيجري استصحاب عدم القابلية أولاً، أو قلنا بأنّ التذكرة هي الذبح المقيد بالقابلية، فإنّه يجري استصحاب عدم تحقق المقيد نفسه، وتفصيله موكول إلى محلّه^(٩).

وأما حرمة اللحم الثابتة حال الحياة في الثاني فهي حرمة عرضيّة، وترتفع بالتذكرة قطعاً، بينما المقصود إثبات الحرمة الذاتيّة، أي أنّ الشكّ في الحرمة مسبّب عن الشكّ في التذكرة، فإن جرى استصحاب عدم التذكرة فلا مورد لاستصحاب الحرمة، وإن لم يجرِ لم تحرز وحدة الموضوع كي يجري استصحاب الحرمة.

وأما ما حكي من حصر الحالات فأول الكلام، والغلبة العنوانيّة للمحرّمات بجردها لا تصلح مانعاً عرفاً عن الرجوع إلى الأصول المؤمنة، وتبني أصحاب الأئمة عليهما السلام على السؤال عن الحالات إنما هي بجهة عدم جواز العمل بتلك

الأصول قبل الفحص.

وقد تستفاد حرمة ما سوى بهيمة الأنعام من موثقة غياث عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه [عن علي عليهما السلام] أنه سُئل عن لحم الفيل، فقال: ليس من بهيمة الأنعام^(١٠). فإن الموجب فيها - إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ - ظاهر في التعليل وأن ما ليس من بهيمة الأنعام فلا يحل. ويفيد هذه الموثقة رواية وهب بن وهب عن جعفر بن محمد عن أبيه أن علياً عليهما السلام سُئل عن أكل لحم الفيل والدب والقرد، فقال: «ليس هذا من بهيمة الأنعام التي تؤكل»^(١١).

إلا أنه لا عامل بضمون الموثقة المزبورة، فتسقط عن الاعتبار وإن قلنا بأن الوثاقة هي المناط في حجية الخبر.

فتحصل أنه لا أساس لأصل الحرمة - ولو لفظياً - في الحيوان.

أصالة الحلية:

ثم إنه - وبقطع النظر عن الأدلة الخاصة على الحلية - قد يتّخذ عموم قوله سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمًا خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَكَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ...﴾^(١٢) - أصلاً حلية مشكوك الحلية من الحيوان^(١٣).

ولكن يتوجه عليه - على تقدير أن يراد بالحرمة مطلق المنع وإن لم يكن في الكتاب العزيز - أن الحصر في الآية لا يمكن أن يكون حقيقياً، لاستلزماته تخصيص الأكثر المستهجن؛ لوضوح أن المحرمات غير منحصرة في تلك الأربع؛ فإنه منها السبع ومنها المسوخ... ومنها غير ذلك مما يحرم أكله شرعاً بلا محicus من تأويله، إما بحمله على الحصر الإضافي بدعوى أن المحرمات - بالإضافة إلى ما جعلته العرب محرماً على أنفسها في ذلك - منحصرة في تلك الأربع، وإما بحمله

على زمان نزول الآية وانحصر المحرّمات فيها في ذلك الزمان؛ للتدريج في الأحكام^(١٤).

وأما لو أريد بالحرّم خصوص ما حرّم في الكتاب بلاحظة صحيحتي محمد بن مسلم:

الأولى: روايته عن أبي جعفر ع عليهما السلام «أنه سئل عن سباع الطير والوحش حتى ذكر له القنافذ والوطواط والحمير والبغال والخيل، فقال: ليس الحرام إلا ما حرّم الله في كتابه»^(١٥).

والثانية: أنه سأله أبو عبد الله ع عليهما السلام «عن الجرّي والمار ماهي والزمير وماليس له قشر من السمك أحراًم هو؟ فقال: يا محمد، اقرأ هذه الآية التي في الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾، قال: فقرأتها حتى فرغت منها، فقال: إنما الحرام ما حرّم الله [ورسوله]^(١٦) في كتابه...»^(١٧)؛ فبعد دعوى ظهورهما في أنّ الحرام ليس مطلق المنوع وإن كان من غير الكتاب فلا تعود الآية أصلًا لعدم المنع وإن لم يكن كتابياً عما سوى المذكورات فيها، بل هي حينئذٍ أجنبية عن المقام.

ولكن قد يقال: إنّ الظاهر عرفاً من السؤال هو السؤال عن الحرام شرعاً، وجواب الإمام ع عليهما السلام بالآية من باب ذكر الشاهد على عدم الحرمة شرعاً لا عدم الحرمة في الكتاب، فلا تصلح الروايات شاهداً على نظر الآية لحصر الحرام في الكتاب، ولو استظهر من الآية أنها ناظرة لما حرّم بالوحي فلا تشمل ما حرّم بالسنة كان ذلك منافيًّا لاستشهاد الإمام ع عليهما السلام بها في الروايات^(١٨).

والحاصل أن الآية ليست أصلًا للحلية، وما تقدم تظهر الحدثة في الاستدلال لأصلّة الحلّ بتمسك الإمام ع عليهما السلام من باب التعليم بقوله: (قل لا أجد في إباحة بعض الأشياء)^(١٩).

وقد تتخذ روایات الحلّ الأربع أو الثلاث أصلًا للحلّ فلنستعرضها:

الأولى: موثقة مساعدة بن صدقة عن أبي عبدالله عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «سمعته يقول: كل شيء هو لك حلال حتى تعلم أنه حرام بعينه، فتدفعه من قبل نفسك، وذلك مثل الشواب يكون [عليك] قد اشتريته وهو سرقة، أو المملوك عندك ولعله حر قد باع نفسه أو خدع فيبيع أو قهر [قهرًا]، أو امرأة تختك وهي أختك أو رضيعتك، والأشياء كلها على هذا حتى يستبين لك غير ذلك أو تقوم به البينة»^(٢٠).

الثانية: معتبرة عبدالله بن سليمان قال: «سألت أبا جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ عن الجبن -إلى أن قال - فقال: سأخبرك عن الجبن وغيره، كل ما كان فيه حلال وحرام فهو لك حلال حتى تعرف الحرام بعينه فتدفعه»^(٢١).

ولا يوجد في سندها من يتوقف في وثاقته سوى عبدالله بن سليمان وهو الصيرفي؛ لأن نصراًف الاسم إليه عند الإطلاق، لكونه صاحب أصل دون غيره من المسميين باسمه، إلا أنه -هو الآخر - ثقة، لرواية صفوان وأبي عمير عنه، بل هما راوياً أصله، على ما في مشيخة الصدوق عَلَيْهِ الْكَلَمُ، وكبرى وثاقة من ثبتت رواية أحد الأجلاء الثلاثة عنه، ومنهم صفوان وأبي عمير - تامة.

الثالثة: مرسلة معاوية بن عمار^(٢٣) المتّحدة مضموناً مع السابقة، والمظنون كونهما رواية واحدة، كما لا يخفى على من التفت.

الرابعة: صحّيحة عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال: «كل شيء يكون فيه حلال وحرام فهو لك حلال أبداً حتى تعرف الحرام منه بعينه فتدفعه»^(٢٤). وكلها أجمع لا تتناول مقامنا من فرض الشبهة الحكمية، بل هي متحمّضة في معالجة الشبهات الموضوعية؛ لقرائن مشتركة بينها أو مختصة بالموثقة أو مختصّة بغيرها.

أما القرينة المشتركة فهي كلمة (بعينه)؛ فإنها احتراز عن العلم بالحرام لا بعينه، ولا يكون ذلك إلا في الشبهة الموضوعية، ولا يتصرّر العلم بالحرام لا بعينه

في الشبهة الحكمية فإنه مع الشك في حرمة شيء وحليته لا علم لنا بالحرام لا بعينه، وما قيل بأنّ مفردة (بعينه) احتراز عن العلم الإجمالي بالحرمة فتشمل الشبهة الحكمية^(٢٥) - ففيه أنّ جعل الترخيص في الطرفين مع العلم بحرمة أحدهما مما لا يكن الجمع بينهما ثبوتاً ويتناقضان، فالمتّجّه عدم شمول روایات الحلّ لأنّ طراف العلم الإجمالي بالحرمة.

وأما القرينة المختصة بالموثّقة فهي أمران، الأول: إن الأمثلة المذكورة فيها من قبيل الشبهة الموضوعية، فهي قرينة على اختصاص الموثّقة بها، ولا أقل من احتمال القرینية فلا ينعدّ لها ظهور في الشمول للشبهات الحكمية. والثاني: قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أوْ تَقُومُ بِالْبَيِّنَةِ» قرينة أو صالح للقرینية على إرادة خصوص الشبهات الموضوعية، فإن اعتبار البينة إنما هو في الموضوعات لا في الأحكام التي يكفي لثبوتها خبر الواحد.

وأما القرينة المختصة بغير الموثّقة فهي قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فِيهِ حَلَالٌ وَحَرَامٌ» الظاهر في الانقسام الفعلي ولا يتصور ذلك إلا في الشبهات الموضوعية؛ وأما في الحكمية كما إذا علمنا بحلّية نوع من الطير وعلمنا بحرمة نوع آخر منه وشككنا في حلّية نوع ثالث منه، فيصدق عليه أنه فيه حلال وحرام، ولكن توهم مدخله بأن الظاهر منه قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فِيهِ حَلَالٌ وَحَرَامٌ» كون منشأ الشك في الحلّية والحرمة هو نفس انقسام الشيء إلى الحلال والحرام، وهذا لا ينطبق على الشبهة الحكمية؛ فإن الشك في حلّية النوع الثالث من الطير ليس ناشئاً من انقسام الطير إلى الحلال والحرام، بل هذا النوع مشكوك الحلّية والحرمة.

ومن رأى اختصاص روایات الحلّ بموارد الشبهات الموضوعية هو السيد الحويي قيدش^(٢٦)، وما ذكرناه من القرائن على الاختصاص مختصر بما أفاده^{(٢٧)(٢٨)}.

نعم من الأصول التي يمكن اتخاذها أصلاً مؤمّناً في مقامنا - هي أصلّة البراءة

الشرعية بعرضها العريض الثابتة - لا بما تقدم - بل بمثل حديث الرفع^(٢٩) المعترض سندًا، ولا يعييه عدم توثيق أحمد بن محمد بن يحيى العطار شيخ الصدوق فتى، بعد كونه من معاريف الطائفة الذين لم يرد فيهم قدح الكاشف عن حسن ظاهره عرفاً، وحسن الظاهر يكشف عن الوثاقة بل العدالة شرعاً.

الدليل الاجتهادي على الحلية

ثم إن النوبة لا تصل إلى الأصل العملي مع وجود الدليل الاجتهادي الدال على حلية ما لم يكن سبعاً ولا ذا ناب ولا مسوحاً من الوحش، وهو موثقة سماعة بن مهران بل صحيحته^(٣٠) قال: «سألت أبا عبدالله عَلَيْهِ السَّلَامُ عن المأكول من الطير والوحش. فقال: حرم رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي ناب من الوحش، فقلت: إن الناس يقولون: من السبع، فقال لي: يا سماعة، السبع كلّه حرام، وإن كان سبعاً لا ناب له، وإنما قال رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا تفصيلاً، وحرّم الله ورسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ المسوخ جميعاً... الحديث^(٣١).

بتقرير: أنه لما سئل عن المأكول من الوحش عدل إلى ذكر ما يحرم، فيستظهر من هذا العدول حلية ما سوى تلکم العناوين وأن ما يؤكل غير منحصر بخلاف غير المأكول.

ويؤيدتها عموم ما في رواية تحف العقول عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «...وَأَمّا مَا يَمْلِئُ أَكْلَهُ مِنْ لَحْومِ الْحَيَّانِ فَلَحْومُ الْبَرِّ وَالْغَنْمِ وَالْإِبْلِ، وَمَا يَحْلُّ مِنْ لَحْومِ الْوَحْشِ، وَكُلُّ مَا لَيْسَ فِيهِ نَابٌ وَلَا لَهُ خَلْبٌ...»^(٣٢).

وبهوجب هذه الحلية تحل الكنغر واللاما والزرافة ووحيد القرن وفرس النهر، نعم لا تتناول الحلية المستفادة من هذه الصححة ما تولد من مأكول وغيره ولم يكن وحشاً، فالمرجع فيه أصالة البراءة الشرعية من الحرمة.

والحمد لله أولاً وأخراً، وصلى الله على محمد وآلـهـ.

[ملحق]:

وأَلْحَقَ بِهَذِهِ الْمَقْالَةِ حَوَارًا جَرِيَ بَيْنِي وَبَيْنِ مَوْقِعِ (شَفَقَنَا) لِأَخْبَارِ الشِّعْيَةِ (ar.shafaqna.com)، وَلِلْأَمَانَةِ وَحْفَظِ جَهْدِ الْآخْرِينَ إِنَّ جَمْلَةً وَافْرَةً مِنَ الْمُعْلَمَاتِ مُسْتَقَاءَ مِنْ تَرْجِمَةِ صَاحِبِ الْجَوَاهِرِ جَلَّ جَلَّ بِقَلْمِ الشِّيْخِ مُحَمَّدِ رَضَا الظَّفَرِ جَلَّ جَلَّ، وَقَدْ صَدَرَ بِهَا كِتَابُ الْجَوَاهِرِ فِي طَبْعَتِهِ (ذَاتُ الـ ٤٣ مَجْلِدًا) بِتَحْقِيقِ الشِّيْخِ عَبْدَاللهِ الْقَوْجَانِيِّ جَلَّ جَلَّ وَنَجْلِهِ الشِّيْخِ حَمْمُودَ، فَإِلَى الْحَوَارِ:

س١: مَا هِي خَصَائِصُ الشِّيْخِ مُحَمَّدِ حَسَنِ النَّجْفِيِّ، وَشَخْصِيَّتِهِ الْعُلْمِيَّةِ؟

كَانَ صَاحِبُ الْجَوَاهِرِ جَلَّ جَلَّ - كَمَا حَكِيَ - بارِعُ الْبَيَانِ حَسَنُ التَّدْرِيسِ غَزِيرُ الْعِلْمِ جَوَّالُ النَّظَرِ ثَاقِبُ الْفَكْرِ دَوْبُ الْبَحْثِ مَكْبُّاً عَلَى التَّدْرِيسِ وَالتَّأْلِيفِ، فَقَدْ نَقَلَ الْمَرْحُومُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ الشَّاهِرُوْدِيُّ - عَلَى مَا فِي تَقْرِيرِ بَحْثِهِ فِي النِّكَاحِ بِقَلْمِ السَّيِّدِ عَبْدَاللهِ الْمَدْرِسِيِّ: ٥٥٤ - بِأَنَّ "صَاحِبُ الْجَوَاهِرِ" نَذَرَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ عَرْفَةٍ فِي الْحَائِرِ الْحُسَيْنِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَارًا مِنَ الْحَجَّ لَوْ قَدْ اسْتَطَاعَ، وَذَلِكَ لِأَجْلِ إِتَامِ كِتَابِ الْجَوَاهِرِ".

ثُمَّ أَنَّ مَجْلِسَ بَحْثِهِ يَضُمُّ أَكْثَرَ مِنْ سِتِينَ مجْتَهِدًا مُعْتَرِفًا لَهُمْ بِالْفَضْيَّةِ، وَقَدْ تَخْرَجَ عَلَى يَدِيهِ مِنْ أَعْلَامِ الدِّينِ مَا يَفْوَقُ الْحَصْرَ، وَمِنْهُمُ الْمِرْزا حَبِيبُ اللهِ الرَّشْتَيُّ وَالشِّيْخُ حَسَنُ الْمَامِقَانِيُّ وَالشِّيْخُ عَبْدُالْحَسِينِ شِيخُ الْعَرَاقِيِّ الطَّهْرَانِيُّ وَالشِّيْخُ عَبْدَاللهِ نَعْمَةُ الْعَالَمِيُّ وَالْمُولَى عَلَيْهِ الْكَفَى وَالشِّيْخُ مُحَمَّدُ حَسَنُ آلِ يَسِّ.

وَمِنْ مَؤْلُفَاتِهِ - مُضَافًا إِلَى جَوَاهِرِ الْكَلَامِ - رِسَالَتُهُ الْعُلْمِيَّةِ (نِجَاهُ الْعِبَادِ)، وَهِيَ مِنَ الرِّسَالَاتِ الْعُلْمِيَّةِ الَّتِي حَظِيتُ بِالْتَّعْلِيقِ عَلَيْهَا وَالشَّرْوَحُ لَهَا بَعْدَ عَصْرِهِ، وَلَهُ عَدَّةُ رِسَالَاتٍ فِي الدِّمَاءِ الْثَّلَاثَةِ وَأَحْكَامِ الْأَمْوَاتِ وَالزَّكَاةِ وَالْخَمْسِ، وَلَهُ (هَدَايَةُ النَّاسِكِينَ) فِي مَنَاسِكِ الْحَجَّ، وَهِيَ الْأُخْرَى قَدْ حَظِيتُ بِالْتَّعْلِيقِ جَمِيلَةً مِنَ الْأَعْلَامِ عَلَيْهَا، وَلَهُ رِسَالَةٌ فِي الْمَوَارِيثَ، وَهِيَ آخِرُ مَؤْلُفَاتِهِ، وَقَدْ فَرَغَ مِنْهَا سَنَةُ الْوَبَاءِ (١٢٦٤ هـ)، وَلَهُ

كتاب في الأصول، إلا أنه قد تلفت نسخته الوحيدة التي هي بخطه.

س٢: ما هي ميزات وخصائص كتاب جواهر الكلام؟

يتميز كتاب جواهر الكلام -الذي عكف الشيخ على تأليفه طيلة اثنين وثلاثين عاماً- بعده ميزات:

أ- السعة والإحاطة بأقوال العلماء وأدلتهم ومناقشتها.

ب- اشتتماله على تحقیقات تنم عن بعد نظر ومزيد تقليب.

ت- أنه كتاب كامل في أبواب الفقه كلها، وما أعظمها وأندره من توفيق.

ث- اشتتماله على كثرة التفريعات مع ندرتها، فهو جامع لأمهات المسائل وفروعها، وهو من حيث السعة و الجامعية -كما قال الحدث القمي في الكني والألقاب (١٧٣/٢)- كالبحار بين كتب الحديث.

ج- وحدة نسقه وأسلوبه وكذا سنته، فالسعة التي ابتدأ بها انتهى إليها، رغم طول مدة تأليفه.

ح- أنه يغنى بما سواه مما تقدم عليه ولا يستغني بغيره عنه، فعن صاحب الجواهر نفسه أنه قال: "من كان عنده جامع المقاصد والوسائل والجواهر فلا يحتاج كتاباً للخروج عن عهدة الفحص الواجب على الفقيه في آحاد المسائل الفرعية".

ومن الشهادات على تفوق (الجواهر) على ما سواه في القرن الثالث عشر - ما أدى به العلامة المظفر رحمه الله - وهو من صدر كتاب الجواهر بترجمة مؤلفه (ج/١٣/١) - قائلاً: "وقد بُرِزَ في ذلك القرن أقطاب لعلم الفقه وأصوله، هم في الدرجة الأولى علمًا وتأليفاً وتقوى وصلاحاً، وخلفوا لنا آثاراً قيّمة خالدة...، مثل كتاب كشف الغطاء ومفتاح الكرامة والرياض والمكاسب في الفقه...، وكان في القمة من تلك الآثار الفقهية كتاب (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) الموسوعة الفقهية التي فاقت جميع ما سبقها من الموسوعات سعةً وجمعاً وإحاطةً بأقوال العلماء وأدلتهم...".

وللحقيقة فإنه من حسنات الدهر، وقد نقل المحدث النوري في خاتمة المستدرك - ١١٥/٢ - عن شيخه شيخ العراقيين عن بعض العلماء أنه قال : "لو أراد مؤرخ زمانه - يعني زمان صاحب الجواهر - أن يثبت الحوادث العجيبة في أيامه ما يجد حادثةً أعمق من تصنيف هذا الكتاب في عصره".

وهو - كما حكي عن الإمام الخميني رض - معجزة؛ لأنّ شخصاً واحداً أنجز عمل مائة فقيه.

س٣: ما هي أسباب وعلل خلود كتاب جواهر الكلام من زمانه إلى الآن؛ علماً بأنه ألفت كتب فقهية كثيرة من بداية عصر الغيبة حتى وقتنا الحاضر فلماذا يؤكد على هذا الكتاب؟

- بالإضافة إلى ما تقدم مما يرجع إلى الكتاب ومؤلفه - لا ينبغي إغفال ما انطوى عليه قلب صاحب الجواهر رض من نية حسنة وحالصة من طلب الجاه والسمعة، فهي السبب في توفيق المؤلف لإكمال الكتاب وهي السبب في رواجه عند الناس، ويظهر أمر حسن النية وخلوصها مما حكي عن تكملة أمل الآمل: أنّ الشيخ قال ل聆ميذه الشيخ محمد حسن آل يس عن كتابه (الجواهر) : "والله يا ولدي أنا ما كتبته على أن يكون كتاباً يرجع إليه الناس، وإنما كتبته لنفسي حين أخرج إلى (المدارس) - بلدة السادة أخواله من قرى الحلة - وهناك أسأل عن المسائل، وليس عندي كتب أحملها؛ لأنّي فقير، فعزمت - وأقول: يا لها من عزمه، وكما يقول المتنبي: على قدر أهل العزم تأتي العزائم - أن أكتب كتاباً يكون لي مرجعاً عند الحاجة ...".

س٤: ما هو فقه الجواهر؟

الفقه الجواهري هو فقه الصناعة والأصول الاجتهادية، هو الفقه المبني على الأسس العلمية للاستنباط والذي يجافي الظنون التي لا تغنى من الحق شيئاً، الفقه

الجواهري يعني البحث المتضمن للعمق والشمولية لا أن تستطع عملية الاستنباط. وليس المراد بالفقه الجواهري -الذي دعا الإمام الخميني رحمه الله الحوزات العلمية أن تتبع خطواته- هو ما يساوق الفقه المشهوري. كما ليس المراد من هذه الدعوة أن تتبني آراء صاحب الجواهر رحمه الله فيما ما يتصل منها بولاية الفقيه.

س٥: ما هي المدارس الفقهية التي تعد في مقابل فقه الجواهر، وهل يوجد فقه ما عدا فقه الجواهر؟

لا توجد مدارس -بالمعنى الصحيح للفظ المدرسة- في مقابل الفقه الجواهري، نعم ثُبتت صيحات أو ممارسات وُئدت في مهدها تنادي بفقه جديد يقوم على نحو ما عليه العامة أو بعضهم، والذي يعرف بالفقه المقصادي، والذي يعزل -بالتالي- قال الباقر وقال الصادق عليهما السلام من جهة، ويعتمد الطنون الاجتهادية التي لا تشمل حقاً من جهة ثانية، ويؤذن بوداع الصناعة الفقهية المعتمدة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام من جهة ثالثة.

وقد انتهى ذلك الفقه ببعضهم -من حيث يشعر أو لا يشعر- إلى: حسبنا كتاب الله، فأحدهم كان يتحدث عن آية ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَتَّقُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْتَنَعُوكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾^(٣٣) وعن الروايات التي تحدد القصر والإفطار بسفر ثانية فراسخ وأخرى بسيرة يوم ونحوها، فقال: "فإن الروايات وأراء الفقهاء مهما كانت كثيرة ولا فتة للنظر لا ينبغي أن يكون لها دور في مقابل القرآن سوى الرد أو التفسير بما يناسب القرآن". وهذا على خلاف الصناعة الفقهية المتعارفة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام من إجراء صناعة الإطلاق والتقييد وإن كان المطلق كتابياً والمقييد غير كتابي.

هذا والحوzات العلمية ورجالتها -بحمد الله- في عافية من ذلك الفقه المعوق،



ولا تستبدل عن الفقه الجواهري ما سواه كائناً ما كان.
ودرس الفقه في الموزارات العلمية -على مستوى البحث الخارج- وإن اعتمد في سيره على كتاب العروة الوثقى كمتن فقهي موسّع إلا أنه على مستوى الممارسة الصناعية لا يجانب الفقه الجواهري.
والحمد لله أولاً وآخرأ، وصلى الله على محمد وآلـه.

الهوامش:

- (١) منهاج الصالحين ٢: ٣٤٤ م ١٦٨١ ط ٣١ لمؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي تتبّع.
- (٢) الروضة البهية ١: ٦٦ ط مجمع الفكر الإسلامي.
- (٣) انظر: بحوث في شرح العروة الوثقى للشهيد الصدر ٣: ٢٩٧.
- (٤) انظر: دليل العروة الوثقى، تقريراً لأبحاث الشيخ حسين الحلي، بقلم الشيخ حسن سعيد الطهراني ١: ٤٣٣، بحوث في شرح العروة الوثقى ٣: ٢٩٨.
- (٥) انظر: كتاب الطهارة للشيخ الأعظم الأنصاري ٥: ٩٦.
- (٦) الحاشية على الروضة البهية للشيخ الترافقي ١١٢، وانظر: كتاب الطهارة ٥: ٩٦.
- (٧) انظر: الحدائق الناضرة ٥: ٢١٢.
- (٨) انظر: كتاب الطهارة ٥: ٩٧.
- (٩) لاحظ: ما نشر لي في مجلة (رسالة القلم) -العدد ٢٣ بعنوان "المسوخ وأحكامها" ص ١٩٢ - ١٩٨.
- (١٠) وسائل الشيعة ٢٤: ١١١ ب ٢ من أبواب الأطعمة المحرّمة ح ١٦.
- (١١) وسائل الشيعة ٢٤: ١١٢ ب ٢ من أبواب الأطعمة المحرّمة ح ١٩.
- (١٢) سورة الأنعام: ١٤٥.
- (١٣) كتاب الطهارة ٥: ٩٧.
- (١٤) انظر: التنقیح في شرح العروة الوثقى = موسوعة الإمام الخوئي تتبّع ٣: ١٥، ١٦، مستمسك العروة الوثقى ١: ٣٥٣.
- (١٥) وسائل الشيعة ٢٤: ١٢٣ ب ٥ من أبواب الأطعمة المحرّمة ح ٦.

- (١٦) كما في التهذيب ٩: ٦ ح، والاستبصار ٤: ٦٠ ح، ولكن في تفسير العيّاشي وكتاب عاصم بن حميد بدون ما بين العقوفتين، كما في مستدرك الوسائل ١٦: ١٧٨.
- (١٧) وسائل الشيعة ٢٤: ١٣٦ ب من أبواب الأطعمة المحرّمة ح ٢٠.
- (١٨) لاحظ للمزيد ما نشر لي في مجلة رسالة القلم - العدد ١٥، بعنوان: قاعدة إنما الحرام ما حرم الله في كتابه.
- (١٩) كتاب الطهارة ٥: ٩٨-٩٧.
- (٢٠) وسائل الشيعة ١٧: ٨٩ ب ٤ من أبواب ما يكتسب به ح ٤.
- (٢١) وسائل الشيعة ٢٥: ١١٧ ب ٦١ من أبواب الأطعمة المباحة ح ١.
- (٢٢) من لا يحضره الفقيه (المشيخة) ٤: ٦١.
- (٢٣) وسائل الشيعة ٢٥: ١١٩ ب ٦١ من أبواب الأطعمة المباحة ح ٦.
- (٢٤) وسائل الشيعة ١٧: ٦١-٨٧ من أبواب ما يكتسب به ح ١.
- (٢٥) انظر: أنوار الهدایة في التعليقة على الكفاية للإمام الخمینی ره ٢: ٧٢).
- (٢٦) وكذا الإمام الخمینی عليه السلام كما في تهذيب الأصول ٣: ٨٥، وإن ذهب في أنوار الهدایة ٢: ٧٢ إلى عدم اختصاص الرواية بالشبهات الموضوعية.
- (٢٧) مصباح الأصول = موسوعة الإمام الخوئي قائمة ٤٧: ٣١٦ - ٣٢١.
- (٢٨) ولكن طبق صحيحة ابن سنان - وعلى خلاف ما قررته في الأصول - على شبهة حكمية في الفقه في مسألة تصرف غير ذي الخيار في زمان الخيار وأنه لا يجوز وضعاً وتكليفاً، ورغم ذلك التزم المشهور فيما لو باع جارية وجهل لنفسه الخيار بأنه للمشتري وطئها، مع أنه تصرف في المال من غير ذي الخيار، مع التزام المشهور بأن الاستيلاد حقّ مانع عن الرد، وهو مقدم على حقّ الخيار، مع أنّ الوطء يوجب الاستيلاد، والجمع بين الالتزامية غير ممكن؛ فإنّ لازم القول بجواز الوطء مع البناء على أنّ الاستيلاد مانع عن الردّ القول بجواز تصرفات غير ذي الخيار، كما أنّ لازم القول بعد جواز تصرفات ذي الخيار الالتزام بحرمة الوطء الذي هو في معرض الاستيلاد.
- واحتمل السيد الخوئي قائمة أن يكون نظر المشهور في ذلك إلى نفس الوطء؛ فإنه بنفسه ليس تصرفًا منافيًّا لحقّ ذي الخيار في الرد، إذ يمكن ردّ الأمة بعد وطئها، نعم الوطء من حيث إنه يوجب الاستيلاد مانع عن الرد إلا أن الاستيلاد لا يتحقق في جميع الموارد، فإذا شكنا في

أنه يوجب الاستيلاد أو لا، والتزمنا بعدم جريان الاستصحاب في الأمور المستقبلة لنفيه ولا في الأعدام الأزلية - فالظاهر - والكلام للسيد الخوئي ق - أنه لا مانع من التمسّك بالبراءة في رفع احتمال حرمة الوطء؛ لأن «كل شيء من حلال وحرام فهو لك حلال» فالوطء حلال؛ لأنّ فيه حلالاً وحراماً.

انظر: التتفيق في شرح المكاسب = موسوعة الإمام الخوئي ق ٤٠: ١٨٤ - ١٨٥.

(٢٩) التوحيد للصدوق ع: ٣٥٣ ب ٥٦ ح ٢٤.

(٣٠) انظر: معجم رجال الحديث ٩: ٣١٣ - ٣١٥ (٥٥٥٦).

(٣١) الكافي ٦: ٢٤٧ ح ١، وسائل الشيعة ٢٤: ١١٤، ١٠٥ ١٠٥ ب ٣، ٢ من أبواب الأطعمة المحرّمة ح ٣، ٣.

(٣٢) تحف العقول: ٣٣٧، وسائل الشيعة ٢٥: ٨٤، ٨٥ ب ٤٢ من أبواب الأطعمة المباحة ح ١.

(٣٣) سورة النساء: ١٠١.





تأملات في مفردات دعاء مكارم الأخلاق

الشيخ على إبراهيم عبد العال

لقد احتوت الصحيفة العلوية السجادية مضامينٌ فائقة تفتّقت عن معدن الإمام فاستغنت بذلك، كما صرّح بعضُ من كبار العلماء، عن الإسناد. وهي الصحيفة المتلقاة بالقبول والاهتمام من لدن أساطين علماء الطائفة وعارفيها ومن تأمل فيها وجد صدق هذا الكلام بعين الشهود. قال المولى محمد تقى المجلسي في روضة المتّقين: "عبارة الصحيفة دالة على أنها ليست من البشر - سيما من عمير ومتوكل اللذين ليسا من علماء العامة ولا من علماء الخاصة - فإنّ علماء العامة كيف يمكنهم أن ينسبوا ذلك إلى أئمّتنا عليهم السلام، والخاصّة كيف كانوا بهذه الفضيلة العظيمة ولم يكن يعرفهم أحد أصلاً،

على أنَّ الوجودان الخالي عن التمثيل يجزم بأنَّها فوق كلام المخلوق، ويمكن أن تكون من كلام الله تعالى، بأن تكون منقوله عن النبي ﷺ.

وقال السيد السندي العلوي صاحب الرياض: "واعلم أنَّ هذه الصحيفة عليها مسحة من العلم الإلهي، وفيها عبقة من الكلام النبوى، كيف لا، وهو قبس من نور مشكاة الرسالة، ونفحة من شميم رياض الإمامة، حتى قال بعض العارفين: إنَّها تجري مجرى التنزيلات السماوية، وتسير مسيرة الصحف اللوحية والعرشية، لما اشتتملت عليه من أنوار حقائق المعرفة، وثمار حدائق الحكمة. وكان أخبار العلماء، وجهابذة القدماء من السلف الصالح يلقيونها بزبور آل محمد وإنجيل أهل البيت" ^(١). ثم يضيف الحقن الكلباسي في رسائله الرجالية كلاماً لابن شهر آشوب وأخر له بنفس المضمون، فلاحظ.

هذا، ونذكر في طيات هذه المقالة بعضاً يسيراً من الموارد التي اختلفت فيها تعبيرات دعاء مكارم الأخلاق، بحسب النسخ المروية بالطرق المختلفة، من حذف كلمة وإضافة أخرى ونحاول الترجيح بينها من خلال المعنى لا غير. ومن الواضح أنَّ هذا لا يعني من الواقع شيئاً وهذا لا يحتاج إلى بيان ولكن حسبنا أن يكون التدبر هو المقصود.

قوله عليه السلام: «اللهم وفر بلطفك نبي، وصحح بما عندك يقيني».

فقد ورد في نسخة الشهيد الأول عليه السلام: «وفره بلطفك نبي».

قال السيد علي خان المدني عليه السلام: "وفي روایة بعض النسخ: وفره -فتح الفاء وتشديد الراء المهملة وكسرها وبعدها هاء ساكنة- فعل أمر من الفراهة. قال ابن الأثير في النهاية: دابة فارهة، أي نشطة جداً قوية"، ثم قال السيد: "ومن عجيب ما وقع لبعض المترجمين هنا أنه ظن أنَّ الهاء في هذه الرواية ضمير متصل بفعل الأمر من التوفير فقال: مرجع الضمير النية بتأويل المذكور ونفي بدل من ضمير وفره.

انتهى. وهو خطأ أوقعه فيه التصحيف المذكور^(٢).

فها هنا روايات ثلاث:

الأولى: «وَفَرْ بِلْطَفْكَ نِيَقِي». فيكون المطلوب هو التوفير. ووفور النية كما عن شرح الدارابي عبارة عن بلوغها إلى درجة الكمال في الإخلاص^(٣).
 قال السيد علي خان رحمه الله أنّ المعنى على هذه الرواية هو: "اجعل نيتی تامة كاملة بكونها خالصة لوجهک الكريم، من غير نقص فيها بشوب غرض آخر
 قال بعض العارفين: إنّ عون الله للعبد بقدر نية العبد، فمن تَمَّتْ نيتُه تم عون الله له بقدرها"^(٤).

والثانية: «وَفَرْه بِلْطَفْكَ نِيَقِي» على أنّ فَرَه فعل أمر من الفراهة.

والثالثة: «وَفَرْه بِلْطَفْكَ نِيَقِي»، على أن الهماء ضمير متصل فيصير المعنى: اللهم وفَرْه بلطفك، أي وفر نيتی بلطفك، ويكون لفظ نيقي في آخر الجملة إفصاح بعد الإضمار، والضمير في وفره يؤول بالرجوع إلى المذكور.

والمحاكمة إنما بين المعنيين الأولين، بعدما كان المعنى الثالث لا يخلو من كلفة والمفترض أنّ العبد في مقام الدعاء لا يلتفت إلى إنشاء هذه العبارات البعيدة عن السليقة والمحتجة لإعمال الفكر في استخراج المعنى، لكونه متشغلاً بما لا يدع له مجالاً لذلك. وعلى هذا، وبالاعتماد على التفسيرين المنقولين (الثاني والثالث)، فالمعنيان متقاربان في الرجحان، لأنّ طلب النية الكاملة التي ليس فيها نقص بشوب غرض آخر لا يقلّ أهميّة عن طلب النية الجادة القويّة الفارهة. إلا أنّ طلب تتميم النية، وهو المعنى الأول، أبلغ من طلب تقويتها، لأنّ التتميم فيه إشعار بأنّ الناقص غير المتم لافائدة فيه، لأنّ العبرة إنما بالشيء بعد تمامه واجتماع أجزاءه التي باجتمعها يتربّ الأثر. وهذا بخلاف طلب التقوية الذي لا يخلو من شائبة الاعتداد بهذه النية التي على هذا المعنى إنما تحتاج إلى التدعيم



بعد أن كانت صالحة في حد ذاتها. فكأن الداعي على المعنى الأول يطلب من الله أن يأخذ بيده في جميع المراتب، وهذا أنساب بمقام الضراعة من طلب الفراحة. هذا، مع أن استعمال الفراحة غير مأнос في مثل النية وأمثالها، بخلاف استعمال الوفرة فيها. ولكن هذا بحاجة إلى استقراء ومتابعة.

قوله عَلَيْهِ: «وترك التعيير، والإفضال على غير المستحق».

فقد ورد في نسخة المحقق الكركي «وترك التقيير» بدلاً عن ترك التعيير. وما يرجح لفظة «التقيير» هو الفقرة التالية لهذه الفقرة «والإفضال على غير المستحق». رجح هذا المحقق الدارابي مبرراً له بأن إعطاء غير المستحق إسراف فناسب أن يقابل التقيير. وما يرجح لفظة «التعيير» مقابلة هذه الفقرة بالفقرة السابقة وهي طلبه عَلَيْهِ من الله أن يمن عليه بإيشار التفضل الذي هو اختيار الإحسان إلى الناس، فناسب أن يرده بالطلب منه أن يترك إلحاق العار بهم وهو ترك التعيير. ولكن الذي يجعل الأسبقية للفظ التعيير أمور:

الأول: إن قوله «وترك التقيير» شامل لجميع أنواع وأحوال ترك التقيير، مع أن ترك التقيير ليس محموداً على كل حال، بل يستحب التقيير على النفس في بعض الموارد، إما من باب ترويضها وعدم تعويتها على الانهماك في المذلة فيصعب عليها النقلة، وإما من باب مواساة الإخوان. فقوله وترك التقيير مع عدم تقييده بشيء شامل بظاهره لمطلق أفراد التقيير.

إشكال على هذا الكلام ورده:

ربما يقال: نحن لا نسلم شموله لجميع أحوال التقيير، بل لفظ التقيير منصرف عن التقيير المحمود لأن الملحوظ في سوقه مع إطلاقه ليس إلا جنبة الذم. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾^(٥)، حيث لم يقيد لفظ التقيير في الآية بشيء، بينما كان عليه التقييد

في أساليب المحاورة.

والآن نعود لرجحات هذا الرأي.

الثاني: إنّ ما ذكره الحق الدارابي من مرّجح غير مسلم، لأنّ الإفضل على غير المستحق وإن كان تبذيرًا كما ذكره ولكن لماذا قيده الإمام عاشور في الدعاء بغير المستحق ولم يقيده بإنفاقه في غير محله؟ وبعبارة أخرى، إنّ الإفضل على غير المستحق إنّما هو فرد من أفراد الإسراف، والإسراف أوسع منه. فمقتضى المقابلة التي ذكرها هو أن يدعوا الله بأن يبعده عن مطلق الإسراف وهو إنفاق المال في غير محله، لا أن يبعده عن إنفاق المال على غير المستحق فقط، لأنّ الذي يقابل مطلق التقتير هو مطلق الإنفاق في غير محله لا حصة خاصة منه. وهذا يكشف عن أنّ المقابلة ليست هي الملحوظة، وبذلك تسقط عن كونها مرجحاً. هذا، وقد صرّح بعض الفقهاء باستحباب التقتير على النفس والتوسعة على العيال. وأما التعير فهو مذموم على كل حال، فناسب أن يكون هو المعنى الذي طلب الابتعاد عنه. ولو فرضنا أنّ مؤمناً غير من يستحقه، فلا يسمى هذا تعيراً.

بالتقدير المذموم. إذاً فإنطلاق التقتير لا ينافي أنّ منه أفراداً محمودة لانصرافه عنها. الجواب: أمّا بالنسبة إلى الآية فالتقدير فيها ليس مطلقاً بل أخذ بكونه الحد الأقصى المقابل للإسراف، وذلك بقرينة المقابلة بالإسراف، وهذا تعبير آخر عن تقيد التقتير بالمذموم. فإنّ لاحظه بكونه ضدّاً للإسراف يضيق من دائرةه وإن كان مقتضى اللفظ السعة. وأما أصل مسألة الانصراف عن التقتير محمود إلى خصوص المذموم، فهذا الانصراف لا يتم لأنّ الداعي كان بإمكانه أن يطلب الاعتدال في الإنفاق بدلاً عن ترك التقتير، وهذا هو مقتضى الأصل لأنّه طلب مباشر والحال أنّ طلب عدم التقتير طلب لذلك باللازم. فلما عدل عن الأصل علمنا بوجود نكتة لهذا العدول تجعل هذا الانصراف مشكوكاً. وهذا يلاحظ عموماً



فلا يتوهם بأنّ التعير أيضاً محمود في بعض الحالات.
والثالث: هذا كله مع أنّ تتبع فقرات الدعاء يكشف عن التنقل الدائم بين
الفضائل والرذائل المتنوعة بحيث يكون ذلك هو مبني السياق العام للدعاء.
فلا استيحاش في إرداد صفة بأخرى. وعليه يمكن توجيه أنّ التنوع لا يقلّ
رجحانًا عن المقابلة.

قوله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: «اللَّهُمَّ صَلُّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واجْعَلْ أُوسَعْ رَزْقَكَ عَلَيَّ إِذَا كَبَرْتَ،
وأَقْوِيْ قَوْتَكَ فِي إِذَا نَصَبْتَ».

فقد ورد في بعض النسخ «أقوى قوتك في إذا قيت» بفتح النون وكسرها.
فهذه ثلاثة نسخ. أما قوله «في إذا نصبت»، فمعناه أن يا رب اجعل لي القوة حين
لزم عليّ التعب، حتى يكفيني تحمل التعب والمشقة. وأما على نسخة قنيت بفتح
النون، فذكروا أنها مأخوذة من قفي له الشيء وقاني له، أي دام. فالمعنى أن يا رب
اجعل لي القوة إذا طال دوامي بالطاعة. أما على كسرها، فالمعنى اجعل لي القوة إذا
لزمت العبادة ولا زمتها.

ولا يخفى أنّ المعنى على فتح النون لا يصلح بحسب الظاهر أن يكون سبباً
لطلب القوة، لأنّ طول الدوام بالطاعة إذا أرجعنا طلب القوة معه إلى كون العبد
لزم عليه التعب الذي تضعف معه العبادة، فهذا راجع للفرض الأول وهو لفظة إذا
نصبت. فلفظ قنيت بفتح النون على هذا الإرجاع الذي أرجعناه تكون دلالته
على المطلوب التزامية، ولا يخطر في البال مبرر مقنع ليطلب العبد القوة احترازاً
عن التعب بلفظ لا يدلّ عليه إلا بالالتزام، خصوصاً أنه إذا أرجعناه إلى طلب
القوة لأنّه أطال العبادة، فهذا لا يخلو من منة من العبد على الله. وهذا من أشدّ ما
يفسد الغرض من الدعاء، ولا بد من الهروب منه تحقيقاً وتلويناً.

وأما على كسر النون، فيرد عليه ما ورد على فتحها. فالحاصل أنّ المقام لا

يناسب طلب شيء بناء على شيء قد فعله المكلف، كيف والمنة لله عليه في ذلك.
إلا أن نرجع إلى المعنى الأول، فهو المتعين.

قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعِلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي رُوعِيْ مِنَ التَّمْنِيْ وَالتَّظَيْ وَالْحَسْدِ ذَكْرًا لِعَظَمَتِكَ وَتَفَكَّرًا فِي قَدْرَتِكَ وَتَدْبِيرًا عَلَى عَدُوكَ، وَمَا أَجْرَى عَلَى لِسَانِي مِنْ لَفْظَةٍ فَحْشٌ أَوْ هَجْرٌ أَوْ شَهَادَةٌ بَاطِلٌ أَوْ اغْتِيَابٌ مُؤْمِنٌ غَايَبٌ... نَطَقًا بِالْحَمْدِ لَكَ».

فقد جاء في نسخة «جري» بدون الألف بدلاً من «أجري» فعلى حذف الألف يكون الملحوظ نفس ذلك الذي جرى على اللسان، وعلى إثباتها يكون الملحوظ كون إيليس قد أجرى ذلك مضافاً إلى نفس ذلك الذي جرى. ويقوى إثبات الألف لتضمينه معنى الاعتراف والنندم على كون إيليس قد تمكن من التصرف في اللسان، رغم أنّ المرء له قام السلطنة على لسانه. ولكن ينافق بأنّ حذف الألف وإن لم يكن فيه معنى الاعتراف بغلبة الشيطان، ولكن الداعي في مقام الندم والفرز من الذنب لا يستحضر إلا الطامة العظمى وهي ذنبه، ويعنيه ذلك عن تذكر أنّ الشيطان أو غيره كان السبب في ارتکابه لذلك، لأنّ ذلك يشغله عن النندم. فمع النندم الشديد لا يكاد المرء يتذكر شيئاً حتى يتذكره بل ويصفه بأبلغ الكلمات. فهذه القرينة لوحدها لإثبات الألف لا تخليو من معارضة.

ومع ذلك فالأقرب هو إثبات الألف، وذلك بلاحظة أنّ العدول من صيغة المضارع غير المتعدية في قوله ﷺ: «يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي رُوعِيْ» إلى صيغة الماضي المعداة في قوله ﷺ: «أَجْرَى عَلَى لِسَانِي» إنما جاء لغاية مهمة، وهي أنّ إلقاء الشيطان في الروع مستمر و دائم لأنّه ليس من قدرة المكلف منع الإلقاء - بل الشيطان يلقي حتى في روع الأنبياء. أما أنه هل يحصل به التأثر أم لا فتلك مسألة أخرى. وهذا أمير المؤمنين ع يقول: «إِنَّ لِي شَيْطَانًا وَلَكِنِي صَرَعْتَه» ومن هنا ناسب في إفاده الإلقاء أن يأتي بما يفيد الاستمرار ذاتاً. وأما الجريان على

اللسان، وهو نفوذ نفثات الشيطان من جنان الإنسان إلى جوارحه ولسانه، فتحتحققه غير معلوم، لأنّ سلطان الشيطان على سنته فهو محدود. ومن هنا ناسب الإتيان بصيغة الماضي لأنّ الملحوظ في الماضي حتى المستمر حالة أنّ الشيء قد تحقق، وفي المضارع المستمر أنه مستمر التتحقق. ولا يضره أنّ الماضي مفيض للاستمرار أيضاً، إذ من المعلوم أنّ كون الشيء قد تحقق فيه معنى أنه قد لا يتحقق. وأما مستمر التتحقق فليس النظر فيه إلى قضية أنّ الشيء قد حدث. فالحاصل أنّ العدول إلى الماضي أعطى معنى التتحقق، وإثبات الألف أعطى معنى أنه من الشيطان. ولو لا إثبات الألف لكان معنى التتحقق ناقصاً، لأنّ المهم أنّ الشيطان قد تسبب، لا صرف أنّ الجريان قد وقع.

والشيء الآخر، مع غض النظر عن قضية العدول، يمكن إثبات هذا الرأي أيضاً بأنّ الفقرة المبتدأة بنسبة الإلقاء إلى الشيطان «ما ألقى الشيطان في روعي» كأنّها شروع في تعداد مشاغبات الشيطان التي يضعف عندها العبد رغم قدرته على دفعها بما وهبه الله من العقل والاختيار، ولا يبعد أن يكون ذكر ما جرى على اللسان متتماً لذلك التعداد، فلا بد من نسبة الجريان إلى إجراء الشيطان حينئذ.

قوله عليه السلام: «اللهم لا تدع خصلة تعاب مني إلا أصلحتها، ولا عاية أؤنب بها إلا حستها، ولا أكرومة في ناقصة إلا أتمتها. اللهم صلّ على محمد وآل محمد...».

فقد ذكر الحق الدماماد عليه السلام: أنّ «في» بالتحريف لا بالتشديد، ولم تتشهر بالتشديد إلا لأنّ بعض من استووحش من تخفيفها لعدم التفاته إلى دقيق المعنى قد أضاف إليها التشديد. قال: "ولا أكرومة من كراميin الأخلاق في درجة ناقصة. من: نقص الشيء نقصاً ونقصاناً فهو ناقص. أي: في ملابسة شائبة من شوائب الرذائل تشمنها وتتقصدتها وتحطّها عن درجة الكمال. ومنه في التزيل: نصبيهم غير منقوص.

هذا إذا حملنا ناقصة على اسم الفاعل. أما إذا حملناها على المصدر -إذ فاعلة من أوزان المصدر كالفاتحة والعافية والكافية- فالمعنى: ولا أكرومة في نقصان إلا أزاحت نقصانها وأتممت كمالها". ثم قال في ترجيح التخفيف على التشديد: "ومن القاصرين في عصرنا من لم يكن يستطيع إلى إدراك الفامضات والنقص عن مضائق العضلات سبيلاً فحرفها إلى ((في ناقصة)) بإضافة في إلى ياء المتكلم والتشديد للإدغام ونصب ناقصة على أنّ هي صفة أكرومة المنصوبة على المفعولية. فنشأ ذلك التحرير في النسخ الحديثة المستسخة".

ثم ذكر سببين يجعلان الالتزام بالتشديد باعثاً على الهجنة في العبارة، وناقشه الشيخ محمد تقى الشريعتمدارى في حاشية رياض العارفين. أما السببان اللذان ذكرهما فحاصلهما أولاً: إنّ أكرومة معطوفة على خصلة، وهذا يتضىء أن يكون تقدير الكلام (ولا تدع مني أكرومة في ناقصة) فيجمع «مني» و«في» فيرجع إلى هجنة وضمة. وثانياً: أنّ الفصل بين الصفة والموصوف بالجار والجرور مما يعد هجيننا. أما مناقشة الوجه الأول فإنّ العطف ليس سوى أن يدخل على المعطوف ما دخل على المعطوف عليه، لا أنه يلحقه ما يلحقه ليقال بلزم لحوق «مني» لا أكرومة. وأما مناقشة الوجه الثاني فلكون هذا شائعاً فهو غير مستهجن^(٦). وكيف ما كان، فملخص ما ذكره في أصل المسألة أنه على تخفيف الياء هناك

معنيان محتملان:

الأول: على أنّ ((ناقصة)) اسم فاعل، فيكون المعنى اللهم لا تدع مني خلقاً كريباً ملابساً لشائبة تنقصه إلا أتمته.

الثاني: على أنّ ((ناقصة)) مصدر فيكون المعنى اللهم لا تدع مني خلقاً كريباً كائناً في نقصان إلا أتمته.

أما على تشديد الياء، فالمعنى واضح، وهو اللهم لا تدع مني خلقاً كريباً ناقصاً

إلا أقْمَتْهُ.

وبهذا البيان يتضح مدى قرب المعاني من بعضها البعض بعد صرف النّظر عن السببين اللذين ذكرهما لدفع احتمال التشديد لأنّا نصرف النّظر عنهما إذ لم يذكر مرجحاً للتخفيف سواهما، وهما مناقشان. فالذى يتراهى: إنّ المهم في مقام الدعاء بالإلتام ليس سبب أو كيفية نقصان الأكرومة بل المهم أنّها ناقصة، فإنه لا عدم معرفة سبب أو كيفية النقصان يدفع الداعي لعدم الدعاء، ولا معرفة سببه هو الدافع للدعاء. فلا تبدو أهميّة للإفصاح عن أن طريق النقصان هو الملابسة لما ينقصه أو وصف الخلق بأنّه كائن ومستقر في النقصان. بل في هذه العجلة لا يظهر معنى ذو بال لتتكلّف الله كائن في نقصان عوضاً عن مجرد وصف الخلق بالنقصان. فالذى يظهر أنّ معنى التشديد أقرب لما قد تعتبره الأصل الحالى من التعقيد، والآخران بحاجة إلى تتكلّف زائد.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

الهوامش:

- (١) نقاًلاً عن الرسائل الرجالية، لأبي المعالي محمد بن إبراهيم الكلباسي، الجزء الثاني صفحة .٥٩١ - ٥٨٩
- (٢) رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين، السيد علي خان المد니، الجزء الثالث صفحة .٢٨٩
- (٣) رياض العارفين في شرح صحيفة سيد الساجدين، محمد بن محمد دارابي، صفحة .٢٣٦
- (٤) رياض السالكين صفحة .٢٨٩
- (٥) الفرقان .٦٧
- (٦) رياض العارفين في شرح صحيفة سيد الساجدين، تأليف محمد بن محمد دارابي، علّق عليه آية الله محمد تقى شريعتمداري. صفحة .٢٤٢



بِرُّ الْوَالِدِين فِي الصَّحِيفَةِ السَّجَادِيَّةِ

اشْيَخُ حِسَنِ أُوْيِبِ النَّاصِرِ

مقدمة

بِرُّ الْوَالِدِينَ مِنَ الْمَسَائلِ الَّتِي اهْتَمَّ بِهَا الإِسْلَامُ الْعَزِيزُ
اَهْتَمَمًا بِالْعَلَا، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَالرَّوَايَاتُ الشَّرِيفَةُ حَتَّى عَلَى
هَذَا الْخَلْقِ الْكَرِيمِ. وَقَدْ جَاءَ التَّأكِيدُ عَلَى حَقِّ الدُّعَاءِ
لِلْوَالِدِينَ كَأَحَدِ الْمُحْقُوقِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي لَهَا مِنْ خَلَالِ
الآيَةِ الْمَبَارَكَةِ ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَنِي
صَغِيرًا﴾^(١)، وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيفَةِ السَّجَادِيَّةِ دُعَاءُ الْإِمامِ
السَّجَادِ عَلَيْهِ لَأْبُوِيهِ، لِيُؤَكَّدَ عَلَى مَسَأَةِ الدُّعَاءِ لِلْوَالِدِينِ.

وَهَذَا الْمَوْضِعُ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي بَيْنَ يَدِيكَ، مُحاوَلَةً لِلوقوفِ عَلَى بَعْضِ فَقَرَاتِ

هذا الدعاء المبارك، التماساً لبعض الطرائف والإشارات التي يكتنفها الدعاء، مع ملاحظة أنّ ما يذكر من أمور هي ما يمكن فهمه من كلام الإمام عَلِيٌّ عَلِيٌّ، وإلا فإنّ فهم المراد الحقيقي من كلام للمعصوم لا يفهمه إلا المعصوم، فما يُذكَر هنا مجرّد احتمالات لا يُجزم بكونها المعنى المقصود للإمام صلوات الله وسلامه عليه.

وكانت الاستفادة في هذا البحث من كتاب رياض السالكين للسيّد علي خان المدّني الشيرازي. وقبل البدء بالبحث في فقرات الدعاء نذكر مقدمة: لماذا الدعاء للوالدين؟ ولماذا لا يُكتفى بالإحسان الخارجي لهم، كالطاعة والاحترام؟ الجواب:

- لكون الأمر بالدعاء أمراً إلهياً، فلا بد من العمل به من باب التعبّد وإن لم نعلم سببه ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَفِيرًا﴾.
- عظم حقّ الوالدين بحيث لا يمكن أداء الحقّ الخارجي لهم فيأتي دور الدعاء والطلب من الله تعالى في أن يرزقهما خير الدنيا والآخرة عوضاً عن أتعابهما في تربية الابن والتي لا يمكن مجازاتها في الدنيا من قبل الإنسان نفسه مهما فعل (وسيّأتي التصرّيف من الإمام عَلِيٌّ عَلِيٌّ في الدعاء بخصوص هذا الأمر).
- ومن عظم حقّ الوالدين (بالاستفادة من كتاب رياض السالكين):
 - أنّهما سبب وجود الولد كما أنّهما سبب التربية، أمّا غيرهما فقد يكون سبب التربية فقط، فلا إنعام بعد إنعام الله تعالى أعظم من إنعام الوالدين.
 - إنّ إنعامهما يشبه إنعام الله تعالى من حيث أنّهما لا يطلبان ثناءً ولا ثواباً.
 - كما أنّ المناسبة والعلاقة بين واجب الوجود وممكن الوجود ذاتية لا عرضية، كذلك العلاقة بين الوالد وولده.
 - من غاية شفقة الوالدين أنّهما لا يحسدان ولدَهَا إذا كان خيراً منها بل

يتمنيان ذلك بخلاف غيرهما.

وقد أشار صاحب رياض السالكين بعد ذكره روایات في عظيم حق الوالدين بقوله: "وقد دلت هذه الأخبار على أن أكثر حقوق الوالدين وبرهما كما يجب، مما لا يعلمه إلا الله أو من علمه الله، والله أعلم" ^(٢). وأشار تبّش إلى شبهة وقع فيها بعض المتسّمّين بالحكمة - كما عبر عنه - في أنه كان يضرب أباه ويقول: هو الذي أدخلني في عالم الكون والفساد، وعرّضني للفقر والعمى والزمانة. وآخر قال في ترك التزوّج والولد أنه أمر أن يُكتب على قبره هذا الشعر:

هذا ما جناه أبي عليٌ وما جنّيت على أحدٍ

وفي جواب الشبهة قال: "وهذا كله جهل منهم بنعمة الوجود المستبعة لجميع النعم والمنافع في الدارين" ^(٣). وذكر نفلاً عن أحدهم: "هب أنّ الوالد في أول الأمر طلب لذة الواقع، إلا أنّ اهتمامه بإيصال الخيرات إلى الولد ودفع الآفات عنه، من أول دخول الولد في الوجود إلى أوان كبره بل إلى آخر عمره لا ينكر ولا يكفر".

الموضوع

المقطع الأول: (الصلوة على النبي ﷺ):

"اللهم صلّى على محمدٍ عبدك ورسولك وأهل بيته الطاهرين، واصحّهم بأفضل صلواتك ورحمتك وبركاتك وسلامك...".

لماذا صلّى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ على النبي ﷺ في بداية هذا الدعاء الذي هو دعاء لوالديه، وما العلاقة بين الأمرين؟ يمكن أن يطرح جوابان:

الأول: هو الجواب المتبادر وهو أن كل دعاء محجوب حتى يصلّى على النبي ﷺ، فبهذا لا تكون خصوصية هذا الدعاء في أنه ابتدأ بالصلوة على النبي ﷺ. فقد ورد عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كل دعاء محجوب عن السماء حتى

يصلّى على محمد وآلـه^(٤).

الثاني: هو ما أشار إليه السيد علي خان المدّني الشيرازي في شرح الصحيفة السجادية، وحاصله: أنَّ الإنسان قبل أن يدعو لوالده النسيبي لا بدَّ من أنْ يدعو لوالده المعنوي وهو النبي ﷺ، ونقل هذا الحديث: «يا عليّ أنا وأنت أبوا هذه الأُمّة»^(٥)، فالنبي ﷺ أبو الأرواح وآدم عليه السلام أبو الأجساد.

المقطع الثاني: (طلب الكرامة والصلة للوالدين):

«واخْصُ اللَّهُمَّ وَالدَّيْ بِالْكَرَامَةِ لِدِيكَ وَالصَّلَاةُ مِنْكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ...».

ما أعظم هذا المقطع في بيان عظمة حقَّ الوالدين! فالإمام السجاد علیه السلام يعلم الإنسان أن يصلّى على والديه ويطلب من الله تعالى لهم الكرامة، كما يصلّى على النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُوْا عَلَيْهِ وَسَلُّمُوا تَسْلِيْمًا﴾^(٦)، اللهم صلّى على محمد وآل محمد، وهذه إحدى الفقرات في الدعاء التي تبيّن عظيم حقَّ الوالدين، وستأتي إشارات أخرى إلى هذا الأمر.

المقطع الثالث: (برُّ الوالدين بين العلم والعمل):

«اللَّهُمَّ صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأَهْلِهِ عَلَيْهِ إِهْمَامًا، واجع لِي عِلْمَ ذَلِكَ كُلَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ اسْتَعْمَلْنِي بِمَا تَلَهَّمَنِي مِنْهُ، وَوَفَقْنِي لِلنَّفُوذِ فِيمَا تَبَصَّرْنِي مِنْ عِلْمِهِ، حَتَّى لَا يَفُوتَنِي اسْتَعْمَالُ شَيْءٍ عَلَمْتَنِيهِ، وَلَا تَنْقُلْ أَرْكَانِي عَنِ الْحَفَوْفِ فِيمَا أَهْمَتَنِيهِ».

من الأمور المستفادة من هذا المقطع:

١- دعوة أهل البيت علیهم السلام لتحصيل علوّ الهمة:

فالإمام علیه السلام في هذا المقطع يطلب من الله تعالى العلم الكامل بحقَّ الوالدين، والعمل الكامل بمقتضى هذا العلم، وهذه دعوة إلى علوّ الهمة.

وكما في الرواية عن أبي عبد الله علیه السلام: «لَيْسَ مِنْ شَيْعَتِنَا مَنْ يَكُونَ فِي مَرْكَبَةِ مِائَةِ أَلْفٍ وَيَكُونَ فِي الْمَصْرِ أُورَعَ مِنْهُ»^(٧).

إذاً المطلوب هو علوّ الهمة، ويكون ذلك أولاً بعلوّ الهمة على مستوى نظريّ، والذي يكون مقدمة للتطبيق العمليّ ولو بعد حين، أمّا من كانت همته على المستوى النظريّ متدنية، فلن يصل في مقام العمل إلا إلى ما أراده أو ربما أقل. فالذي همته أن يبني طابقين، فلن يبني أكثر من ذلك، وأقصى ما يمكن تحقيقه هو الطابقان، أمّا من كانت همته أن يبني ١٠ طوابق، فقد يبني ١٠ أو ٩ أو أقل.

وهنا أيضاً الإنسان يسعى لأن يكون باراً بوالديه بالمستوى الأكمل وذلك من خلال أمرين: معرفة حقهما بشكل كامل، ثم العمل على وفق ذلك العلم، عملاً ليس فيه تقصير. فلم يكتف الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بطلب المعرفة الإجمالية السطحية بحق الوالدين، بل طلب المعرفة الكاملة «وأجمع لي علم ذلك كله تماماً»، وكذلك في جانب العمل لم يكتف بالعمل البسيط الذي قد يكون في بعض الأحيان مسقط للتكليف، بل قال: «حتى لا يفوتي استعمال شيء علمتني».

٢- أهمية العلم والعمل:

مسألة العلم والعمل، وذم ترك أحدهما والاقتصار على أحدهما، من المسائل التي لها موقع في التراث الإسلامي، في الآيات والروايات.

فقد أشار صاحب كتاب منية المريد: "... وقوله تعالى في وصف العالم التارك لعلمه: ﴿مَنِلُّ الذِّينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾^(٨)، أي: لم يفعلوا الغاية المقصودة من حملها، وهو العمل بها ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ هأي خزي أعظم من تمثيل حاله بـ.. الحمار^(٩).

وقد ورد عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «العلم مقرون إلى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجبه ولا ارخل عنه»^(١٠).

وقد ورد عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذم العمل بغير علم: «العامل على غير بصيرة كالسائل

على غير الطريق لا يزيد سرعة السير إلا بعده»⁽¹¹⁾.

وافتراض العلم والعمل أمر مطلوب في كل شيء، ومن هذه الأمور بحسب الوالدين، فللوصول إلى بر الوالدين بالدرجة الكاملة المطلوبة لا بد أولاً من العلم ثم العمل وفق هذا العلم، وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام.
في الحديث: «... واطلب العلم باستعماله...»^(١٢).

وهنا نكتة أشار إليها صاحب الرياض وهي أنَّ العمل بعد العلم لذلك استخدم (ثمَّ) التي تفيد الترتيب.

٣- عظم حق الوالدين:

مرة أخرى يشير الدعاء الشريف إلى عظم حق الوالدين، حيث يبيّن أنّ
حقهما يحتاج لإلهام وتسديد إلهي وليس بالأمر العادي. فكما أنّ المؤمن يطلب
من ربّه أن يعرفه نفسه ورسوله ﷺ وحجّته -كما في بداية دعاء زمن الغيبة-
كذلك يطلب من الله تعالى أن يعرفه حق والديه، وأن يعيشه على العمل بوفق
هذه المعرفة. ومن هنا يظهر أن المطلوب في بر الوالدين ليس البر النابع من الفطرة
فحسب -الذي يكون موجوداً حتى في الحيوانات-، والفطرة قد تختل وتتخلّف،
بل المطلوب هو مستوى آخر نابع من العلم الكامل الذي يحتاج إلى تسديد إلهي.

٤- الالتفات لوجود العوائق:

قد يريده الإنسان أن يعمل وفق ما يعلمه، لكن قد تكون هناك عوائق في الطريق، والإمام عاشقي هنا أشار إلى هذا الأمر «ولا تقل أركاني عن الحفوف فيما ألمتنيه»، فالمقتضي قد يكون موجوداً لكن المانع لم يرتفع، فلا يحصل الأثر المطلوب.

وعليه لا بد من الالتفات إلى مسألة رفع المowanع والعوائق في هذا الأمر، والدعاء من طرق رفع المowanع.

المقطع الرابع: (كيف يكون البر بالوالدين؟):

«اللهم صل على محمد وآلـهـ كما شرفتنا بهـ، وصلـ على محمد وآلـهـ كما أوجـبتـ لناـ الحقـ علىـ الخلقـ بـسيـبهـ. اللـهمـ اـجـعلـنـيـ أـهـابـهـماـ هـيـةـ السـلـطـانـ العـسـوفـ، وـأـبـرـهـماـ بـرـ الـأـمـ الرـؤـوفـ، وـاجـعـلـ طـاعـتـيـ لـوـالـدـيـ وـبـرـيـ بـهـماـ أـقـرـ لـعـيـنـيـ منـ رـقـدـةـ الـوـسـنـانـ، وـأـثـلـجـ لـصـدـرـيـ منـ شـرـبـةـ الـظـمـآنـ، حـتـىـ أـوـثـرـ عـلـىـ هـوـاـهـماـ، وـأـقـدـمـ عـلـىـ رـضـاـيـ رـضـاهـماـ، وـاسـتـكـثـرـ بـرـهـماـ بـيـ وـإـنـ قـلـ، وـاسـتـقـلـ بـرـيـ بـهـماـ وـإـنـ كـثـرـ، اللـهمـ خـفـضـ لـهـماـ صـوـتـيـ، وـأـطـبـ لـهـماـ كـلـامـيـ، وـأـنـ لـهـماـ عـرـيـكـيـ، وـاعـطـفـ عـلـيـهـمـاـ قـلـبيـ، وـصـيـرـنـيـ بـهـماـ رـفـيـقاـ وـعـلـيـهـمـاـ شـفـيـقاـ. اللـهمـ اـشـكـرـ لـهـماـ تـرـيـقـيـ، وـأـتـهـمـاـ عـلـىـ تـكـرـمـيـ، وـاحـفـظـ لـهـماـ مـاـ حـفـظـاهـ مـنـيـ فـيـ صـغـرـيـ...».

في هذا المقطع إشارات منه سلام الله عليه إلى الجانب العملي في بـرـ الـوـالـدـينـ، وهـنـاـ وـقـفـاتـ عـلـىـ بـعـضـ هـذـهـ الإـشـارـاتـ:

- طاعة الـوـالـدـينـ:

أـكـدـ الإـمـامـ عـلـيـثـيـهـ فيـ هـذـاـ المـقـطـعـ عـلـىـ طـاعـةـ الـوـالـدـينـ، وـلـكـنـ لـيـسـتـ تـلـكـ الطـاعـةـ الـتـيـ قدـ تكونـ عـلـىـ مـضـضـ وـتـنـاقـلـ، بلـ طـلـبـ الإـمـامـ صـلـوـاتـ اللـهـ عـلـيـهـ مـنـ رـبـهـ تـعـالـىـ أـنـ يـجـعـلـ طـاعـتـهـ لـوـالـدـيـهـ أـقـرـ لـعـيـنـهـ منـ رـقـدـةـ الـوـسـنـانـ، أـيـ الشـخـصـ الـذـيـ فـيـ النـعـاسـ، وـأـثـلـجـ لـصـدـرـهـ مـنـ شـرـبـةـ الـظـمـآنـ.

فيـظـهـرـ مـنـ هـذـاـ الـكـلـامـ أـنـ طـاعـةـ الـوـالـدـينـ لاـ بـدـ مـنـ أـنـ تـصـلـ إـلـىـ هـذـاـ الـمـسـتـوـيـ مـنـ التـفـاعـلـ النـفـسـيـ، فـقـدـ يـكـونـ شـخـصـ مـطـيـعاـ لـوـالـدـيـهـ مـنـ النـاحـيـةـ الـعـمـلـيـةـ، وـلـكـنـ عـنـدـهـ تـنـاقـلـ نـفـسـيـ مـنـ ذـلـكـ.

- تقديم هوـيـ الـوـالـدـينـ عـلـىـ هوـيـ النـفـسـ:

تقـديـمـ هوـيـ الـوـالـدـينـ عـلـىـ هوـيـ النـفـسـ، مـاـ يـشـيرـ إـلـىـ عـظـمـ حـقـ الـوـالـدـينـ، وـلـكـنـ هـذـاـ لـاـ يـعـنيـ أـنـ يـقـدـمـ هوـاـهـماـ حـتـىـ عـلـىـ إـرـادـةـ اللـهـ تـعـالـىـ، وـهـذـاـ مـاـ لـاـ شـكـ فـيـهـ مـنـ بـابـ أـنـهـ «لـاـ طـاعـةـ لـمـخـلـوقـ فـيـ مـعـصـيـةـ الـخـالـقـ»^(١٣)، بلـ الـكـلـامـ يـكـونـ عـنـدـمـاـ تـكـونـ

كلا الإرادتين والرغبتين لا تتنافيان مع حكم إلزامي في الإسلام، فعند ذلك يقدم الآباء إرادة والديه على إرادته ورغبتهما على رغبته.

- استكثار قليل إحسان الوالدين، وتقليل كثير بـ"الابن":

من الأمور المطلوبة من الإنسان أن يستكثر خير الآخرين، ويتأكد هذا الأمر بالنسبة إلى الوالدين، ومن مميزات إحسان الوالدين للابن -وإن قل- أنه يأتي ابتداءً وليس من باب رد الجميل، أمّا إحسان الابن لوالديه فمهما كان كثيراً فإنه يكون من باب رد الجميل، ولا شك في أنّ الابتداء بالإحسان أعظم.

المقطع الخامس: الاعتذار عن التقصير في حقهما:

«اللهمّ ما مسّهَا مني من أذى، أو خلص إلَيْهَا عَنِّي من مكروهٍ، أو ضاع قبلي
لهما من حقٍّ، فاجعله حطةً لذنبهما، وعلوّا في درجاتهما، وزيادة في حسناتهما، يا
مبدل السّيئات بأشعافها من الحسنات».

وهذه سمة المؤمن دائمًا، يشعر بالقصير تجاه من له حقٌّ عليه، ابتداءً من شعوره بالقصير تجاه خالقه إلى شعوره بالقصير قبال أولياء الله تعالى. فهو يستشعر التقصير تجاه الوالدين عظيم حقهما عليه، فلا بدّ من الاعتذار عن هذا التقصير ولو غير المعتمد.

فكلما عزم حق الطرف المقابل، اشتدّت الحاجة إلى الاعتذار من التقصير
مهما كان السعي في أداء الحق عظيمًا.

المقطع السابع: إبراؤهما الذمة:

«اللَّهُمَّ وَمَا تَعْدِيَا عَلَيْ فِيهِ مِنْ قَوْلٍ، أَوْ أَسْرَفَا عَلَيْ فِيهِ مِنْ فَعْلٍ، أَوْ ضَيْعَاهُ لِي مِنْ حَقٍّ، أَوْ قَصْرًا بِي عَنْهُ مِنْ وَاجِبٍ، فَقَدْ وَهَبْتَهُ وَجَدْتَهُ بِهِ عَلَيْهِمَا، وَرَغَبْتَ إِلَيْكَ فِي وَضْعِ تَبْعَثْتَهُمَا، فَإِنِّي لَا أَتُهْمِهِمَا عَلَى نَفْسِي، وَلَا أَسْبِطُهُمَا فِي بُرْيٍّ، وَلَا أَكْرِهُ مَا تَوْلِيهَا مِنْ أَمْرٍ، يَا رَبَّهُمَا أَوْجِبْ حَقًا عَلَيْ، وَأَقْدَمْ إِحْسَانًا إِلَيْ، وَأَعْظَمْ مِنْهُ لِدِيَّ مِنْ أَنْ

أقصّهما بعدل، أو أجازيهما على مثل...».

في هذا المقطع بيان لواقعية الإمام عَلَيْهِ السَّلَام في تعريفه للوالدين، فهما مع ما هما من الحق العظيم، لكن قد يقتصران تجاه ابنهما لكونهما غير معصومين، فقد يسرفان ويتعديان -كما يعبر الدعاء-، فالإمام عَلَيْهِ السَّلَام بعيد عن المثاليات التي قد تحاول تضخيم الأمور أكثر من حجمها الطبيعي، بل هو أورد احتمال أن يصدر الإسراف من الوالدين في حق ابنهما.

لكن مع ذلك يأتي دور الابن في الصفح عن والديه، وأن يتغاضى عن هذا المقدار -الذي عادة ما يكون قليلاً- من التقصير من والديه. والإمام عَلَيْهِ السَّلَام نفسه ذكر هذا الأمر في نهاية هذه الفقرة وهو أن حق الوالدين أوجب وأعظم.

المقطع الثامن: استشارة عاطفة الابن:

«أين إذا يا إلهي طول شغلهما بتربيق؟ وأين شدة تعبيهما في حراستي؟ وأين إقفارهما على أنفسهما للتتوسيع على؟...».

في هذه الفقرة من الدعاء المبارك يذكّر الإمام عَلَيْهِ السَّلَام الابن بفضائل والديه عليه، فهما وإن كانوا قد يسرفان في حقه -كما مر في الفقرة السابقة- لكن هذا لا يعني إغفال فضلهما.

فالإمام عَلَيْهِ السَّلَام في هذا المقطع من الدعاء، يشير إلى ناذج من إحسان الوالدين لابنهما والتي قد يكون الابن قد تلمّس شيئاً منها في حياته، فيشير إلى طول تعبيهما في حراسته وحفظه، وكيف أنهما تحملوا الصعب في سبيل حفظ الابن.

وكما يشير الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَام في رسالة الحقوق إلى حق الأم: «وأما حق أمك فإن تعلم أنها حملتك حيث لا يتحمل أحد أحداً، وأعطيتك من ثرة قلبها ما لا يعطي أحد أحداً، ووقتك بجميع جوارحها، ولم تبال أن تجوع وتطعمك، وتعطش وتسقيك،

وتمرى وتكسوك، وتُضحي وتظلّك، وتهجر النّوم لأجلك، ووقتُك الحرّ والبرد، لتكون
لها، فإنّك لا تعطي شكرها إلا بعون الله وتوفيقه».

المقطع التاسع: إعلان صريح بعدم إدراك حقهما:

«هيئات ما يستوفيان مني حقّهـما، ولا أدرك ما يجب عليّ هـما، ولا أنا بقاض
وظيفة خدمتهاـ، فصلـ على محمدـ وآلـهـ، وأعنيـ يا خـيرـ من استعينـ بهـ، ووفقـنيـ يا أـهدـيـ
من رـغـبـ إـلـيـهـ، ولا تـجـعلـنيـ في أـهـلـ العـقـوقـ لـلـأـبـاءـ وـالـأـمـهـاتـ يـوـمـ تـجـزـىـ كـلـ نـفـسـ بـعـاـ
كـسـبـتـ وـهـمـ لـاـ يـظـلـمـونـ...ـ».

هنا الإمام عَلَيْهِ الْمُؤْتَمِرُ يعلّمها صريحةً واضحةً، وأنّه لا يمكن إدراك حقّ الوالدين أبداً، سواء في جانب العمل بالوظيفة تجاههما «ما يستوفيان مني حقهما»، أم في جانب العلم والإحاطة بعظيم حقهما «ولا أدرك ما يجب علىّ لهما».

ومع هذا تأتي العبارة الأخرى لتأكيد أنّ على المؤمن الاستعانة بالله تعالى في أداء حقّهما، وهذا الأمر -أي عدم إدراك حقّهما- ليس سبباً لترك الإحسان للوالدين بقدر الوضع ومن خلال الاستعانة بالله تعالى، وقد أشار الإمام عليه السلام نفسه إلى هذا الأمر في رسالة الحقوق في ذكر حقّ الأم: «فإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله و توفيقه».

المقطع العاشر: تكرار الصلاة على النبي ﷺ

«اللهم صلّى على محمدٍ وآلِه وذریتِه، واخْصَصْ أبُوی بِأَفْضَلِ مَا خَصَّتْ بِهِ آبَاءِ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْهَاتِهِمْ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ...».

من الملاحظ تكرر الصلاة على النبي الأعظم عليه السلام بين فرات الدعاء وعدم الاكتفاء بها في بداية الدعاء، وهذا مما يعطي الدعاء نورانية خاصة بذكر أشرف الحلقة، (١٤)، وهو مجمع الدعاء أقرب إلى الاستحسابة.

وفي هذه الفقرة يمكن استفادة نفس الدرس الذي تقدم في المقطع الثالث، وهو

مسألة علوّ الهمة، فهنا يطلب الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ من ربّه أن يخصّ والديه بأفضل ما خصّ به آباء المؤمنين وأمهاتهم.

المقطع الحادي عشر: الدعاء لهما بعد كل صلاة:
 «اللهم لا تنسني ذكرهما في أدبار صلواتي وفي آن من آناء ليلي، وفي كلّ ساعة من ساعات نهاري...».

يدرك صاحب رياض السالكين أنّ: «ظاهر قوله تعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أنّ الأمر للوجوب من غير تكرار، فيكفي في العمر مرة واحدة»^(١٥).

وكما ذكر صاحب الكتاب أنّ الدعاء للوالدين يكفي مرّة واحدة في العمر لامتثال الأمر الإلهي الصادر في الآية المباركة، ولكن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الفقرة من الدعاء يفتح للمؤمن أفقاً آخر في التعامل مع مسألة الدعاء للوالدين، وهي الدعاء لهما بعد كل فريضة، وكأنّ هذا حقّ من حقوقهما التي قد تغفل.

والدعاء للوالدين بعد كل صلاة لا يحتاج إلى جهد كثير -كما هو واضح- ولكن التحدي يكمن في إمكانية استحضار وتذكر ذلك.
 ومن الواضح أنّ لأدبار الصلوات خصوصية، فحال الإنسان قبل الصلاة يختلف عن حاله بعد الصلاة^(١).

المقطع الثاني عشر: آثار الدعاء للوالدين:

«اللهم صلّى على محمد وآلـهـ، واغفر لي بدعائي لهما، واغفر لهما بيرهما بي مغفرة حتماً، وارض عنهمـا بشفاعتي لهما رضـيـ عـزـماـ، وبلغـهـما بالـكـرـامـةـ مواطنـ السـلامـةـ...».

أشار الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الفقرة إلى آثار الدعاء للوالدين وهي:

- نيل الابن المغفرة الإلهية.
- نيل الأبوين للمغفرة الإلهية.

- رضا الله تعالى عنهم.
- بلوغهما مواطن السلام.

وبهذا يتبيّن شيء من أهميّة الدعاء للوالدين، حيث إنَّ الابن لا يمكنه مجازاة والديه على ما قدّمه له، فيطلب من الله تعالى لهم الرضا والمغفرة، وهذا خير مجازاة للوالدين، والتي قد تفوق الإحسان الخارجي لهم كثيراً، فهو -أي الإحسان الخارجي- محدود بهذه الدنيا، وبعد موت الوالدين ينقطع، أمّا الدعاء لهم وأثره المذكور في هذه الفقرة من الدعاء يبقى حتى بعد الموت... وقد ورد عن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ : «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَكُونَ بِرًا بِوَالِدِيهِ فِي حَيَاتِهِمَا ثُمَّ يَمُوتُانَ فَلَا يَقْضِيُ عَنْهُمَا دِيْوَنَهُمَا وَلَا يَسْتَغْفِرُ لَهُمَا فِي كِبَرِهِمَا إِنَّهُ لِيَكُونَ عَاقًا لَهُمَا فِي حَيَاتِهِمَا غَيْرَ بَارِ بِهِمَا فَإِذَا ماتَا قَضَى دِيْنَهُمَا وَاسْتَغْفَرَ لَهُمَا فِي كِبَرِهِمَا بَارًا»^(١٧).

المقطع الثاني عشر: شفاعة الولد للوالدين، وشفاعتهما له:

«اللَّهُمَّ وَإِنْ سَبَقَتْ مَغْفِرَتُكَ لَهُمَا فَشُفِّعْهُمَا فِيْ، وَإِنْ سَبَقَتْ مَغْفِرَتُكَ لِي فَشُفِّعْنِي فِيهِمَا، حَتَّىٰ نَجْتَمِعَ بِرَأْفَتِكَ فِي دَارِ كَرَامَتِكَ وَمَحْلِّ مَغْفِرَتِكَ وَرَحْمَتِكَ، إِنْكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَالْمَنْ الْقَدِيمِ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

ما يمكن استفادته من هذه الفقرة أنَّ هناك نوعاً من الشفاعة تكون بين الابن والديه، ولكنها مشروطة بشرط في كلٍّ من الشفيع والمشفوع له، وأشار الإمام عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ إلى شرط في الشفيع وهو أن تسبقه المغفرة الإلهية «وَإِنْ سَبَقَتْ مَغْفِرَتُكَ»، فليس كلَّ أب أو أمٌ يمكنهما أن يشفعا لولديهما، وكذلك العكس.

خاتمة

كانت هذه جولة سريعة في دعاء الإمام السجاد عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ لوالديه، وإشارات إلى بعض ما جاء في هذه الكلمات النورانية، فكلامهم نور ينير القلوب، ويبقى البحث قاصراً عن الدروس الأخرى التي يمكن استفادتها من هذا الدعاء، فكلام

أهل البيت عليهما السلام كالقرآن الكريم حيث عبر عنه أمير المؤمنين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : «إِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لَا تَفْنِي عِجَابِهِ، وَلَا تَنْفَضِي غَرَابِهِ، وَلَا تَكْشِفَ الظُّلُمَاتِ إِلَّا بِهِ»^(١٨).

وكذلك كلام أهل البيت عليهما السلام الذين هم عدل القرآن الكريم.

المواضيع:

- (١) الإسراء: ٢٤.
- (٢) ج ٤، ص ٥١.
- (٣) ج ٤، ص ٤٤.
- (٤) بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٣١٠، مكتبة أهل البيت الإلكترونية.
- (٥) أمالى الشیخ الصدوق، ص ٧٥٥.
- (٦) الأحزاب: ٥٦.
- (٧) وسائل الشيعة - كتاب جهاد التفسر.
- (٨) سورة الجمعة: ٥.
- (٩) منية المرید - الباب الأول - الفصل الثاني.
- (١٠) الكافي، ج ١، ص ٤٤، مكتبة أهل البيت الإلكترونية.
- (١١) نفس المصدر، ص ٤٣.
- (١٢) بحار الأنوار ج ١، ص ٢٢٥، مكتبة أهل البيت الإلكترونية.
- (١٣) نهج البلاغة.
- (١٤) راجع حديث في أثر الصلاة على النبي ﷺ في كسب النورانية والنور.
- (١٥) راجع الكتاب.
- (١٦) راجع رياض السالكين في خصوص هذه النقطة.
- (١٧) الكافي ج ٢ - مكتبة أهل البيت عليهما السلام الإلكترونية.
- (١٨) غرر الحكم.



طرق الفهرستين، هل هي إلى واقع الكتب أم لا؟

أشيخ عبد الرؤوف حسن التبعي

تمهيد

من المباحث الجديرة التي طرحتها المتأخرون من المهتمين بشؤون الحديث وأسناد الروايات هي تلك المتعلقة بحال الطرق والأسانيد المثبتة في كتابي "الفهرست للشيخ الطوسي" والرجال (فهرست أسماء مصنّفي الشيعة) للنجاشي، هل هي أسانيد إلى حقائق المصنفات وواقع الكتب، أم هي لعناؤينها وأسمائها فقط؟ وبمعنىً أجلٍ: هل نقل الشيخ -مثلاً- في فهرسته لطريق إلى أحد الأصول الروائية يكشف عن وصول عين هذا الأصل وبنسخته المحددة إلى يده، أم لا يستشف منه أكثر من

وصول عنوانه وإسمه فقط، إلا في موارد منصوصة؟

ولا شك أن الحسم في هذا الموضوع له أثره الملحوظ في درجة الاعتماد على طرق الكتابين إلى المصنفات الروائية وقيمة الاعتناء بها، وله دوره في خروج جمع من الروايات من حد الإرسال إلى دائرة وحيز الإسناد، وخاصة على المبني القائل بلزوم نقد الطرق والمشيخة، وحينئذ يتضح الجواب على من قلل من أهمية طرق هذا البحث بحجّة عدم الفائدة منه، وبذريةة إغفال المتقدمين -بحسب الظاهر- إلى التعرّض إليه؛ فاستغناوهم عنه -لقرب عصرهم من عصر الأصول والمصنفات، وكونها معروفة ومشهورة عندهم، ومحفوظة بالعديد من القرائن التي فقدت بعد ذلك- لا يعني استغناء الأجيال المتعاقبة بعدهم عن البحث فيه بالتبع.

وإن قيل: أن الأصحاب تلقّفوا طرق الشيختين الطوسي والنجاشي رحمهما الله في فهرستيهما بالقبول والتأييد، وهذا يكشف إنّا عن كونها إلى واقع النسخ والمصنفات، فلا تحتاج إلى مزيد بحث وتنقیح حول الموضوع.

فإنه يقال: إن العبرة والأساس في بيان حال المسألة هو نفس سلوك وكلام الشيختين رحمهما الله، وقرائن نفس فهرستيهما، أما تلقي جمهرة من الأعلام تلك الطرق بالرضا والإحسان فلربما كان لأسباب أخرى وداعٍ متعددٍ لا ربط لها بمسألة كون الطرق إلى واقع الكتب أم لا.

وعلى كل التقادير فالآراء التي ظهرت في هذا الشأن ثلاثة، نذكرها معزّزة بأدلّتها مع بعض المناقشة، عسى أن نصل في نهاية الأمر إلى الرأي الأسد والأوفق للصواب.

الرأي الأول: -الأصل في طرق الفهرستين أنها إلى أسامي النسخ:
أي أن ذكر الطرق فيهما هو لاتصال السند إلى تلك الأصول والمصنفات وإن لم تكن حاضرة موجودة تحت متناول الشيختين رحمهما الله، فيكفي وصول قسم منها

بأيديهما، والباقي لم يصل، بل وصل خبره إليهما بوساطة المشايخ النقلين، والنتيجة أن الطريق إلى إسم النسخة (العنوان) ونسبتها إلى صاحبها متحقق، أما الطريق إلى واقعها (العنون) فغير ثابت، نعم قد يتّفق أحياناً وصول الكتاب بواقعه بأحد الأنحاء التي تدل على ذلك، وهذا في المورد الذي تدل عليه القرينة. وأبرز الأدلة التي ساقها أصحاب هذا الرأي:

أ- بناء على أن الغرض من تصنيف الفهرستين هو التعرّف على نسبة الكتب إلى مؤلفيها لا غير، لا يعقل -بحسب سلوك العقلاء- أن يصرف كلا الشيوخين عليهم السلام جهده في سبيل الحصول على واقع النسخ، وهي تربو على الألفين كما قيل، وفيها المواضيع المختلفة التي ليست كلّها مورد اهتمام ونفع لها، خاصة إذا كان الكتاب الواحد له أكثر من نسخة وطريق^(١).

وفيه: انحصر الغرض من الفهرستين في المذكور فقط هو أول الكلام ولم يثبت بعد، ويزول معه الإستبعاد العقائلي المتوقف عليه، في حين إن الاعتناء بالطرق وبالنسخ -مهما تكثّرت- كان شائعاً ومتداولاً وهو سبب حفظ الموروثات الروائية وصونها من العبث، وله دواعي وفوائد مختلفة ليست خفية^(٢).

ب- أحياناً ليست بعزيزه يتّفق أن يذكر الشیخان عليهم السلام راوياً معيناً له كتب كثيرة، ولا يعدّان منها إلا النذر الذي هو أقل من مجموعها، ثم يرددان ذلك بالقول: (أخبرنا بكتبه أو بجميع كتبه فلان عن فلان) مما يظهر منه عدم وصول كل كتب هذا الراوي لحوزتها، ومع ذلك يذكران طريقهما إلى جميع مصنّفاته، والشاهد على هذه السيرة قائمة، مثلًا: جاء في الفهرست للشیخ عليه السلام ضمن ترجمة أحمد بن محمد بن عمر المعروف بابن الجندي: "صنف كتاباً منها...، أخبرنا بجميع روایاته أبو طالب بن غرور عنه"^(٣)، فلفظ (منها) يوحي بعدم ذكره لجميع كتبه رغم حرصه على جمع وبيان أكبر قدر ممكن من المصنّفات كما قال في

ديباجة الفهرست: "ولم أضمن أنني أستوفي ذلك إلى آخره فإن تصانيف أصحابنا وأصولهم لا تكاد تضبط لانتشار أصحابنا في البلدان وأقاصي الأرض غير أن على الجهد في ذلك والاستقصاء فيما أقدر عليه وبلغه وسعي ووجدي وألتمس بذلك القرابة إلى الله تعالى وجزيل ثوابه"(٤).

وعلى نفس المنوال ورد في ترجمة يونس بن عبد الرحمن: "له كتب كثيرة أكثر من ثلاثة كتاباً، وقيل: إنها مثل كتب الحسين بن سعيد وزيادة... أخبرنا بجميع كتبه وروياته جماعة عن أبي جعفر بن بابويه..."(٥)، إذ لو كانت كل كتب يونس وائلة له لما تردد وعبر بـ (وقيل: إنها مثل كتب الحسين بن سعيد وزيادة).

ويناقش بنـ إن هذه التعبيرـ والقرائن لئن تركت بحالها بنفس التوجيه المذكور في الدليل ولم تقبل تصرفـاً مغايراً في معناها لا تصل إلى قوة تأسيس الأصل في المسألة، فهل هذا الأسلوب - وهو بلا شك ليس الأسلوب الغالب، وموارده هي الأقل مقارنة بسواها - يسوغ القول أن القاعدة الأولى في طرق الفهرستين هي أنها لعنواين الكتب لا لمعنوتها؟ ألا يمكن أن يكون معنى عبارة: (أخبرنا بجميع كتبه وروياته) هو الإخبار عن كل الكتب الوائلة دون سواها كما هو ليس بعيد.

ثم إن التتبع العام في تراجم الفهرستين يفيد شعوراً مضاداً لهذا الرأي، خاصةً إذا عرفنا أن الشيخ الطوسي عليه السلام وكذلك الشيخ النجاشي عليه السلام تركاً مجموعة من المصنفات والكتب من دون ذكر طريق إليها، مما قد يستوحى منه أن ذلك إلفاتاً منهما إلى عدم وجود هذه المصنفات بأيديهما وإنما قد وصلت عنوانينها إليهما فقط، والخلاصة: أن هذا الدليل لا ينظر إليه بمعزل عن سائر الأدلة والآراء الأخرى، إذ مع ملاحظتها عموماً لا غرو من تأثيرها في تغيير اتجاه تفسيره ومعناه.

جـ - لو كان ذكر الطرق إلى واقع النسخ لتم التنبية عليه مراراً وتكراراً، ولو

من باب الإشارة إلى كيفية تحمل روایة الكتاب، نعم في موارد معينة بُيّنت بعض ألحانه كالسماع أو القراءة أو الإجازة، ولكن لا يفهم منها أن الموارد الأخرى هي بنفس الشاكلة، وكلمة الإخبار لوحدها -المتكررة كثيراً في الكتابين بتعبير آخرني بكتبه... ألغـ فاصلة عن بيان هذه الكيفية، وبالتالي مع غياب التنبيه لا جزم لنا بكونها إلى واقع المصنفات^(٦).

ويحاب: عدم التنبيه الصريح -لغياب الداعي له بحسب تشخيص المصنف أو اعتماداً لوضوحيه في وقته أو لعلة ما- لا يلزم منه ما ذكر ولا يعد دليلاً، وأقصى ما يترشح منه هو الإستغراب والتوقف البدوي، والذي قد يشكل قرينة بشرط انتفاء سائر القرائن المباينة الأخرى، وعد الإخبار قاصراً وأجنبياً بالتمام عن المقام هو الذي يحتاج إلى دليل وتنبيه وليس العكس كما سيلمح إلى ذلك -إن شاء الله تعالى- في الرأي القادر.

الرأي الثاني:- الأصل في طرق الفهرستين أنها إلى واقع النسخ:

معنى أن ذكر الشيخ الطوسي رحمه الله -مثلاً- في الفهرست طريقاً إلى راوٍ يفهم منه أن كتاب هذا الرواـ أو مرويـاته قد وصل لتناول يده، بل وفيه إشارة وتحديد إلى نسخة معينة من نسخ هذا الكتاب أيضاً، وبالتالي تصنـف الرواـية المأخوذـة بواسـطة هذا الطريقـ في عـداد المسندـات، وتخـرج عن حدـ الإرسـال، وتنـتقل من جهةـ الواسـطة والنـسخـة إلى مـعلومـيهـ، وهذا هو مـقتضـى أـصلـ عـبـائرـ الفـهرـستـينـ، وإـذاـ ماـ حـصـلـ أحـيـاناًـ عـدوـلـ عـنـ هـذـاـ النـهـجـ فهوـ منـ موـارـدـ الإـسـتشـنـاءـ التيـ يـهـتـدـىـ إـلـيـهاـ عـبـرـ الإـشـارـةـ أوـ وـجـودـ القـرـيـنةـ، وـبـالـطـبعـ لـيـسـ هـاـ مـاسـسـ وـتـأـثيرـ عـلـىـ الحـفـاظـ عـلـىـ الأـصـلـ المـذـكـورـ.

ويتـكـئـ هـذـاـ الرـأـيـ عـلـىـ طـائـفةـ مـنـ الشـواـهدـ وـالـأدـلـةـ، مـنـ عـمـدـهـ:

- 1- إـرجـاعـ الشـيـخـ الطـوـسيـ رحمـهـ اللهــ فيـ تـهـذـيبـيـهـ إـلـيـ فـهـرـسـتـهـ بـالـخـصـوصـ، وـإـلـيـ

فهارس الأعلام بالعموم، حيث قال في آخر التهذيب عند ذكر المشيخة: "قد أوردت جملًا من الطرق إلى هذه المصنفات والأصول، ولتفصيل ذلك شرح يطول هو مذكور في الفهارس المصنفة في هذا الباب للشيخ عليه السلام من أراده أخذه من هناك إن شاء الله، وقد ذكرنا نحن مستوف في كتاب فهرست الشيعة"^(٧).

وبضمون قريب منه أيضًا أشار في في مشيخة الإستبصار: "قد أوردت جملًا من الطرق إلى هذه المصنفات والأصول، ولتفصيل ذلك شرح يطول هو مذكور في الفهارس للشيخ، فمن أراده وقف عليه من هناك إن شاء الله تعالى"^(٨).

و قبل هذا وضح غرضه وراء ذكر هذه الطرق، فذكر في مطلع مشيخة التهذيب: "والآن فحيث وفق الله تعالى للفراغ من هذا الكتاب نحن نذكر الطرق التي يتوصل بها إلى روایة هذه الاصول والمصنفات ونذكرها على غایة ما يمكن من الاختصار لتخراج الاخبار بذلك عن حد المراسيل وتلحق بباب المستندات"^(٩).

وأكّد على هذا الغرض بقدمة مشيخة الإستبصار: "وكنت سلكت في أول الكتاب إيراد الأحاديث بأسانيدها وعلى ذلك اعتمدت في الجزء الأول والثاني، ثم اختصرت في الجزء الثالث وعولت على الابتداء بذكر الراوي الذي أخذت الحديث من كتابه أو أصله على أن أورد عند الفراغ من الكتاب جملة من الأسانيد يتوصل بها إلى هذه الكتب والأصول حسب ما عملته في كتاب (تهذيب الأحكام)"^(١٠).

وإخراج الروايات من حيز الإرسال إلى حريم الإسناد لا يحصل إذا لم تكن الطرق إلى واقع المستطريق؛ وهو ظاهر –إن لم يكن صريح— قوله في: (على أن أورد عند الفراغ من الكتاب جملة من الأسانيد يتوصل بها إلى هذه الكتب والأصول)، إذ من البعيد إرادة أسامي الكتب والأصول دون واقعها، وإذا كان هذا هو حال طرقه في التهذيبين، فإنhaltنه إلى الفهرست يكشف عن كون طرقه فيه هي بنفس المنوال وال فكرة.

٢ - ظهور مقدمة كل من الفهرستين في كون الأسناد إلى واقع الكتب، وتوضيح ذلك: أن الشيخ الطوسي قدّس الله عزّ وجلّ روحه في ديباجة الفهرست إلى عدم وجود مصنف فهرستي جامع للشيعة يضم بين دفتيره ما حوتة خزائن الأصحاب، قال: "... فإذا سهل الله إتمام هذا الكتاب فإنه يطلع على أكثر ما عمل من التصانيف والأصول ويعرف به قدر صالح من الرجال وطرائقهم، ولم أضمن أنني أستوفى ذلك إلى آخره فإن تصانيف أصحابنا وأصولهم لا تكاد تضبط لانتشار أصحابنا في البلدان وأقاصي الأرض غير أن علي الجهد في ذلك والاستقصاء فيما أقدر عليه وبلغه وسعي" (١١).

وهذا يستشف منه أن الفهرست يحوي أكثر تصانيف الأصحاب، ولربما أعم وأوسع مما وصل واقعه إلى الشيخ رحمه الله نفسه، ولكن إذا عرفنا أنه رحمه الله لم يذكر طرقه إلى الكل، بل إلى قسم مما ذكره في الفهرست - وإن كان الأكبر - نستظاهر أن الكتب التي ذكر طريقه إليها هي ما حوتة خزانته ووصلت بواقعها لتناوله يده، وأما تلك التي لم يذكر إليها طريقاً فهي التي وصلت بأسماؤها فقط دون واقعها (١٢)، ويمكن أن يكون هذا هو مدلول: (ويعرف به قدر صالح من الرجال وطرائقهم)، والنتيجة أن الطرق في الفهرست هي إلى واقع الكتب.

وأما الشيخ النجاشي رحمه الله فيمكن استفاده هذا المعنى في حق فهرسته عند قوله في مقدمة رجاله: "وقد جمعت من ذلك ما استطعته، ولم أبلغ غايتها، لعدم أكثر الكتب..." (١٣)، فهذه العبارة ظاهرة - بل صريحة - في أنه ذكر كتاباً كانت موجودة عنده (١٤).

ويسجل على الظهور الأول: أن احتواء الفهرست على ذكر معظم التصانيف لا يساوي الجزم بعدم وصول هذه التصانيف المذكورة بواقعها كلها إلى الشيخ، حتى ولو كانت في حقول متعددة ومجالات مختلفة، كما لا يساوي وصولها أيضاً،



ومجرّد ذكر طرقه لبعضها دون البعض الآخر لا يعد -لوحده دون انضمامه لسائر القرائن والأدلة الأخرى- مستمسكاً يقود إلى الجزم أو الظن الغالب، فهو تقرير واستئناس قابل للإنطباق وقابل لعدمه -بالرغم من لطافته وحسن سبكه-.

وأما الظهور الثاني فقد يرد عليه: أن النجاشي عليه السلام في ديباجته ليس بشدد بيان وصول الكتب بيده من عدمه، بل هو في مقام الإعتذار للقراء فيما لو فاته ذكر مصنف لم يستوفه وقد استوفاه غيره، ولذا عقب على تلك العبارة بـ: " وإنما ذكرت ذلك عذرًا إلى من وقع إليه كتاب لم أذكره" ^(١٥)، فعدم أغلب الكتب يعني انتظام أثرها، وهي أعم من كونها موجودة ولكن واقعها لم يصل إليه حتى نفهم منها أنه لم يذكرها لهذا السبب بالخصوص فقط، نعم يبقى أن العبارة أيضًا لا تنفي الإستظهار المذكور، خاصة مع ملاحظة جملة (من وقع إليه كتاب)، وعلى كل الأحوال كما أسلف في الظهور الأول أن هذه استئناسات أكثر من كونها أدلة، وبالتالي تصلح كمويدات لا كدليل، والله العالم.

٣- تصريح كلا الشيختين عليهم السلام في فهرستيهما بعبارات عديدة صريحة في معاني التحمل الدالة على أن الطرق إلى واقع الكتب وليس إلى أسمائها، فمن عبارات الشيخ الطوسي عليه السلام:

جاء في ترجمة أحمد بن الحسين بن عبد الملك: "أبو جعفر الأودي كوفي ثقة مرجوع إليه بوب كتاب المشيخة... سمعنا هذه النسخة من أحمد بن عبدون، قال سمعتها من علي بن محمد بن الزبير عن أحمد بن الحسين بن عبد الملك" ^(١٦).
 أيضاً في ترجمة علي بن الحسن بن فضّال: "وكتبه في الفقه مستوفاة في الأخبار حسنة... أخبرنا بجميع كتبه قراءة عليه أكثرها والباقي إجازة، أحمد بن عبدون، عن علي بن محمد بن الزبير سمعاً وإجازة عنه" ^(١٧).

أيضاً في ترجمة عبد الله بن أحمد بن أبي زيد الأنباري: "له مائة وأربعون كتاب

رسالة... أخبرنا بكتبه وروياته أبو عبد الله أحمد بن عبدون المعروف بابن الحاشر رحمة الله سمعاً وإجازة^(١٨).

والشيخ رحمه الله استخدم لفظة (أخبرنا) في أغلب الترجم، وهي تدل بوحدتها على السمع أو القراءة، والتي تعد من أعلى طرق التحمل^(١٩)، وفيما لو استخدمت في غير ذلك لاحتاجت إلى نصب قرينة تصرفها عن معناها المتعارف، يقول الشهيد الثاني رحمه الله وهو نحير هذا العلم: "إذا روى بها أي بالمناولة بأي معنى فرض قال: «حدثنا فلان مناولة» و: «أخبرنا مناولة» غير مقتضٍ على «حدثنا» و«أخبرنا»، لإيهامه السمع أو القراءة^(٢٠).

ويقول علم آخر من خبراء هذا الفن: "جُوْز جماعة إطلاق «حدثنا» و«أخبرنا» في الرواية بالمناولة، وهو مقتضى قول من جعلها سمعاً، وحُكى عن بعضهم جوازهما في الإجازة المجردة أيضاً. وال الصحيح المنع فيهما منها، وتخصيصهما بعبارة مشعرة بهما، كـ «حدثنا إجازة» أو «مناولة»..."^(٢١).

ناهيك عن لفظة (رويناه) المتكررة بكثرة جداً^(٢٢)، وظهورها في الإشارة إلى واقع الكتب لا ينكر.

ومن عبارات الشيخ النجاشي رحمه الله:

ما جاء في ترجمة إسماعيل بن أبي زياد: "يعرف بالسكوني الشعيري. له كتاب قرأته على أبي العباس أحمد بن علي بن نوح قال: أخبرنا الشريف أبو محمد الحسن بن حمزة قال: حدثنا علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن النوفلي عن إسماعيل بن أبي زياد السكوني الشعيري بكتابه"^(٢٣).

أيضاً: في ترجمة أحمد بن محمد بن عمرو بن أبي نصر: "وله كتب، منها: الجامع، قرأناه على أبي عبد الله الحسين بن عبيد الله رحمة الله قال: قرأته على أبي غالب أحمد بن محمد الزراوي قال: حدثني به حال أبي محمد بن جعفر و عم

أبي علي بن سليمان، قالا: حدثنا محمد بن الحسين بن أبي الخطاب عنه به" (٤). أيضاً في ترجمة أحمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن فضال: "يعرف من كتبه كتاب الصلاة، كتاب الوضوء، أخبرنا بهما قراءة عليه أبو عبد الله أحمد بن عبد الواحد قال: حدثنا أبو الحسن علي بن محمد القرشي قال: حدثنا علي بن الحسن بن فضال عن أخيه بكتبه" (٥).

ثم أن كتاب رجال النجاشي رحمه الله كفهرست الشيخ رحمه الله في كثرة استخدامه عبارة (أخبرنا)، كما أنه يكثر من استخدام لفظة (حدثنا) وهي لا تقل عن سابقتها إِلَّم تكن أبلغ وأعلى منها رتبة في الإشارة إلى السمع أو القراءة (٦). و يكن أن يتوجه عليه بـ: أن الألفاظ الدالة على السمع بلفظه المخصوص الصريح قليلة جداً في فهرست الشيخ رحمه الله، ولا يعوّل عليها في استفاده قاعدة كبرى شاملة، والحال بعينه في كتاب النجاشي رحمه الله، وأما عبارة (أخبرنا) فدلالتها على السمع أو القراءة تحتاج إلى تنصيص وقرينة، يقول أحد الباحثين المعاصرين (٧):

"فلأن التعبير الشائع في كلامه (الطوسي رحمه الله في الفهرست) في معظم الموارد هو جملة (أخبرنا)... وعلى كلّ لفظ: أخبرنا لا يدل على الإجازة المجردة، فضلاً عن المناولة وإعطاء الكتاب، فضلاً عن القراءة والسماع. وأي ملزم وأي داع؟ بل أي مجوز لحمل جملة (أخبرنا) على المناولة؟... والمستفاد من هذه الموارد القليلة (التي بها تصريح بالسماع وأمثاله) أن مجرد الإخبار لا يدل على الإجازة، فضلاً عن المناولة، فضلاً عن القراءة، أو السمع، والمشتمل عليها محتاج إلى التنصيص عليها، كما في هذه الموارد الضئيلة".

وفي مقام الدفاع يقال: هذه المناقشة تتجه لو كان التعبير الحاكي عن السمع أو القراءة مقتصر على ألفاظ مخصوصة -كسمعت، أو قرأت- ليس من بينها

(أخبرنا)، وهذا غير متحقق بالمتابعة كما تطرق في الدليل؛ إذ أن المرجع في ذلك هم أعلام الدرایة، وكلماتهم عليهم السلام تظفر وتوكّد على أن أحد أوجه التعبير عن السمع هو لفظة (حدثنا وأخبرنا)، وهذا هو الأصل، فما الداعي لاستخدام الشیخین عليهم السلام أسلوباً وتعبيرًا مغایرًا لما عليه جمهور الأعلام؟! خاصة مع ملاحظة عدم ذكرهما لما ينافي هذه الطريقة، وهم أجل من أن يخفى هذا عليهما، كيف وأحد روافد هذه الصناعة وفنونها تستقى من منبعهما، ومحرّد قلة وضالة استفادته الشیخ الطوسي عليه السلام من لفظ السمع الصريح في فهرسته لا يفضي إلى القول بعدم دلالة لفظة الإخبار على شيء من طرق التحمل كما ذكره المستشكل.

نعم، ورد استخدام (أخبرنا) في المناولة أو الإجازة أحياناً، مما قد يحتاج به على كون الإخبار أعم من السمع أو القراءة أو الإجازة وأمثالها، وبالتالي قد لا يدل -بعمومه من دون تبيين وتنصيص - على أنباء التحمل التي يفهم منها وصول واقع النسخة للمتحمل، ولكن هذا مُجاب بعدم تساوي لفظة الإخبار في دلالتها على هذه الأنباء المذكورة، فدلالتها على السمع هي الأساس حين الإطلاق، وقد تُجرّى إلى القراءة أيضاً على قول، وكلاهما يفي بالمطلوب، وتبقى الأنباء الأخرى من التحمل تحتاج إلى قرينة.

والحاصل أن (أخبرنا) تقوم مقام السمع على أقل التقادير، وهي لفظة (سمعته، أو سمعاً وسائل مشتقات السمع) من حيث الغرض واحدة، وإن اختلفت في درجة الصراحة والوضوح.

٤- وجود بعض القرائن -في كلا الفهرستين- المشعرة بكون طابع وأسلوب الشیخین عليهم السلام هو ذكر الطرق إلى الكتب بعد الإطلاع على واقعها، منها مثلاً ما ذكره الشیخ عليه السلام في الفهرست عند ترجمة إبراهيم بن سليمان بن داحة: "ذكر أنه روى عن أبي عبد الله عليه السلام وكان وجه أصحابنا بالبصرة فقهاء"



وكلاماً وأدباً وشعرأ، والجاحظ يحكي عنه كثيراً، وذكر أنه صنف كتاباً ولم نر منها شيئاً^(٢٨).

أو ما ذكره في ترجمة محمد بن علي الشلمغاني: "وله من الكتب التي عملها في حال الاستقامة كتاب التكليف، أخبرنا به جماعة عن أبي جعفر ابن بابويه عن أبيه عنه إلا حديثاً واحداً منه في باب الشهادات"^(٢٩)، ونحوه ويشبهه ما ورد في ترجمة علي بن إبراهيم بن هاشم القمي^(٣٠). إذ لو كان الطريق إلى أسامي الكتب فحسب، فلم استثناء هذا الحديث الواحد؟

وما ذكره النجاشي عليه السلام عند ترجمته لترجمة علي بن محمد أبو سلمة البكري: "له كتاب التوحيد كلام، وهو كتاب لم نره ولم يخبرني عنه أحد من أصحابنا أنه رأه، غير أنه ذكر في الفهرستات"^(٣١).

وأيضاً عنه في ترجمة الفضل بن شاذان بن الخليل: "وذكر الكنجي أنه صنف مائة وثمانين كتاباً وقع إلينا منها:... (وذكر ما عده ثانية وأربعين كتاباً) أخبرنا أبو العباس بن نوح قال: حدثنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا أحمد بن إدريس بن أحمد قال: حدثنا علي بن أحمد بن قتيبة النيسابوري (النيسابوري) عنه بكتبه"^(٣٢).

وغيرها من الموارد، كما أثنا نلاحظ في الكثير من التراجم التي ذكرها الشيخ الطوسي عليه السلام أن له إلى كتبها أكثر من طريق^(٣٣)، أو أنه يذكر لكل كتاب أو مجموعة لصنف واحد طريقاً يغاير الطريق الذي لكتابه الآخر أو مجموعته الأخرى، كما هو الحال في ترجمته لإسماعيل بن مهران بن محمد بن أبي نصر:

"وصنف مصنفات كثيرة منها كتاب الملائم، أخبرنا به الحسين بن عبيد الله عن أبي غالب أحمد بن محمد الزماري قراءة عليه، قال حدثني عم أبي علي بن سليمان عن جد أبي محمد بن سليمان عن أبي جعفر أحمد بن الحسن عن إسماعيل بن مهران، وكتاب ثواب القرآن، أخبرنا به الحسين بن عبيد الله، قال حدثنا أحمد بن

جعفر بن سفيان، قال حدثنا أحمد بن إدريس عن سلمة بن الخطاب عنه، وكتاب خطب أمير المؤمنين عليه السلام، وكتاب التوادر، أخبرنا بما أسمى عبدون، قال حدثنا علي بن محمد بن الزبير، قال حدثنا علي بن الحسن بن فضال عنه، وكتاب العلل، أخبرنا به عدة من أصحابنا عن أبي محمد هارون بن موسى، قال حدثنا علي بن يعقوب الكناني قال حدثنا علي بن الحسن بن فضال عنه، وله أصل، أخبرنا به عدة من أصحابنا عن محمد بن علي بن الحسين عن محمد بن الحسن الصفار عن محمد بن الحسين عنه^(٣٤).

يلاحظ عليه: إن هذه القرائن تفيد بالفعل الإشعار والتقريب المذكور لولا معارضتها بقرائن أخرى تفيد العكس، من جملتها:

ما أورده النجاشي عليه السلام في ترجمة أحمد بن محمد بن علي بن عمر بن رباح القلاء: "وصنف كتاباً، فمنها: كتاب الصيام، وكتاب الدلائل، كتاب سقطات العجلية، كتاب ما روي في أبي الخطاب محمد بن أبي زينب، وهو شركة بينه وبين أخيه علي بن محمد، ولم أر من هذه الكتب إلا كتاب الصيام حسب. وأخبرنا بكتبه إجازة أحمد بن عبد الواحد قال: حدثنا عبيد الله بن أحمد بن أبي زيد الأنباري أبو طالب، قال: حدثنا أحمد بها"^(٣٥). إذ لو كانت إجازة الكتب تتضمن المناولة والإطلاع على الكتب لما قال: (ولم أر من هذه الكتب إلا كتاب الصيام حسب).

ويقرب منه ما ذكره عند ترجمة عبد العزيز بن يحيى بن أحمد الجلوسي الأزدي: "وله كتب قد ذكرها الناس، منها: كتاب مسند أمير المؤمنين عليه السلام، كتاب العمل... (وذكر كتاباً كثيرة جداً) هذه جملة كتب أبي أحمد الجلوسي التي رأيتها في الفهرستات، وقد رأيت بعضها. قال لنا أبو عبد الله الحسين بن عبيد الله: أجازنا كتبه جميعها أبو الحسن علي بن حماد..."^(٣٦). حيث اطلع على البعض منها فقط، والباقي وجد أسماءها في الفهارس لا غير.

ولكن يجاب بـ:

أ- أمثال هذه النقولات بالرغم من تصريحها بعدم رؤية بعض الكتب إلا أن مضمونها لا يستوحى منه المعارضة للقرائن السابقة، وذلك لأن الظاهر منها هو بيان الحالات المخارة عن المعهود والمعارف، فالاصل هو الإطلاع على النسخ وأنها وصلت بعينها إليهما، وفي المناسبة والموضع الذي يكون على خلافه تأتي الحاجة والموضوعية والأمانة في بيان الحالة المستثناء منه، إذ هذا ما تقضيه الحرفة والدقة العلمية، وبالتالي تصبح هذه القرائن التي يخالف أنها معارضة ونافية لأدلة وصول عين الكتب للشيوخين فيهما هي داعمة ومؤيدة لهذه الأدلة وللقرائن الأولى، ويبدو أن هذا هو مراد بعض الأعلام^(٣٧) عندما دعى للتأمل والتدبّر في هذه المقاطع، حيث أنها تفضي إلى القول بالإخبار عن النسخ بواقعها، لا بكونها مبشوّنة في الفهارس والإجازات.

ب- هذه الموارد المشار إليها قليلة جداً، ولا تنہض للمعارضة والوقوف ضد الأصل المذكور، فهي بحكم مواضع الإستثناء المبينة التي تحصل كثيراً في شتى الحالات من دون أن تخدش في قضيتها الأساسية.

ـ ٥ـ لو كانت هذه الأسناد إلى أسمى الكتب لكانـت متعددة في أكثر الموارد، بل متواترة، والحال أنها ليست كذلك^(٣٨).

وقد يورد عليه: أنه لا توجد ملازمة بهذا المعنى، والأسناد حتى ولو كانت إلى أسمى الكتب فلا يعني أنها ملقة هكذا بدون تسليم وتسليم بين المشايخ وتلاميذهم، بحيث تنتزع من المصنفات والالفهرستات بوساطة الرؤية فقط، أضعف إلى أن هذا إن تم فلا ينفع مع رجال النجاشي فيه، وذلك لتصريحه: "وذكرت لرجل^(٣٩) طريقةً واحداً حتى لا يكثر الطرق فيخرج عن الفرض"^(٤٠).

الرأي الثالث:- التفصيل في المقام:

وذلك بالقول بعدم وجود منهج واحد وأسلوب متفق في طريقة عرض الأسناد، فمنها ما هو إلى عنوانين المصنفات والأصول فقط، ومنها ما هو إلى المعنونات أيضاً، وييّز بينهما بوساطة بعض الإشارات والقرائن المعينة.

وهذا التفصيل بالأساس مختص بفهرست الشيخ الطوسي رحمه الله، وإن كان بالإمكان تعميّته إلى رجال النجاشي رحمه الله أيضاً، وتوضيحة والإستدلال عليه يتم عبر مقدّمات:

الأولى: الفراغ من كون الشيخ الطوسي رحمه الله لم يطلع على كافة الكتب التي ذكرها في فهرسته، ويكفي لإثبات ذلك قصور الأدلة والشواهد المساقة حول أصالة وقوفه عليها.

الثانية: يظهر من كلام الشيخ رحمه الله في مشيخة التهذيب عند قوله: وما ذكرته عن فلان فقد أخبر به... أن ضمير (به) راجع إلى الروايات التي أودعها كتابه، وبالتالي فالرواية قد أخبروه بعون الروايات ولم يكتفوا بإخباره بأسماء المصنفات والأصول فقط.

الثالثة: إحالة الشيخ رحمه الله آخر مشيخة التهذيب في بقية أسانيد روایاته إلى كتاب الفهرست مؤشر على اتحاد طرقه إلى من روی عنهم في التهذيب مع طرقه التي إليهم في الفهرست، وإلا لما كان هناك معنى للإحالة والإرجاع^(٤).

النتيجة: أن طرق كتاب الفهرست نستطيع تقسيمهما إلى قسمين، قسمٌ قامت القرينة البينة على أنه لمعنونات المصنفات والأصول، وهو للرواية الذين أخذ منهم روایاته في التهذيب، وقسمٌ هو مجرد الإخبار عن عنوانين وأسامي هذه المصنفات، وهو للحقيقة غير من روی عنهم في كتابه المذكور، ووجه هذا التفصيل يبدو جلياً بلاحظة المقدّمات السالفة والتأليف بينها، فمن المقدمة الثالثة نستكشف أن طرق الشيخ في الفهرست والمشيخة واحد، وحيث أن ظاهر الطرق في المشيخة أنها إلى



وأع الكتب - كما في المقدمة الثانية - فكذلك الحال بالنسبة لطرق الفهرست، ولكن ليس بإطلاقها، بل في خصوص ما هي إلى مصادر التهذيب، إذ أن هذا هو القدر الخارج عن مفاد المقدمة الأولى والذي دلت عليه الإحالة المذكورة، وحينئذ تكون سائر الطرق الأخرى - التي إلى غير مصادر التهذيب - هي إلى أسماء الكتب، ولم تنہض القرينة على إطلاع الشيخ رحمه الله عليها، يقول أحد كبار أعلام الرجال ومراجع العصر ^(٤) حين سُئل حول هذا الموضوع:

"ما ذكر من أن الشيخ رحمه الله لم يقف على غالب الكتب، التي أورد أسماءها في الفهرست، وإنما نقلها عن أساتذته بنحو الإجازة المجردة عن الإطلاع على الكتاب، وإن كان صحيحاً في الجملة، ولكنه لا يصح فيما قالت القرينة على خلاف ذلك، كما هو الحال فيما اعتمدته من المصادر في التهذيبين، فإنه يظهر من كلامه في مقدمة مشيختهما، وفي آخرهما أن طرقه إليها في الفهرست، ليست من ذاك القبيل، إذ أنه رحمه الله قد أرجع في آخر المشيخة في الوقوف إلى سائر طرق تلك الكتب إلى فهارس الأصحاب، وكتابه الفهرست، وقد ذكر في مقدمة الفهرست أن الأصحاب إنما ذكروا في فهارسهم الطرق إلى ما اختصوا بروايته أو حوتهم خزائتهم، وبما أن مصادر الشيخ لم تكن من قبيل ما اختصوا بروايته، فلا بد أنها كانت مما حوته خزائتهم من المصنفات.

وعليه فمقتضى إرجاعه إلى تلك الفهارس من معرفة سائر أسانيد تلك الكتب إحرافه اتحاد نسخته منها مع النسخ الموجودة من خزائن أصحاب الفهارس المشار إليهم؛ وإلا لم تكن فائدة في الإرجاع إلى فهارسهم بعد أن لم تكن الأسانيد الواردة فيها أسانيد إلى ما اعتمدته الشيخ رحمه الله في كتابه من نسخ الكتب والمصنفات واحتمال أن تكون إشاراته رحمه الله إلى تلك الطرق مجرد بيان أن هناك طرقاً أخرى لتلك الكتب احتمال ضعيف؛ إذ الظاهر من ذيل عبارته في خاتمة المشيخة، أنه لا ميزة للأسانيد التي ذكرها في المشيخة إلى تلك المصادر عن سائر الأسانيد المذكورة في فهارس الأصحاب،

وإنما اقتصر على ما ذكره من باب الإختصار، بل يكاد أن يكون ذلك صريح كلامه في
مقدمة مشيخة التهذيب.

واستبعاد وقوف الشيخ على اتحاد نسخه من تلك المصادر مع النسخ، التي كانت
موجودة في خزائن الأصحاب في غير محله...”.

وربما أمكن إجراء هذا التفصيل أيضاً مع رجال النجاشي عليه السلام بنفس الفكرة
وعين المقدمات الثلاث السابقة، مع تغيير طفيف في المقدمة الثالثة، وذلك بتوسيع
دائرتها اعتماداً على إحالة الشيخ الطوسي عليه السلام في مشيختي التهذيب والإستبار
إلى فهارس الأصحاب، مما يعني اتحاد نسخه مع النسخ المتداولة عندهم، وكتاب
الرجال للنجاشي عليه السلام يصدق عليه أنه أحد فهارس الأصحاب، فيشمله التفصيل
المذكور أيضاً، ولكن بشرط تجاوز الإشكال القائل بأن تأليف فهرست الشيخ عليه السلام
متقدم زماناً على رجال النجاشي عليه السلام - بدلاًلة أن الأخير قد ذكر كتاب الفهرست
من ضمن ترجمته^(٤٣) - وبالتالي فلا تشمله إحالة التهذيبين.

ويسجل على ما سبق: أن التفصيل المذكور والتوجيه له جميل في حد نفسه
لولا المناقشة في المقدمة الأولى، فهي مبنية على الفراغ من كون الأصل الأوّلي في
فهرست الشيخ عليه السلام أنه إلى أسامي الكتب، وهذا قد تمت مناقشته ضمن الرأي
الأول، وتمت الإشارة إلى بعض ما يضاده في معرض الحديث حول أدلة الرأي
الثاني فلا نعيد، والذي ينبغي أن يضاف: أن إحالة الشيخ الطوسي عليه السلام إلى فهارس
الأصحاب لا يظهر منها الإقتصار فقط على طرقهم إلى المصنفات والأصول التي
اعتمدها في تأليف التهذيبين، بل الذي يشعر منها هو أنه لاشتهر هذه النسخ
وانتشار طرقها في الفهارس فهي لا تختلف عن النسخ التي بحوزته، وبالتالي إذا لم
يحصل على الطريق إليها من خلال مشيخته يمكن استيفاءه من فهرسته أو
فهرستات الأصحاب، وهذا يتلاءم مع الكلام المنقول عن المرجع دام ظله، فحصر

الإحالة على طرق مصادر التهذيبين فقط - وإن كان هو القدر الأوضح والمفروغ منه - لا تساعد عليه عبائر المشيختين، ثم أن عبائر الترجم المستخدمة في الفهرست ورجال النجاشي متشابهة وعلى و蒂رة واحدة في الغالب، فلم التفصيل والتقسيم بينها؟ فهل لفظة (أخبرنا بكتبه) إذا استعملت في حق راوٍ أو ترجمة مصدر مما ورد في التهذيبين تكون بمعنى، وإذا استعملت بعينها في حق راوٍ آخر أو مصدر لم يرد ضمن مصادر التهذيبين تصبح بمعنىًّا مغايرًا و مختلف؟ فالعادة أن الأسلوب في التدوين هو واحد، وصياغة العبائر تكون بنسقٍ ثابت، والخروج عن هذه الطريقة يحتاج إلى بيان وتنبيه، وإلا لعدّ تدليسًا أو فوضى بعيدة كل البعد عن أمثال أعلامنا العظام النزهيين.

نعم، لا خلاف في ظهور بعض الترجم في فهرست الشيخ قتيل ورجال النجاشي رحمه الله في عدم وصول الكتاب وإنما الواصل هو عنوانه فقط، وهذا لا ينكره حتى أصحاب الرأي الثاني، ولكن كما سبقت الإشارة إلى أن هذه الموارد ليست هي الغالبة على الكتابين، ولا تنبع من تأسيس الأصل في أسلوب تأليفهما، وبالتالي فإن أراد أنصار التفصيل الإلماح إلى هذا المعنى فحسب فلا خلاف حقيقة بينهم وبين ما ذهب إليه أصحاب الرأي الثاني، وأما لو كان بناؤهم - كما هو الظاهر من كلماتهم - على أن الأصل في طرق الفهرستين هو أنه إلى أساسيات الكتب، وخرج منه بفضل الإحالة بعض الطرق دون الباقي، فلا غرو من مغايرته للرأي الثاني، ولكن لا يسلم من المناقشة والرد كما يُبين.

المحصلة النهائية والرأي المرجح:

يبدو من خلال سرد الآراء والأدلة أن الرأي الأول هو أبعد الثلاثة من حيث الإنسجام مع قرائن الفهرستين، وببقى الترجيح قائماً بين الثاني والثالث، إلا أن المنراء والمظنون جداً - بحسب الظاهر - أن الرأي الثاني أكثر قرباً وأوفر حجة

من عداه، لا سيّما عند ملاحظة الإحالة إلى الفهارس والفهرست، والوقوف على معنى (أخبرنا وحدثنا) مما تطفح به ترجم الكتابين، ناهيك عن المؤيّدات الكثيرة التي تبعث على الإستئناس وركون النفس بالرأي المختار، والتي من ضمنها -غير ما أسلف في سياق الأدلة:-

أ- شهرة الكثير من المصنفات والأصول، ويشهد لذلك كلام الشيخ الصدوقي رحمه الله مطلع الفقيه^(٤)، وكلمات النجاشي رحمه الله المتنوّعة بهذا المضمون حين يترجم لها^(٥)، إذ أن انتشار الكتاب ووفرة نسخة تقرّب من فكرة الإطلاع على واقع النسخ.

ب- اشتهر الكتاب بحدّ من تعدد نسخه، ولذا قد يفهم من عدم تعرّض الأعلام كالصدوق والطوسي والنجاشي رحمه الله إلى اختلاف النسخ في أغلب الموارد وإرشادهم إلى اختلافها في الأقل أنه في كل موضع يخلو فيه ذكرهم وبيانهم للاختلاف بين النسخ هو بثابة الدليل على عدم وجود الإختلاف والتفاوت بينها، ومعرفة اتحاد النسخ من عدمه ليس أمراً خارقاً يعجز عنه أمثال الشيخ الطوسي أو النجاشي رحمه الله، وقد أقرّ به نفس المرجع رحمه الله المنسوب إليه القول بالتفصيل في النقل المتقدّم: " واستبعاد وقوف الشيخ على اتحاد نسخه من تلك المصادر مع النسخ، التي كانت موجودة في خزائن الأصحاب في غير محله "^(٦).

ج- اعتماد علمائنا الكبار رحمه الله - وخاصة القربي العهد من زمن تأليف الفهرستين - على طرق الشیخین رحمه الله وجعلها مسانيد لرواياتهم وليس للتبرّك فقط، وبعض كلماتهم ظاهرة بجلاء في هذا المعنى، نجد مثلاً ما ذكره السيد ابن طاووس حين تعرّضه لبيان طريقه إلى الشيخ قتّش:
"أقول وربما لا أذكر أول طريقي في كل حديث من هذا الكتاب لثلا

يطول ويكتفي أنني أذكر طريقي إلى رواية كلما رواه جدي السعيد أبو جعفر الطوسي تلقاء الله جل جلاله ببلوغ المأمول... ثم رويت بعدة طرق عن جدي أبي جعفر الطوسي كلما رواه محمد بن يعقوب الكليني وكلما رواه أبو جعفر محمد بن بابويه وكلما رواه السعيد المفید محمد بن محمد بن النعمان وكلما رواه السيد المعظم المرتضى وغيرهم ممن تضمن الفهرست وكتاب أسماء الرجال وغيرها رواية جدي أبي جعفر الطوسي عنهم رضوان الله جل جلاله عليهم وضاعف إحسانه إليهم" (٤٧).

وكذلك ما ساقه الشهيد الثاني قىش في إجازته لوالد الشيخ البهائي (عليه السلام)، حيث صرّح بعد عده لجامعة من الطرق إلى الشيخ الطوسي (عليه السلام): "وبهذه الطرق نروي جميع مصنفاتِ منْ تقدّم على الشيخ أبي جعفر (عليه السلام) من المشايخ المذكورين وغيرهم، وجميع ما اشتَملَ عليه كتابُه فهرستُ أسماء المصنفين، وجميع كُتبِهم ورواياتِهم بالطرق التي له إليهم، ثم بالطرق التي تضمنتها الأحاديث. وإنما أكثرنا الطرق إلى الشيخ أبي جعفر؛ لأنّ أصول المذهب كلها ترجع إلى كُتبِه ورواياتِه" (٤٨).

الخاتمة

في آخر المطاف - وبالرغم من الخروج بنتيجةٍ وترجيح في المسألة - يحسن الالتفات إلى أن البحث لازلت به القابلية للتكامل والتطوير، وبالإمكان إثراوه بالمزيد من النكات والدلائل؛ وذلك عبر السعي لدراسة الظروف والملابسات المرافقة لتأليف الفهرستين - ولو بدراسة الحقب التاريخية والأسباب الخارجية الحبيطة بعصر الشيختين (عليهما السلام) -، وحينها ربما تتأثر بعض الأدلة والمقدمات السابقة فتتغير معها النتيجة النهائية ولو بيسيرًا.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله الأمين وآلـه الطاهرين.

الهوامش:

- (١) المحسني، محمد آصف، بحوث في علم الرجال، ص ٣١١.
- (٢) انظر فوائد كتاب فهرست الطوسي رحمه الله في: أبو المدى الكلباسي، ميرزا بن أبو المعالي، سماء المقال في علم الرجال، ج ١، ص ١٠٦.
- (٣) الطوسي، محمد بن الحسن، الفهرست، ترجمة رقم [٣٦ ٩٨] ص ٧٩.
- (٤) المصدر نفسه، ص ٢٣.
- (٥) المصدر نفسه، ترجمة رقم [٨١٣] ١ ص ٢٦٦.
- (٦) المحسني، محمد آصف، بحوث في علم الرجال، ص ٣١١ (بتصرّف).
- (٧) الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، ج ١٠، (المشيخة) ص ٨٨.
- (٨) الطوسي، محمد بن الحسن، الإستبصار فيما اختلف من الأخبار، ج ٤، ص ٣٤٢.
- (٩) الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، ج ١٠، (المشيخة) ص ٤-٥.
- (١٠) الطوسي، محمد بن الحسن، الإستبصار فيما اختلف من الأخبار، ج ٤، ص ٣٠٤-٣٠٥.
- (١١) الطوسي، محمد بن الحسن، الفهرست، ص ٣٢-٣٣.
- (١٢) راجع: سويدان، الشيخ حسان، نقد الطرق والمشيخة، ص ١٠.
- (١٣) النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي، ص ٣.
- (١٤) الهادوبي الطهري، الشيخ مهدي، تحرير المقال في كليات علم الرجال، ص ١٣٦.
- (١٥) النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي، ص ٣.
- (١٦) الطوسي، محمد بن الحسن، الفهرست، ترجمة رقم [٧١ ٩] ص ٦٧.
- (١٧) المصدر نفسه، ترجمة رقم [١٨ ٣٩١] ص ١٥٧.
- (١٨) المصدر نفسه، ترجمة رقم [١٣ ٤٤٥] ص ١٦٩.
- (١٩) انظر مثلاً: الشهيد الثاني، زين الدين العاملی، البداية في علم الدرایة (المطبوع ضمن رسائل في درایة الحديث، ج ١)، ص ١٣٧؛ أيضاً: البهائی، محمد بن الحسین، الوجیزة في علم الدرایة (المطبوع ضمن رسائل في درایة الحديث، ج ١)، ص ٥٤٧.
- (٢٠) الشهید الثانی، زین الدین العاملی، الرعایة لحال البدایة في علم الدرایة (المطبوع ضمن رسائل في درایة الحديث، ج ١)، ص ٢٣٥.

- (٢١) الحارثي الهمداني(البهائي الأب)، الحسين بن عبد الصمد، وصول الأخيار إلى أصول الأخبار (المطبوع ضمن رسائل في دراية الحديث، ج ١)، ص ٤٣٩.
- (٢٢) انظر بعض النماذج مثلاً: الطوسي، محمد بن الحسن، الفهرست، التراجم التالية: [٢٦] ٢٦ ص ٤٥، [٢٧] ٢٧ ص ٤٥، [١٧٩] ١٩ ص ١٠١، [٢٦٣] ١٤ ص ١٢١، [٣٧٩] ٦ ص ١٥٢، [٤٦٧] ٢ ص ١٧٤، [٦٤٤] ٥٩ ص ٢٢٧، [٦٣] ٦٣ ص ٢٢٨.
- (٢٣) النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي، ترجمة رقم (٤٧) ص ٢٦.
- (٢٤) المصدر نفسه، ترجمة رقم (١٨٠) ص ٧٥.
- (٢٥) المصدر نفسه، ترجمة رقم (١٩٤) ص ٨٠ - ٨١.
- (٢٦) انظر: الشهيد الثاني، زين الدين العاملي، البداية في علم الدراسة (المطبوع ضمن رسائل في دراية الحديث، ج ١)، ص ١٣٨.
- (٢٧) الحسني، محمد آصف، بحوث في علم الرجال، ص ٣١١ - ٣١٢.
- (٢٨) الطوسي، محمد بن الحسن، الفهرست، ترجمة رقم [٣] ٣ ص ٣٥.
- (٢٩) المصدر نفسه، ترجمة رقم [٤٢] ٦٢٧ ص ٢٢٤.
- (٣٠) المصدر نفسه، ترجمة رقم [٧] ٣٨٠ ص ١٥٢ - ١٥٣.
- (٣١) النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي، ترجمة رقم ٨٢٩، ص ٣٠٤.
- (٣٢) المصدر نفسه، ترجمة رقم ٨٤٠، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.
- (٣٣) كما هو الحال في ترجمة حرير بن عبد الله السجستاني: الطوسي، محمد بن الحسن، الفهرست، ترجمة رقم [١] ٢٤٩ ص ١١٨.
- (٣٤) المصدر نفسه، ترجمة رقم [٣] ٣٢ ص ٤٦ - ٤٧.
- (٣٥) النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي، ترجمة رقم ٢٢٩، ص ٩٢.
- (٣٦) المصدر نفسه، ترجمة رقم ٦٤٠، ص ٢٤٠ - ٢٤٤.
- (٣٧) الداوري، الشيخ مسلم، أصول علم الرجال بين النظرية والتطبيق، ج ١، ص ١٥٩.
- (٣٨) الهداوي الطهراني، الشيخ مهدي، تحرير المقال في كليات علم الرجال، ص ١٣٧.
- (٣٩) هكذا في المصدر، ولعلها: (لكل رجل).
- (٤٠) النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي، ص ٣.
- (٤١) الحسني، محمد آصف، بحوث في علم الرجال، ص ٣١٦ - ٣١٧ (بتصرّف وتلخيص).



(٤٢) المقصود هو آية الله العظمى السيد السيستاني دام عزه، والنص عبارة عن جواب لسؤال أرسله له مصنف كتاب بحوث في علم الرجال، وقد أودعه مؤلفه فيه: الحسني، محمد آصف، بحوث في علم الرجال، ص ٣١٧ - ٣١٨.

(٤٣) النجاشي، أحمد بن علي، رجال النجاشي، ترجمة رقم ١٠٦٨، ص ٤٠٣.

(٤٤) الصدوقي، محمد بن علي بن الحسين، من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٣.

(٤٥) وقد أعد أحد الأعلام المتخصصين في هذا المضمار دراسة جديرة بالمطالعة، أثبتت من خلالها وجود الكتب والأصول المشهورة في عصر الشيخ الطوسي تباشير اعتماداً على كلمات الشيخ النجاشي تباشير في رجاله، من أمثل: أن الكتاب معروف، أو كثير الرواية، أو رواه جماعة من الناس... أخ، انظر: الداوري، الشيخ مسلم، أصول علم الرجال بين النظرية والتطبيق، ج ١، ص ١٣٤ - ١٥٦.

(٤٦) الحسني، محمد آصف، بحوث في علم الرجال، ص ٣١٨.

(٤٧) ابن طاووس، رضي الدين علي، فلاح السائل ونجاح المسائل، ص ١٣ - ١٤.

(٤٨) الشهيد الثاني، زين الدين العاملی، رسائل الشهید الثانی، ج ٢، ص ١١٣١.



Resalat Alqalam

Islamic, Enlightening & Comprehensive

● Advisory Board :

Sh. Abdulla Ali Al daqaq
Sh. Ali Fadhel Alsadadi
Sh. Ghazi Abdulhassan

● General Supervisor :

Sh. Abdulraoof Hassan Alrabia

● Editor in Chief:

Sh.mohammed ali khatam

● Editor in Director:

Sh.husain fuad Almarzooq

● Chairman of the Editorial Board:

Sh.Aziz Hassan Salman

● Editorial Board:

Sh.husain ali abu rwais

Sh.m.bager khalil Alshaikh



A Periodical Magazine Issued by the
Bahraini Students
of the Educational Hawza the
Holy City of Qom

